المماليك والعثمانيون في مصر

(٧٥٧ - ٩٢٣ هـ) (١٤٥٣ - ١٥١٧ م)

سلسلة التاريخ المصري

إعداد
الدكتور/ السيد عبد الحليم عبد العال
عضو إتحاد المؤرخين العرب

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

دار الكتب والوثائق القومية

إدارة الإيداع القانوني

إقرار بتسلم رقم الإيداع بدار الكتب

تنفيذاً للقانون رقم ٣٨ لعام ١٩٩٢ م

عنوان المصنف : العلاقات السياسية بين المماليك والعثمانيين

اسم المـؤلـف : د/ عبد الحليم عبد العال

اسم النـاشـر : المؤلف

اسم الطابــع : مطبعة الشمس

الطبعة وتاريخ إنجازها الأولى ٢٠٠٧

تحريراً في ٢٠/٥/٢٠٠٧

رقم الإيداع ٢٠٠٧/١٠٧٩٥

الترقيم الدولي I.S.B.N

977 – 17 – 4711 – 8 مندوب

عدد الصفحات ١٨٦

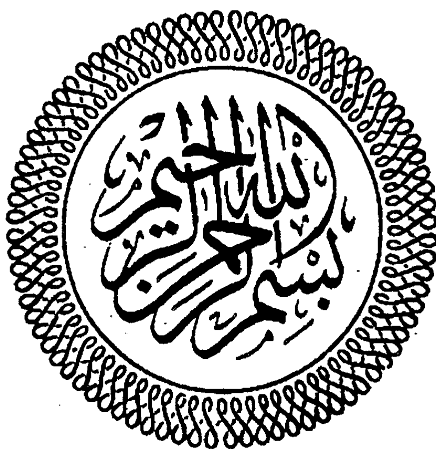
توقيع المستلم د/ السيد عبد الحليم

بطاقة عائلية رقم ١٧٠٢٥١٧

المؤلف

٠١٠٢٢٧٢٧١٠

٠٤٨/٢٢٦٣٤٨٢٧


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

" وعلمك ما لم تكن تعلم وكان

فضلُ الله عليك عظيما "

" صدق الله العظيم "

المقدمة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

أحمد الله سبحانة وتعالى على أن وجه قلبى وجهة صالحة إرتضاها ، ويسر لى سبيل عمل أحببته ، ووفقنى لأجد فى هذا العمل النافع لذة نفسية و متعة روحية ، وهدانى إلى إبراز هذا العمل فى ثوب قشيب راجياً منه جل وعلا أن يجعله خالصا لوجهه الكريم، لا رياء فيه ولا سمعة وأن يهب لى من لدنه توفيقاً وقوة و صبرا ، إنه سميع مجيب .

وأصلى وأسلم على نبيه سيدنا محمد ، أكمل الناس خلقاً و أغزرهم علماً وأسماهم مثالاً وأعلاهم همه و أمضاهم عزماً و أنبلهم مقصداً ، وأبعدهم أثرة ، وعلى آله وأصحابه الكرام ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إن موضوع العلاقات السياسية بين المماليك و العثمانيين من الموضوعات الشيقة الجديرة بالبحث ، حيث أن دراسة التنافس و الصراع و العلاقات بين الدول الإسلامية المتجاورة ، ولاسيما المملوكية و العثمانية و الصفوية و التركمانية ، من المباحث التاريخية الصعبة ، ولكنها ممتعة للنفس .

و القصد من البحث : – ليس القيام بدراسة سريعة لتاريخ العلاقات بين الدولتين على أساس التتبع الزمنى ، و إنما دراسة على أسس منهجية متعمقة و متبلورة بإبراز سماتة وتأكيد الخطوط العريضة فيه و الإتجاهات المهمة له ، فى شكل موضوعات محددة ، يرتبط كل موضوع منها بالآخر فى إطار عرض متكامل ، تأكيداً لإستمرارية التاريخ المصرى عبر العصور ، وإن تغير طابع الحياة فى مصر من حقبة إلى أخرى ، حيث إن التاريخ القومى للأمم هو كيانها و دليل وجودها . وقد آثرت فى هذا البحث البعد عن السرد و الإسهاب ، و توخيت النقد و التحليل ، و الربط و التعليل و الحكم ، و توضيح الملابسات و عرض الموضوعات عرضاً شيقاً ، مع حُسن التوجيه و تيسير الفهم ، و الكشف عن المصادر و المراجع المختلفة عند كل مناسبة ، و عولت على الرجوع إلى ما كتبه المؤرخون الذين عاشوا بأنفسهم فى تلك الفترة موضوع البحث .

و من الإنصاف أن أسجل هنا عوامل حببت إلىّ الإقدام على هذه الدراسة :-

أهمها توافر المصادر التاريخية مثل نهاية الأرب فى فنون الأدب لـ شهاب الدين النويرى و مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ،والتعريف بالمصطلح الشريف لإبن فضل الله العمرى ، و صبح الأعشى للقلقشندى ، و الخطط و السلوك وإغاثة الأمة بكشف الغمة لـتقى الدين المقريزى ، و النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى و غيرها . و قد إستعنت بكتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور لإبن إياس الذى هو عمدة بحثى هذا ، حيث إنه شاهد عيان على تلك الوقائع السياسية و التقلبات الإدارية آنذاك و أحياناً له نقد عارض و أوصاف إجتماعية قد يستطرد إليها فى هوادة و رفق بمناسبة معينة أو يفاجئ القارئ بها.وقد تضمن البحث أربعة فصول ، الفصل الأول تناول التعريف بالدولة المملوكية و الدولة العثمانية وتتبعت أصل كل منهما و النشأة و أظهرت السمات الخاصة بأهم سلاطين هاتين الدولتين ، سجلت بعض الملاحظات على كل دولة منهما.وعالج الفصل الثانى ، مسار العلاقات المملوكية العثمانية و أوضحت كيفية الإتصال بينهما ، و نظرة كل منهما للآخر ، و بوادر الإحتكاك بينهما ، و لجوء الأمير جم العثمانى إلى مصر و ما ترتب عليه من سوء فى العلاقات. و تناول الفصل الثالث فى قسمه الأول إتجاه العثمانيين نحو الشرق بعد فتوحاتهم بأوربا ، حيث بلغت زروتها فى عهد السلطان محمد الفاتح و السلطان بايزيد الثانى ، ثم الهدوء الذى ساد الجبهه الأوربية بعد أن تولى السلطان سليم الأول زمام الأمور ، ثم تحوله نحو الشرق ليقضى على الخطر الشيعى .

أما قسمه الثانى فتناول الصراع بين العثمانيين و الصفويين وقضاء السلطان سليم على الشيعة بإيران فى معركة جالديران سنة ٩٢٠هـ /١٥١٤ م .

الفصل الثالث : تضمن الخلاف العثمانى المملوكى ، وتوتر العلاقات بينهما سنة ٨٦٤هـ/١٤٦١م أيام السلطان قايتباى ، ثم الصلح الذى لم يدم طويلاً و إندلاع الحرب فى مرج دابق بالشام سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م و موت السلطان قانصوه الغورى أثناء المعركة ، ثم قيادة السلطان طومان باى للمقاومة المصرية ضد العثمانيين و هزيمته فى الريدانية سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م وإستمرار المقاومة فى الصليبة و أطفيح و الجيزة ووردان ، ثم إخفاقها بشنقه على باب زويلة ، ودخول مصر فى التبعية العثمانية مع التركيز على أهم العوامل التى عجلت بنهاية دولة المماليك الجراكسة .

ثم إنتهى البحث بخاتمة وملاحق تضمنت المراسلات بين الدولتين العثمانية المملوكية ، و خرائط توضيحية وصوراً فوتوغرافية ، ثم المصادر التى إشتملت على مخطوطات و مصادر أصلية و مراجع عربية و مترجمة و أجنبية و فهرست للموضوعات .

وبعد : فهذا عمل متواضع بذلت فيه مخلصاً لله تعالى أقصى ما أستطعت من جهد إستغرق وقتاً فى سبيل الدقة وحُسن الضبط ، فإن يكن من خطأ فغير مقصود فإن وفقت ، فما توفيقى إلا بالله و أدعو الله تعالى أن يجعل من هذا البحث نفعاً عاماً و أن يهيئ لى ولغيرى من يضع حلقة فى التاريخ لتكتمل فى النهاية سلسلة وثيقة الحلقات فى تاريخ مصرنا الحبيبة

و بقيت كلمة أخيرة ، تتعلق بكل من تفضل و أسهم بمساعدة فى إخراج هذا البحث إلى حيز الوجود وهم أكثر من أن أستطيع ذكرهم ، و يظهر عجزى عن الوفاء بجزء مما يجب نحوهم ، وكل ما أستطيع قوله مخلصاً : شكر" من الأعماق و عرفان بالجميل لأساتذة أعلام و مُعلمين كبار وأخوة أعزاء ، بذلوا جميعاً بسخاء كل ما عندهم ، حتى شعرت فى النهاية إننى لم أفعل شيئاً سوى تنسيق وصياغة وربط كل ما تفضلوا به و أصبح دورى فى الواقع أقل الأدوار شأناً وإن كان يبدو أكبرها فى الظاهر.

المؤلف

١- أصل المماليك فى الدولة الإسلامية :

كلمة مماليك : مفردها مملوك وهو إسم مفعول مشتق من الفعل العربى (ملك) ، ويقال عبد مملوك إذا سُبى ومُلك بعد بيعه فى الأسواق أو من الحروب ، ويبدو أن هذا المعنى وافق ما جاء فى القرآن الكريم ، فى قوله تعالى { أو ما ملكت أيمانكم } (١) .

ولم يلبث هذا اللفظ أن أتخذ معنى إصطلاحياً خاصاً فى التاريخ الإسلامى فأصبح يقصد بكلمة المماليك جموع الرقيق الأبيض ، الذين أصبحوا رقيقاً نتيجة للأسر فى الحروب أو البيع فى الأسواق طلباً للربح حيث كان التجار يطلبون مبالغ مرتفعه لهؤلاء العبيد (٢) .

والحقيقة أن الخلفاء العباسيين هم أول من إستخدم المماليك فى توطيد نفوذهم لاسيما المأمون (٣) ، حيث أنهم قد إرتابوا فى إزدياد نفوذ الفرس فلجأوا إلى الإكثار من شراء المماليك الترك ليدعموا نفوذهم ويقوى بهم سلطانهم ولم يلبث أن شاع إستخدام المماليك فى كثير من أرجاء الدولة الإسلامية (٤) ، وقد حظى المماليك الذين جلبوا صغاراً بعطف سادتهم وأساتذتهم ، فازداد نفوذهم حتى سيطروا فى النهاية على مقاليد الأمور فى البلاد .

---

(١) سورة النساء : آيات ٣، ٢٤ ، ٢٥ – وسورة النحل : الآية ٧١ وسورة النور : أيات ٣١ ، ٣٣ ، ٥٨

(٢) ويذكر محمد رفعت أن أصل المماليك هم الذين حكموا البلاد بعد الأيوبيين من شمالى قارة آسيا ومعظمهم أتراك و هم المماليك البحرية ، اما من خلفهم من الجراكسة فموطنهم الأصلى جورجيا والقوقاز وبلاد الجركس ، تاريخ مصر السياسى، ط٤، سنة ١٩٢٨م، القاهرة ، ص ٢٠ ، ٢١ .

(٣) هو عبد الله المأمون بن الخليفة هارون الرشيد ، ولد سنة سبعين ومائة هـ أمه (مراجل) الفارسية مربية جعفربن يحيى البرمكى ، تهيأت له وسائل التربية والتثقيف ، فظهرت علية النجابة والذكاء وبعد الهمه. فكان ذلك سبباً فى جعل أبيه هارون الرشيد يستوثق له الأمر فى ولاية العهد ، وحدث نزاع مع أخيه الأمين على الحكم ، إنتهى بقتل الأمين وتولية المأمون الخلافه . أحمد فريد رفاعى : عصر المأمون ، المجلد الأول ، ط١ مطبعة دار الكتب بالقاهرة سنة ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م ، صـ١٥٨ ؛ الميجر سفدج وسليم حسن : صفوة تاريخ مصر والدولة العربية ط١٠ سنة ١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م مطبعة المعارف بالقاهرة ،ما يفيد المعنى من ص ٣٦ ، ٣٧

(٤) المقريزى : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار – ١٢٧٠هـ بولاق ، القاهرة جـ١ صـ ٩٤

التى إستوطنوها .وكانت مصر مثالاً بارزاً فى ولايات الدولة العباسية التى شهدت هذا التطور ، فمثلاً "طولون " (١) الذى اسس إبنه أحمد الدولة الطولونية فى مصر كان مملوكاً تركياً للخليفة المأمون بعدما آلت إليه الخلافة وعندما طمع أحمد بن طولون فى الإستقلال بمصر ، رأى أن يدعم إستقلاله بقوة ضاربة من المماليك ، فاكثر منهم حتى بلغوا أربعة وعشرين ألفاً(٢)فلما دالت الدولة الطولونية وأسس محمد بن طغج الأخشيدى(٣) دولته فى مصر سنة ٩٣٥هـ / ١٣٣١م إعتمد هو الآخر على المماليك وأكثر منهم حتى بلغت مماليكه ثمانية آلاف مملوك(٤)، وإذا كان الخلفاء الفاطميون الأوائل قد إعتمدوا على المغاربة و السودان -العبيد- فى تكوين جيوشهم ، فإن الأواخر منهم لاسيما " المستنصر بالله " (٥) فصاعداً قد أكثروا من الاعتماد على المماليك و هم بذلك حافظوا على سياسة الطولونيين و الاخشيديين ؛ و استمر الحال كذلك حتى قامت الدولة الايوبية لتفتح صفحة جديدة فى تاريخ الشرق ثم اسس المماليك على أثرهم دولة عظيمة كانت صاحبة أمجاد فى التاريخ الاسلامى (٦) .

---

(١)هو والد أحمد مؤسس الدولة الطولونية ، وتولى أمر مصر إبنه فى سنة ٢٥٤هـ /٨٦٨م وينسب إليه الجامع الذى بناه بالقاهرة ، ومات بعدما أقعدة المرض وترك من الأولاد ثلاثة وثلاثين ولداً ومن البنات ستة عشر بنتاً . شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٥٤٩ ، معارف عامة ج٢٨ ورقة ٢٠ ، ٢١

(٢) إبن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، طبعة ثانية سنة ١٣١١- ١٣١٢هـ ، القاهرة ، تحقيق محمد مصطفى ، ج١ص٩٤

(٣) محمد بن طغج الأخشيدى : هو أبو بكر محمد بن طغج تولى إقليم الحوف ثم ولاه الخليفة الراضى مصر سنة٣٢٣هـ/٩٤٤م، وإستمر يحكمها حتى سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م ودعاه إضطراب أحوال العباسيين فى بغداد ليعلن إستقلالة فاعترف به الخليفة ولقبه بالأخشيد لقب ملوك فرغانه أصل أسرتة وهو يعنى (بياض الشمس) .

(٤) أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣١م ، ج٣ ، ص٢٦٥ - ٢٥٩ .

(٥) المستنصر بالله هو أبوتميم محمد بن عبد الظاهر ؛ولد يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر جمادى الآخرة سنة ٤٢٧هـ/بويع بالخلافة يوم الاحد ،الخامس عشر من شهر شعبان ، وهو فى السابعة من عمرة ومكث فى الخلافة ستين سنة وأربع أشهر وهو أطول الخلفاء حكما

• السيوطى : حُسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ،القاهرة ،سنة ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م،جـ٢،صـ١١٦؛ حسن إبراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية ،دار الكتب ،القاهرة سنة ١٩٥٨م ،صـ١٦٩ ،١٧٠ .

• شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى .

تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة جـ٢٦ صـ٢٠،٢١ .

(٦) المقريزى المواعظ و الاعتبار ؛ جـ١ صـ٩٤؛ ٩٥ .

نفوذ المماليك فى عصر الأيوبيين :

دب الخلاف والشقاق بين ورثة صلاح الدين الايوبى على السلطة ، وقامت المنازعات بين أبناء البيوت القديمة التى كانت تحكم أجزاء من العرب والمسلمين . وفى أثناء تلك الفوضى الضاربة ، كان لابد لكل أمير من الأمراء أن يكون لنفسه عصبية يعتمد عليها فى الإحتفاظ بإمارته أو تحقيق مطامعة على حساب أمير آخر سواء من قريب أو بعيد (١) .

ولم يجد أمراء المسلمين – خاصة الأيوبيين – وسيلة يشدون بها أزرهم فى وجه خصومهم سوى المماليك (الرقيق الأبيض) فأكثروا من شرائهم وعنوا بتدريبهم وتنشئتهم ليكونوا عدة وسنداً لهم فى المستقبل ، فزاد نفوذ هؤلاء المماليك ، وسرعان ما غدا لهم كلمة مسموعة فى الأحداث الجارية والخلافات التى تعرضت لها المنطقة (٢) .

ومما سبق يتبين :- أن سلاطين الأيوبيين دأبوا على شراء المماليك وبخاصة من بلاد (القفجاق وماوراء النهر) واتخذوا منهم قوة يعتمدون عليها فى تثبيت حكمهم والوقوف فى وجه خصومهم ، هذا وقد ظل هؤلاء المماليك الأتراك أداة سهلة لينة فى أيدى سادتهم الأيوبيين طالما احتفظ هؤلاء السادة بقوتهم وهيبتهم (٣) وإلى جموع المماليك بالذات يرجع الفضل فى إحتفاظ خلفاء صلاح الدين بالحكم (٤) . لاسيما (السلطان العادل.(٥)

---

(١) إبن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال- جـ٢ص٣٦٢ سنة ١٩٦٠م ، جـ٤-٥ تحقيق حسنين ربيع ، سنة ١٩٧٢ – ١٩٧٧ ، جـ٢ ،ص٣٧٨، ٣٧٩

(٢) أبوشامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ ٢ ، ص٢٢٦

(٣) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ١٩٣٤- ١٩٥٨م ، القاهرة تحقيق محمد مصطفى ، نشر لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة ، جـ١ ص١٤٦- ١٤٧.

(٤) صلاح الدين الأيوبى :هو أبو المظفر صلاح الدين الأيوبى يوسف بن أيوب بن شادى ، من أشهر ملوك الإسلام ، أصلة كردى ، إستوزره الخليفة العاضد الفاطمى عقب موت عمه شيركوه وما لبث أن إستقل بمصر سنة ١١٧٢م ، وشرع فى إصلاح أحوال مصر على الصعيدين الداخلى والخارجى ومآثره لاتحصى
* النويرى : نهاية الأرب ، جـ٢٨ صـ٤٣٧ .

(٥) السلطان العادل : هو سيف الدين أبى بكر بن الأمير نجم الدين أيوب بن شادى الرابع من ملوك بنى أيوب ، وبويع بالسلطنة بعد خلع ابن اخية المنصور محمد فى سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩١ م و قد ولد فى مدينة بعلبك سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٠ م وهو اصغر من اخية صلاح الدين يوسف بن ايوب ، وكان نافذ الكلمة ، قيل انه كان يشتى فى مصر ويصيف فى الشام وكان خفيف الركائب ، مسعود الحركات ، كثير الغزوات ، وافر العقل * أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٦ ص١٦٠ .إبن دقماق الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ،تحقيق محمد كمال عز الدين ، ط١ ، سنة ١٩٨٥ ، بيروت ، ج٢ ص١٥٨ .؛ إبن اياس : بدائع الزهور جـ١ ص٢٥٣ .

والسلطان الكامل (١)) وبتفوقهم الحربى فى وجه خصومهم من الصليبين ومنافسيهم من أمراء المسلمين (٢) .

٣- التعريف بالمماليك الجراكسة : - (البرجية) (٣)

بدأ حكم المماليك عموماً بعنصر التركمان ومن هذه المناطق التركمانية جَلب نجم الدين أيوب (٤) أغلب مماليكه ، الذين أسكنهم في جزيرة الروضة بالقلعة هناك على النيل أو ما سُمى (ببحر النيل)

---

(١) السلطان الكامل : هو الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب الخامس من ملوك بنى أيوب فى مصر ، بويع بالسلطنة بعد موت أبيه العادل يوم الجمعة السابع من جمادى الآخر سنة ٦١٥هـ / ١٢١١م ، والكامل أكبر إخوتة – (وذكر الشيخ شمس الدين الذهبى أن الملك الكامل حكم الديار المصرية ما يقرب من أربعين سنة ، نصفها فى حياة أبية والنصف الآخر مستقلاً) كان كثير الأسفار إلى البلاد الشامية ، كثير الإقامة بوادى العباسه ، وأكمل بناء القلعة وسكن بها وإن أحب العباسة عنها .

* إبن إياس : بدائع الزهور ، جـ١ صـ٢٥٨ ؛ * أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٦٢صـ٢٢٧. ** بخصوص وادى العباسة الذى سكن به السلطان الكامل : يقع الوادى بالجبهة الشرقية للقاهرة وسميت المنطقة بهذا الإسم نسبة إلى العباسة بنت أحمد بن طولون ، وهذه المنطقة تتبع فى الوقت الحالى أبو حماد محافظة الشرقية ، محمد رمزى " القاموس الجغرافى " ق٢ جـ١ صـ٦٩ . طبعة دار الكتب بالقاهرة ، سنة ١٩٥٢ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور :الحركة الصليبية ، ١٩٥٩م القاهرة جـ٢ صـ١١٢، ١١٣ ، الناشر مكتبة دار النهضة المصرية؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ صـ ١٤٧

(٣) فى خطط المقريزى جـ٣ صـ٣٩١ تحت عنوان " ذكر دولة المماليك الجراكسة " ما يفهم منة أن الذى أطلق عليهم البرجية (و هو الاسم الذى طالما اشتهروا بة) هو السلطان المنصور قلاون و كذلك فى نفس الجزء صـ٣٤٨ تحت عنوان اخر ، ما يفهم منة أن الذى سماهم البرجية هو خليل بن السلطان المنصور قلاون ، و يرجع السبب فى تسميتهم بنفس الاسم هو أنة أسكنهم فى أبراج القلعة .

(٤) نجم الدين أيوب : هو الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر ، السابع من ملوك بنى أيوب بمصر ، وبويع بالسلطنة بعد خلع أخيه العادل أبى بكر وكان عمره آنذاك ٣٤ سنة وولد فى مصر بقلعة الجبل سنة ٦٠٣هـ / ١٢٩٤م ، ولما تولى السلطنة أخذ فى تدبير ملكة وأكثر من شراء المماليك الأتراك ، وهو أول من جلبهم إلى مصر حتى ضاقت بهم القاهرة بعد أن شوشوا على الناس ونهبوا بضائعهم ، فضج الناس منهم وكثر دعائهم على الصالح بسببهم حتى قال قائلهم :

الصالح المرتضى أيوباً أكثر من .. ترك بدولته ياشر مجلوب

لا أخذ الله أيوباً بفعلته .. فالناس قد أصبحوا فى صبر أيوب

تسارع الصالح فى بناء القلعة بالروضة بالقرب من المقياس وأسكنهم بها وسماهم المماليك البحرية .

* إبن إياس : بدائع الزهور ، جـ١ صـ ٢٦٩ ؛ بتفصيل راجع أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ، ص٣١٩ ؛ وخير الدين الزركلى : الأعلام طبعة ١٠ ؛ دار العلم للملايين ، سنة١٩٩٢م ، ج٢ ، ص٣٨ .

فعرفوا بالمماليك البحرية (١) حيث كان منهم أغلب السلاطين الأوائل الذين حكموا مصر فى الفترة (٦٤٨ – ٧٨٣هـ / ١٢٥٠ – ١٣٨٥م) وكان عددهم خمسة وعشرون سلطاناً

وبقدر ماتقوى عصبية السلطان أو الأمير بقدر مايتمكن من مغالبة زملائه الأمراء ، بل ويمكنه مغالبة السلطان نفسه وإنتزاع السلطنة منه كما حدث ذلك فى كثيرمن الحالات (٢) .

ولعل هذا هو السر فى أن كل سلطان كان بعيد النظر وكل أمير كان حريص على تحقيق مطامعة ، يعمل على الإكثار من المماليك الصغار ويربيهم ليكونوا عدته مستقبلاً .

ومن هنا نرى السلطان المنصور قلاو ن (٣) يكون فرقة جديدة من المماليك يعتمد عليها ضد منافسيه من كبار الأمراء ، وتكون سنداً لأولاده وزريته فى الإحتفاظ بالعرش ، ولتحقيق هذا الغرض رأى أن تكون فرقتة الجديدة من جنس غير كل الأجناس التى ينتمى اليها مماليك عصرة ، فأعرض عن شراء الأتراك ، وأقبل على شراء الجراكسة الذين ينتمون لبلاد الكرج (جورجيا).

---

(١) بخصوص تسمية البحرية : يذكر القلقشندى أن أول من سماهم بهذا الإسم هو السلطان نجم الدين أيوب: صبح الأعشى فى صناعة الأنشا ••طبعة ثانية ١٩١٣، ١٩١٧- جـ٤ صـ١٦، ١٩١٤ المطبعة الأميرية .
ويذكر المقريزى : أنهم طائفة من الجنود السلطانية ، عملهم المبيت فى القلعة حول دهاليز السلطان فى السفر كالحراس . • المقريزى : السلوك ، جـ١ صـ٦٥٥ ، ويمكن القول بسبب سكنهم بجزيرة الروضة .

(٢) عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للمماليك (دراسة تحليلية للإزدهار و الإنهيار) – ١٩٨٨م الناشر مكتبة الأنجلو ، القاهرة،ص٨٢ ؛ عاشور : العصر المماليكى فى مصر و الشام ، الناشر دار النهضة العربية . القاهرة ص١٤٠ ، ١٤١ .

(٣) المنصور قلاو ن : هو الملك المنصور سيف الدين قلاون الألفى العلائى الصالحى أحد المماليك الأتراك البحرية قبجاقى الجنس من قبيلة (رج أغلى) جُلب صغيراً وأشتراه الأمير علاء الدين أحد سنقر الساقى العادلى بألف دينار وسار بعد موتة إلى نجم الدين وتقلبت به الأمور حتى سار أتابك العسكر زمن السلطان العادل سلامش وذكر أسمه على المنابر معه ، وخلفه فى الحكم • المقريزى : الخطط: جـ٣ صـ ٣٨٧ ؛ عبد الباسط بن خايل : نزهة الأساطين ، ميكروفيلم فى معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية تحت رقم ٥٤٣تاريخ ، ورقة ٤٧٩ ويزيد كل من محمود رزق سليم ووليم موير بأنه خلفه حيث كان أكبر الأمراء وأتابك العسكر وحموالسلطان وتولى مقاليد الأمور لأنه كان وصى على سيف الدين سلامش ولم يلبث أن خلعه وتبوأ مقعده ، وحارب الأمير سنقر المتمرد فى بلاد الشام وإستولى عليها و فى عهده هاجم المغول بلاد الشام فهزمهم شر هزيمه وهى حادثة عظيمة فى تاريخ الشرق ومصيره • محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م القاهرة جـ١ صـ٣٥ ؛ وليم موير : تاريخ دولة المماليك فى مصر (١٢٦٠ – ١٥١٧ م) ترجمة : محمود عابدين و سليم حسن القاهرة – مطبعة المعارف بالقاهرة . صـ٥٥– ٥٦.

وهى البلاد الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود ، حيث توجد هناك منطقة تعرف باسم جركس Cercetae أو Clreassia أو Tcherkesses تمتد على الشاطئ الشرقى للبحر الأسود ، وهى منطقة كاملة إذا إستثنينا منها وادى كوبان Koban (١)

والواقع أن الجراكسة كانوا مشهورين بالشجاعة والفروسية ، فضلا عن الوسامه والجمال وخصوصا النساء ، وكانت تجارة الرقيق رابحة بينهم ، حتى ان البعض منهم كان يبيع أبناءه وبناته ، وقد كثر عددهم فى مصر بعهد السلطان المنصور قلاون وإبنه خليل (٢) وبلغ عددهم فى عهد خليل ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك والسبب فى ذلك تعرضهم لغزوات المغول (٣) ، ويبدو أن كثرة الجركسى فى الأسواق أدى إلى إنخفاض أسعارهم على الرغم مما إمتاز به هؤلاء من جمال الصورة كما سبق ذكره ، حتى إن متوسط ثمن المملوك الواحد بلغ مائة وخمس عشر ديناراً فى حين كان متوسط المملوك التركى مائة وخمسين ديناراً ، وعلل المنصور قلاون الاكثار منهم بقوله : (ليكونوا حصوناً ما نعة لى ولأولادى وللمسلمين من بعدى) . (٤)

---

(١) إبراهيم على طرخان : مصر فى عهد دولة المماليك الجراكسة (١٣٨٢هـ/١٥١٧م) طبعة أولى ١٩٦٠م القاهرة الناشر مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سلسلة الألف كتاب ، رقم (٢٧٩) ص ٨ .

(٢) الخليل قلاون : هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ، خلف أبيه المنصور قلاون فى السلطنة يوم الأحد غرة شهر ذى القعدة سنة ٦٨٩هـ/١٢٨٧م وكان شغوفاً بالفتوحات ، فلقد فتح عكا واستولى على صور وحيفا وصيدا ، بل وأجلى الفرنج من الساحل الشامى كله . ، وخرج لرحلة صيد حتى بلغ الطرانة وانفرد فى نفر يسير ليصطاد فاقتحم عليه الأمير بيدار فى عدد معه وقتلوه يوم السبت ١٢ محرم سنة ٦٩٣هـ/١٢٩١م بعد حكم دام ثلاث سنوات وشهرين وأربعة أيام ودفن فى المدرسة الأشرفية ، وخلفه فى السلطنة أخيه الناصر محمد بن قلاون . المقريزى : الخطط ، جـ٣ صـ٣٨٨ ؛ محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ، جـ١ ص ٣٧ .

(٣) النويرى : نهاية الإرب فى فنون الأدب جـ١ ورقة ٢٤٧ .

(٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ٢ صـ٢١٣ ، المقريزى : السلوك ، جـ١ صـ ٧٥٦ ؛ محمد عبد الستار البنا الريف المصرى فى العصر المملوكى ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠- ١٥١٧م سنة ١٩٩٠م ؛ رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الأداب جامعة طنطا ، ما يفيد المعنى فى صـ٢٢ ،٢٤ وما بعدها .

ويلاحظ أن المنصور قلاون حرص على عزلهم عن غيرهم وأشرف بنفسة على تدريبهـم ، وحباهم بعطفة ولم يضن عليهم بالمال الوفير والطعام الشهى والملبس الجميل ، بل رقاهم إلى المناصب الكبرى فى البلاط الحاكم ، ومن ثم نجح فى تأسيس بيت توراث السلطنة نحو قرن من الزمان . (١) وهو أمر فريد فى دولتى المماليك ، ومن ناحية أخرى فقد حقق الجراكسة الغرض المقصود منهم ، فكانوا بمثابة دعامة كبرى دافعت عن بيت قلاون بأكملة . (٢)

ويلاحظ أن أغلب السلاطين الجراكسة الذين تسلطنوا فى مصر كانوا على ثقافة عالية جداً ، خصوصاً العربية حتى أن بعضهم كان يقرض الشعر العربى ويدخل به فى مناقشات لغوية عويصة . (٣) وكذلك ما يثير الدهشة أن لفظة البرجية لم تظهر مطلقا فى المراسلات الرسمية والغير رسمية (٤) .

٤- ظهور المماليك الجراكسة على مسرح الأحداث :-

من المعلوم ان السلطان قلاون قد فرض نطاقاً من العزلة حول الجراكسة ، ولكن هذا الوضع لم يدم طويلاً ، فقد فشل خلفاءه فى فرض تلك العزلة ، لاسيما بعد تزايد أعدادهم . (٥)

لذلك نرى الأشرف خليل بن قلاون يسمح لهم بالنزول من القلعة (٦) أثناء النهار واشترط عليهم العودة قبل المغرب للمبيت فيها . ومن هنا زادت معرفتهم بالحياة العامة وعلموا الكثير عن الأوضاع الداخلية الخاصة بالبلاد ، وكان المنصور قلاون مسرفاً فى العطف على الجراكسة الجدد وفرق فى المعاملة بينهم وبين الأتراك القدامى ، فكان له أكبر الأثر فى تأجيج

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١ صـ٧٥٦ ، المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ٢ صـ٢١٤ .

(٢) إبن إياس : بدائع الزهور ، جـ١ صـ١٢٠ .

(٣) إبن اياس ، المصدر السابق ، جـ٢ صـ٣٤ ، ٣٥ .

(٤) دائرة المعارف الاسلامية : طبعة دار الشعب جـ٢ صـ١٣٢٤ ، ١٣٢٥ .

(٥) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ صـ٢٤١ .

(٦) القلعة : أطلق عليها قلعة الجبل ويوجد بها أبراج كثيرة ، أهمها البرج الذى بناه السلطان الكامل بن العادل المقريزى : السلوك جـ١صـ٤٠٣ ، وبتفصيل راجع المقريزى : الخطط ، جـ٣ صـ٣٢٧ ، ٣٢٨ . ، القلقشندى : "صبح الأعشى فى صناعة الإنشا" جـ ٣ صـ ٣٧٣ . ، بول كازانوفا "تاريخ وصف قلعة القاهرة ترجمة أحمد السيد دراج ، مراجعة جمال محرز الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م صـ ٦ ، ٧، ٨ .

البغضاء والتنافربين الفريقين . (١) ، وبالفعل تلفت المماليك الأتراك حولهم فوجدوا فـي الجراكسة منافساً خطيراً لهم ، حيث أنهم يحظون بعطف السـلطان ورعايتـه ، فظهـر التعصب الطـائفي بين الجراكسة والأتراك .

هذا وأدى دفاع الجراكسة عن أبناء المنصور قلاوون وغضبهم لمقتـل الأشرف خليـل ، ثـم ثورتهم لعزل الناصر محمد(٢) ، كل ذلك جعلهم يقفون في جانب والأتراك في جانب آخر ، وتطور الأمـر حتى إن الجراكسة أتى عليهم وقت صاروا لا يهتمون فيه بقليل أو كثير فيما يخص مستقبل النـاصر محمد بن قلا ون ، وكان شغلهم الشاغل هو القضاء على نفوذ الأتراك الذين طال إستبداهم بالحكم و حرصوا دائما على الاستئار به .

و لم تخل المصـادر من إشـارات واضحـة تبين إزديـاد نفوذ الجراكسـة و سطوتهم ، و هـا هـو المقريزى يذكر فـى حـوادث ٦٩٨هـ / ١٢٩٩م فيقـول (زمـن النـاصر قويـت شـوكة البرجيـة بديا رمصر وصارت لهم الحمايات (٣) الكبيرة و تردد الناس اليهم فى الاشغال)

و يذكر ايضا فى حوادث ٧٠٨هـ/١٣٠٨م فيقول : (أن البرجية صارلهم راى مسموع فى

---

(١) إبن إياس : بائع الزهور جـ ١ صـ١٢٠ .

(٢) الناصر محمد بن قلا ون : هو التاسع من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية بويـع بالسلطنة بعد أخية الأشرف خليل يوم الخميس ١٨ محرم ٦٩٣هـ / ١٢٩١م وكان له من العمر آنذاك تسع سنوات ، وأمـه خوند أشلون بنت الأمير نكاى وبعد توليته تلقب بالناصر و نودى باسمة على منابر القاهرة و ضـج لـه النـاس بالدعـاء و دقت لـه البشائر . إبن اياس : بدائع الزهور جـ١، صـ٣٧٨

(٣) الحمايات : المكوس وهو الأموال التى يفرضها الأمـراء علـى الأرض والتجـارة وغيرهـا ، موير : تـاريخ دولـة المماليك فى مصر،ص١٦٩ ؛ هذا ويذكر المقريزى أن المكوس جمع مكس ومن معانيـه فـى اللغـة الضريبيـة (الذى يؤخذ من بائعى السلع بالأسواق) والمكوس فى مصطلح مؤرخى مصر الإسلامية هو (كل مـا تحصـل مـن الأمـوال لديوان الخراج الشرعى) ويسمى أيضاً المال الهلالى ، وكان يجبى فوق الخراج بالديار المصرية المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ١، ص١٠٣ ؛ جـ٢ ، ص١١١ ، ص ١٢١ ، ص ١٢٤.

إختيار السلاطين فعندما إختاروا الأمير سلار (١) فى تلك السنة (٢) ليتولى منصب السلطنة قلق البرجية من ذلك ، و عملوا على إشعال الفتنة و بعد تنازل الأمير سلار عن المنصب ، ترشح له زميلة الأمير بيبرس الجاشنكير (٣)، فسارعوا جميعا للتهنئة و التعبير عن الفرحة و فى عهد السلاطين الصغار من احفاد الناصر قلاون تلألأ

---

(١) الأمير سلار : هو الأمير سلار المنصورى أصبح نائب السلطنة فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وكان فى المقابل الأمير بيبرس الجاشنكير رئيس قصره وأصبح هذا الأمير بحكم منصبه صاحب النفوذ على المماليك البرجية ، فى حين كان سلار له السلطان على الأمراء المستقلين وأدى ذلك إلى تنافسهما فى ترقية أتباعهما وإعلاء مكانتهم ، ولكن شغلهم عن هذا التنافس الخطر المغولى الذى دهم البلاد . * المقريزى : السلوك ،جـ٢،ص٨٩ ، * المقريزى : المصدر السابق،جـ١ صـ٧٩٨ بتفصيل راجع : موير : تاريخ دولة المماليك صـ٦٩ .

(٢) الامير بيبرس الجاشنكير : هو السلطان المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير تقلد منصب السلطة فى يوم السبت الثالث عشر من ذى الحجة سنة ٧٠٨هـ/ ١٣٠٦م خلفاً للسلطان الناصر محمد بن قلاون ، و هو احد مماليك المنصورة قلاون ، و بلغت مدتة فى الحكم سنة و شهرين وخمسة عشرة يوما . المقريزى : الخطط، جـ٣، صـ٣٨٩ و زاد المقريزى فى السلوك فقال :(إن الجاشنكير : هو الذى يتصدى لذوق المأكول و المشروب قبل السلطان ، خوفا من ان يدس علية احد سم و نحوه. المقريزى : السلوك : جـ٢ القسم الاول، صـ٨ و ما بعدها و قال القلقشندى انـه قد دفن بالقبة المنصورية و خلفة إبنة المنصور سيف الدين ابو بكر. القلقشندى : صبح الاعشى جـ٤، صـ٢١ . * و قال موير ان بيبرس الجاشنكير تقلد منصب رئيس قصر السلطان الناصر و كان بحكم مركزة صاحب النفوذ على المماليك البرجية و هناك تنافس شديد مع الامير سلار المنصورى نائب السلطنة ، و كاد هذا التنافس ان يبلغ مداه لولا خطر المغول الداهم على البلاد الشامية .، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، قريب الشبة مما ذكر ، جـ١ ، صـ٢٢٣ ؛ موير : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، صـ ٦٩ .

إسم أحد الأمراء الجراكسة و هو الأمير برقوق (١) الذى تمتع بحنكة عسكرية و قوة فى الشخصية وإستطاع بفضل طموحة وقوته أن يصل إلى منصب أتابك العسكر فى سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٠م (٢) هذا وقد أصبح برقوق على جانب كبير من القوه فى عهد السلطان علاء الدين على بن الأشرف الذى تسلطن سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م(٣) وإستمر يحكم حتى وفاته ٧٨٣هـ / ١٣٨١م ، وكانت سنة أنذاك إثنتا عشرة سنة ، والحقيقة أن برقوق كان فى إستطاعتة إن يلى عرش السلطنة عقب وفاة السلطان مباشرة ، وإنتشرت الشائعات بذلك ، ولكنه كان يدرك أن الأمور لم يتم نضجها بعد ، حيث صاح المعارضون وقالوا : (لانرضى أن يتسلطن علينا مملوك كتبغا) (٤) وهنا تظاهر برقوق بالزهد فى السلطنة .

---

(١) الأمير برقوق : هو الأمير الظاهر أبوسعيد برقوق بن أنص ، أول سلاطين الجراكسة ، أخذ من بلاد الجركس وبيع فى بلاد القرم وجلبه الخوجا (فخر الدين عثمان) إلى القاهرة ، فاشتراه منه الأمير يلبغا الخاصكى ، وأعتقه وجعله من جملة مماليكه الأجلاب ، فعرف ببرقوق العثمانى ، وأقام على خدمة ولدى السلطان الملك الأشرف (على وحاجى) وما لبث أن خلع الصالح حاجى وتسلطن فى يوم الأربعاء التاسع عشر من رمضان سنة ٧٨٤هـ / ١٣٧٣م وإستمر فى السلطنة حتى مات فى يوم الثلاثاء الرابع عشر من شهر صفر سنة ٨٠١هـ / ١٤٠٣م فكانت مدته أتابكاً وسلطاناً إحدى وعشرين سنة وعشرة أشهر وستة عشر يوماً ، خلع خلالها لمدة ثمانية أشهر وتسعة أيام وخلفه بعد موته إبنة الناصر أبو السعادات فرج .

• المقريزى : الخطط ،جـ٣ ،صـ٣٩١ ، ٣٩٢؛ بتفصيل راجع أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ،جـ١١ ، صـ٢٢١ .

(٢) أتابك العسكر : من الألقاب الرفيعة للأمراء ، ومعناها وصى على العرش • أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤صـ٢ - كما ذكر القلقشندى تعريف آخر فقال : - أتابك أو أطابك : يعنى متقدم العسكر أو القائد العام للجيش المملوكى صبح الأعشى ج٤ ، ص١٨ ، ج٦ ص٥ .هذا وأورد الباشا تفسيراً أخر فقال أتابك لفظة مركبة من (أتا) وهى بمعنى أب وكلمة (بك) بمعنى السيد أو الأمير ، وهو الذى يربى أولاد الملوك . حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ط٥ سنة ١٩٥٧،نشر مكتبة النهضة المصرية،ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٣) علاء الدين على : هو السلطان الملك المنصور علاء الدين على بن شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون ، تسلطن وعمره سبع سنوات ولكن لم يكن حظه من السلطنة سوى الإسم حتى مات فى يوم الأحد الثالث عشر من شهر صفر سنة ٧٨٣هـ / ١٣٨٢م وكانت مدتة خمس سنوات وثلاثة أشهر وعشرين يوماً وتسلطن بعده أخيه الصالح زين الدين حاجى . • المقريزى : الخطط ، جـ٣ ، صـ٣٩ بتفصيل أنظر:- إبن دقماق : الإنتصار لواسطة عقد الأمصار - طبعة أولى ، القاهرة ١٨٩٣م جـ٥ صـ٤٣؛الجوهر الثمين جـ٢ صـ٢٤٣ .

(٤) كتبغا : هو السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى أحد مماليك السلطان المنصور قلاون ، جلس على تخت السلطنة فى يوم الإثنين الحادى عشر من شهر محرم سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٣م وتلقب بالعادل ، وكان فى أيامه شر كثير بسبب قصور النيل وغلاء الأسعار وكثرة الوباء ، وقام عليه الأمير حسام الدين لاجين وأستولى على الحكم وكانت مدة حكمة سنتين وسبعة عشر يوماً . • المقريزى : الخطط ، جـ٣ ، صـ٣٨٨ . • ابن إياس : بدائع الزهور جـ١صـ١٣٣.

وجمع الخليفة المتوكل والقضاه وكبار الأمراء فى قلعة الجبل وأعلن أمامهم أن المصلحة تتطلب إبقاء وظيفة السلطنة فى بيت قلاوون ، وهكذا استُدعِى أمير حاجى حفيد الناصر محمد (١) وسنه آنذاك إحدى عشر سنة وأعلنه سلطاناً للبلاد وتم ذلك فى سنة ٧٨٣هـ / ١٣٨١م (٢) ، وبالطبع لم يكن منتظراً من السلطان الجديد (الطفل) أن يقف فى وجه الأمير برقوق ، الذى تحكم فى كل أمور الدولة من غير منازع ، ومكن لنفسة باختصاص زملاءه وأنصارة من المماليك اليلبغاوية بكل الوظائف الرئيسية فى الدولة ، فى الوقت الذى عمل على كسب ثقة الناس ومحبتهم بتخفيض الضرائب ، وسك نقوداً جديدة (٣) .

هذا ولم يسلم برقوق من المؤامرات التى حيكت ضده ، فكان يقظاً وتخلص منها.

وأخيراً وجد برقوق أن الأمور باتت مهيأة لإعلان نفسه سلطاناً ، فانتحل نفس العذر الذى سبق أن احتج به الطامعون فى الحكم وقال : (السلطان صغير السن والبلاد فى حاجة لرجل رشيد يقضى على الإضطراب فى الداخل والخارج ، فعقد إجتماعاً فى القلعة – سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م حضرة الخليفة المتوكل والقضاه والأمراء ، ونهض القاضى بدر الدين ليعلن : (أن الوقت قد ضاق ومحتاجون لسلطان كبير تجتمع عليه الكلمه ويسكن الإضطراب) (٤)

وكان أن أجمع الحاضرون على خلع السلطان أمير حاجى ، بعد حكم دام سنة ونصف وأعلنت سلطنة برقوق وتلقب بالظاهر وخرج بالقبه(٥) والمحفة (٦) .

---

(١) أمير حاجى : هو الصالح زين الدين حاجى أخو الملك المنصور علاء الدين على بن شعبان بن حسين تولى السلطنة فى يوم الإثنين الرابع عشر من شهر صفر سنة ٧٨٣هـ / ١٣٨٥م وكان صغير السن ، وقام بشئون السلطنة الأمير برقوق فاستبد بالأمر دونه يوم الأربعاء التاسع عشر من رمضان سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٦م فدام حكم السلطان حاجى سنة وشهرين إلا أربعة أيام وبه إنقضت دولة المماليك البحرية .

• المقريزى : الخطط ،جـ٣ ، صـ٣٩١ .

(٢) ابن حجر : إنباء الغمر بأنباء العمر ، تحقيق حسن حبشى القاهرة ١٩٦٩– ١٩٧١ جـ١، صـ١٤٩؛

Wiet : L'Egtpt Arabe p.510

(٣) العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان تحقيق محمد أمين القاهرة سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ج٢ ورقة٢٦ ؛

(٤) المقريزى : السلوك جـ٣ حوادث سنة ٧٨٣هـ / ١٣٨١م .

(٥) القبة: مظلة مصنوعة من حرير أصفر مزركش بالذهب وفى أعلاها طائر فضى مطلى بالذهب .

• أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٧ ، صـ١١ حاشية ٣ .

(٦) المحفة : الهوادج المغطاة بالقماش وتُحمل على ظهور الجمال ويجلس فوقها المسافرون .

• أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٧ ، صـ١١ هامش٣ .

، وبعزل حاجي إنتهى بيت قلاون ومعه دولة المماليك البحرية ، وقامت دولة المماليك الجراكسة بتولى الظاهر برقوق (٧٨٤هـ / ١٣٨٢م) (١) .

ولم يكن حكم الجراكسة وراثيا كما كان فى بيت قلاون والدولة الأولى بل كانت سمة عصرهم عدم الإستقرار والثورات والإنقلابات ، على أن كل سلطان وصل للحكم توقف ذلك على شهرته الحربية ودهائه وقدرته على جذب زملاءه الأمراء (٢) .

وأشهر هؤلاء السلاطين (الأشرف قايتباى المحمودى) الذى إستطاع بحنكته السياسية أن يكون خاصكية (٣)

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ، صـ٤٦٠ ، ٤٦١ ،، صادف بيعة السلطان برقوق وقت الظهيرة ومعة صلاة الظهر وأمطرت السماء مطراً خفيفاً وقت البيعة ، فتفائل الناس بذلك خيراً ، ولبس برقوق شعار السلطنة وهو جبه سوداء وشاش ومعه القبه والطير على رأسه والمحفة وإزدانت القاهرة سبعة أيام المقريزى : السلوك جـ١، صـ٤٣٨، حاشية ٣.

(٢) لم يكن مبدأ الوراثة مقبولاً فى دولة الجراكسة فقد حتمت عليهم نشأتهم أن تكون مؤهلات السلطنة (الأقدمية – المهارة الحربية – والقدرة على الدس من وراء ستار) . • المقريزى : السلوك ،جـ ١ ، صـ ٦٥٦ .

(٣) الخاصكية : هم جماعة من حاشية السلطان يأتون فى الترتيب بعد الأمراء المقدمين ، وكان عددهم أربعة وعشرون ، ثم وصلوا إلى أربعمائة ، وخصص لهم السلطان أرزاقاً واسعة . • أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، صـ١٧٩ ، ١٨٠ ، ويطلق عليهم الدكتور عاشور :– المماليك الجوانية فى كتابه العصر المماليكى ، صـ٤١٤ ، ويذكر المقريزى أنهم : قسم من المماليك السلطانية ، يختارهم السلطان من الأجلاب الذين دخلوا فى خدمته صغاراً ويجلهم حرسه الخاص ، ولقد أورد " Quatr etnere " op Git I . 2P, 158.h.3 تعريفين للخاصكية ، ونقل أولهما من (إبن شاهين "زبدة كشف الممالك ،صـ١١٥)ما نصه " الخاصكية هم الذين يلازمون السلطان فى خلواته ويسوقون المحمل الشريف ويجهزون فى المهمات الشريفة ، وهم المعينون للإمرة المتقربون فى المملكة ... ومنهم من هو صاحب وظيفة ومن ليس له وظيفة " .

أما النص الثانى فقد نقله Quatr etnere من كتاب " المقصد الرفيع للخالدى " ونصه " خاصكية لأنهم يحضرون على الملك فى أوقات خلواتة وفراغة ، وينالون مالا يناله كبار المقدمين ولا يتركون الملك طوال النهار وهم فى خدمة القصر والإسطبل ، ويركبون لركوب الملك ليلاً أو نهاراً ، ولا يتخلفون فى قرب أو بعد ، ويتميزون عن غيرهم فى الخدمة بحملهم سيوفهم ولبسهم الطراز المزركش ، وهم يدخلون على الملك بغير إذن ، ويتوجهون فى المهمات الشريفة ، ويتأنقون فى ملبوسهم ومركوبهم " • المقريزى : السلوك جـ١، صـ٦٤٤ ، حاشية ٤ . • بتفصيل راجع : إبن زنبل الرمال : آخره المماليك أو واقعة السلطان الغورى مع سليم ، تحقيق عبد المنعم عامر سنة ١٢٧٨هـ ، القاهرة ، مطبعة الدار القومية ، صـ١١٣ ، حاشية ٤ . والقلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣، صـ٣٧٦ ، جـ٤، صـ٥٦ .

ثم أميراً لعشرة (١) ثم رأس نوبة النوب (٢) ، وأخيراً أتابك للعسكر ، فسلطاناً (٣) .كذلك السلطان الأشرف برسباى الذى حكم ستة عشر عاماً ، إستطاع تخليص جزيرة قبرص (٤) من يد الأفرنج (٥)

و يمكن القول إن تاريخ السلاطين المماليك فى مصر يؤكد خواص دولة عجيبة حدًا حيث أنهم جميعاً من الرقيق الابيض ، أمسكوا بحكم مصر لمدة ثلاث قرون . و كان نجاح السلطان فى مهمته يتوقف على مدى توفيقه فى توجيه كبار الامراء و ضرب طوائف المماليك ببعضها ، فان استطاع السلطان الاحتفاظ بمنصبه حتى وفاته ، كان يخلفه ابنه عادة ، و لكن لعدة اشهر فقط ، حتى ينجلى الموقف بين كبار الامراء و يستطيع أحدهم الانفراد بالغنيمة .

و الغريب أن دولة الجراكسة كانت حافلة بالاغتيالات و الفتن و الانقلابات العسكرية التى لم يحدث لها مثيل فى أى دولة إسلامية سبقت أو عاصرت تلك الدولة (٦)، و مع ذلك : فقد بقيت متماسكة و شامخة ، و حققت إنجازات حربية و حضارية عظيمة فى شتى المجالات .

---

(١) أمير لعشرة : يؤلف أمراء العشرات ثالث الطبقات العسكرية المملوكة ، و يتبع الأمير عشرة فرسان ، و يقود فى الحرب عدداً من جنود الحلقة اكثر من فرسانه . القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، صـ١٤ ، صـ٧٥ .

(٢) راس نوبة النوب : لقب لمن يتحدث عن مماليك السلطان او الأمير ، و ينفذ أمره فيهم و يجمع على رؤس نوب ، و العامة تقول لأعلى شخص فى خدمة السلطان :راس نوبة النواب ، و هو خطأ و الصواب رأس رؤوس النواب أى أعلاهم . القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٥ ، صـ٤٥٥ .

(٣) إبن اياس : بدائع الزهور ، جـ٢ ،صـ٣ ،٤ . بتفصيل راجع : نجم الدين الغزى : الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ، حققة سليمان جبور ، طبعة ثانية سنة ١٩٧٩م بيروت جـ١صـ٢٩٧ ، ٣٠٠ .

(٤) قبرص : جزيرة فى المتوسط ، فى غاية المتانة ، أراضيها خصبة ، كثيرة المشروعات ، عاصمتها نيقوسيا . ياقوت الحموى :معجم البلدان ، مطبعة المعارف ، القاهرة سنة ١٣٢٣هـ / ١٩٠٦م ، جـ١٠ ، صـ٢٩٧ .

(٥) أرسل برسباى لقبرص ثلاث حملات ١٤٢٤، ١٤٢٥، ١٤٢٦م تمكن فى الثالثة من فتحها ووقع ملكها لوسنجينان (دى لوزجنان) فى الاسر و فدى نفسة فى مصر بمائتى ألف دينار و فرضت علية جزية سنوية عشرية ألف دينار و إستمر هذا الحال حتى فتح العثمانيون مصر سنة ١٥١٧م .* الشناوى : أوربا فى مطلع العصور الحديثة ، ط ١ سنة ١٩٦٩م دار المعارف بالقاهرة ، جـ١ صـ ٧٤٩. بتفصيل راجع المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، صـ٤٨ .

(٦) بتفصيل : راجع : عمر الاسكندرى ، و الميجر أ.ح سفدج : تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى (مع أخبار الامم التى إرتبطت بمصر إلى ذلك العهد) ط٧،١ سنة ١٩٢٥م مطبعة المعارف بالقاهرة ، صـ٢٦٥.

[١] نشأة الدولة العثمانية وتطورها :-

فقدت مصر إستقلالها ومركزها الإقتصادى المتميز الذى تمتعت به منذ حكم الدولة الفاطمية ، وسقطت فى يد جماعة مسلمة ، سكنت فى أواسط آسيا الصغرى ، عرفت باسم (ترك بايمان)(١) بسبب صدق إسلامهم وإيمانهم وغلب عليهم إسم العثمانيين نسبة لجدهم الأمير فخر الدين عثمان ، وظهرت هذه الدولة فى حقبة بالغة التعقيد ، حيث كانت الأمة الإسلامية تعيش حالة من الضعف المهين ، فأصبحت قوة دينية دافعت عن الإسلام وأنقذت أمته من الإندثار (٢) .

وينتسب الأتراك العثمانيون إلى جدهم الأمير عثمان بن أرتغرل من قبيلة قاى الغزية (التركمانية) وهم بذلك يشتركون فى النسب الغزى مع الأتراك السلاجقة ووفدوا للأناضول مع السلاجقة الفاتحين (٣) وأسس أرتغرل وإبنه عثمان التشكيل السياسى للدولة العثمانية فى القرن الثالث عشر الميلادى بشمال غرب الأناضول (٤) .

---

(١) الترك : قال الحسن البصرى " أصل الترك من ولد يافث بن نوح عليه السلام ، فيافث هو أبو الترك ويأجوج ومأجوج بنو عم الترك ويرجع السبب فى تسمية الترك تركاً " أن الأسكندر ذو القرنين عندما بنى السد على يأجوج ومأجوج كان منهم طائفة غائبة وقت بناء السد ، فما علموا ببناءه ، فتركوا خارجين عنه ، فسميت تركاً لكونهم تركوا خارج السد ، وقيل أن طائفة الترك كانت عدة قبائل ، يسكنون بالبلاد الشمالية ، ولا يتخذون جداراً ولا يستوطنون وطناً ، بل يتنقلون فى الأرض بأماكن شئ ، لاسيما عند مصايفهم ومشاتيهم ، وقد تناسلوا وكثروا وتفرقوا فى البلاد ، فلما كانت سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٢م قويت عليهم شوكة التتار فحاربوهم فكسروهم وأسروهم ونهبوهم وسبوا أولادهم ونساءهم وباعوهم للتجار ، فجلبوا إلى الأمصار ، فاشترى منهم الصالح نجم الدين أيوب ، وإستكثرمن مشتراهم ، وأسكنهم فى قلعة الروضة بالقاهرة فكان هذا مبتدأ إحضارهم إلى الديار المصرية ، فمكن الله لهم الأسباب وفتح لهم الأبواب وعوضهم بعد المذلة والهوان وفراق الأقارب والإخوان وأدخلهم الإيمان وأصبحوا سلاطين فسبحان العاطى بلا إمتنان

* إبن إياس : بدائع الزهور ، جـ١صـ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٥صـ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(٣) الغزية التركمانية : نسبة إلى المناطق التركمانية التى ضمت فى ذلك الوقت إمارات مثل إمارة الشاه البيضاء وإمارة الشاه السوداء (قره آق ، قره قيون) .

(٤) الأناضول : مناطق فى تركيا الحالية ويطلق عليها فى بعض المراجع(أناضولى)،(وأناضولى حصار) وترجمتها التركية (توزجة حصار) . محمود ثابت الشاذلى : المسألة الشرقية " دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية ١٢٩٩، ١٩٢٣ " الناشر مكتبة وهبه بالقاهرة ص٤١ .

(أ) : فى البدء كانوا عشيرة :-

عندما جاء الربع الأول من القرن الثالث عشر الميلادى كان العالم يعيش فى رهبة وذُعر من الإمبراطورية المغولية التى قامت بزعامة "جنكيز خان" ، الذى إستولى على الصين وزحف نحو تركستان ، ولم يكن هناك قوة بشرية تستطيع الوقوف ضده آنذاك (١) فى هذا الوقت كان يقيم فى جنوب صحراء قارقوم (فى شمال خراسان) (٢) ما يقرب من سبعين ألف خيمة بدوية يسكنها حوالى نصف مليون تركى مسلم ، وبين هؤلاء عشيرة قاى ، هجروا جميعاً وطنهم خوفاً من المغول فعبروا إيران واقتربوا من الأناضول ، واستقر بعضهم بشمال العراق والآخر بغرب إيران ، أما عشيرة قاى فاستقرت فى شرق الأناضول ما يقرب من عشر سنوات وعددها حوالى أربعة آلاف إنسان ولهم حوالى أربعمائة خيمة (٣) ، وترأس هذه القبيلة (كوندوز آلب) ثم خلفه بعد وفاته إبنه أرتغرل فى رئاستها ، وهو والد الأمير عثمان مؤسس الدولة العثمانية وهى التى عُرفت باسمه (٤) وفى الفترة من عام ١٢١٩م إلى ١٢٣٥م دارت معركة فى منطقة أرزنجان (٥) سميت (ياسى جمن) YASI - GIMN بين سلطان قونية السلجوقى وجلال الدين خوارزم شاه زعيم تركستان ، وكاد سلطان قونيه ينهزم (٦) فإذا بهذه العشيرة تتدخل فى المعركة لصالح الجانب الضعيف ، فتقيله من عثرته وتتسبب فى إنتصاره ، ولم تكن هذه القبيلة تدرى من أمر القتال شيئاً ، لكنها نجده الملهوف ونصرة الضعيف (٧) ولما علم سلطان قونية بعد هذا النصر أن هذه القبيلة تبحث عن وطن أقطعها ثغراً على الحدود هو مدينة (قره جه طاغ) Korah - Gah - Tagh فى الجمهورية التركية الآن ، وهو المكان الذى تلتقى فيه ولايات (إسكيشهر – بلاجيك – كوتاهية) Iskishahor (٨)

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥صـ٣٤٩ ، ٣٥٠

(٢) شمال خراسان : مناطق تابعة لجمهورية إيران الإسلامية الحالية .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٥صـ٣٥٠ ، ٣٥١

(٤) هو عثمان بن أرتغرل بن سليمان شاه التركمانى قاد القبائل التركية النازحة إلى آسيا الصغرى وهو مؤسس الدولة العثمانية . • إبن إياس : بدائع الزهور ، جـ٣صـ٣٩ ، ٤٠

(٥) أزرنجان : تقع فى شمال تركيا اليوم .

(٦) سلطان قونية : هو علاء الدين السلجوقى .

(٧) محمد فريد : الدولة العليه العثمانية ، مطبعة التقدم ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م القاهرة ، صـ٣٩ ، ٤٠

(٨) كانت هذه البقعة تشمل المنحدرات الشرقية من جبال طومانيج بتركيا الحالية Toumanidji وأرمنى Ermeni يقضى فيها أفراد القبيلة فصل الصيف وفى سهول سوكود Socyud فصل الشتاء . فريد : الدولة

عام ١٢٥٣م وتزامن مع موته وفاة كوندوز ألب فخلفه إبنه أرتغرل فى زعامة القبيلة وإستمر فى حكمها إلى وفاته فأصدر سلطان قونية علاء الدين السلجوقى مرسوماً بتعيين الأمير القبلى عثمان محل أبيه ، فاستطاع بجهاده أن يوسع رقعة قبيلته وأوجد لها منفذاً على بحر مرمرة ، وخلفة بعد وفاته إبنه أورخان الذى ظفر بلقب (أوج بكى) أى محافظ الحدود ، ولم يكن فى الواقع رئيس قبيلة قاى **Kayi** الصغيرة (١) وإنما من الغزاه وينتمى لعشيرة.والحقيقة أن هؤلاء البدو إستطاعوا أن يهددوا حدود بيزنطة ، فقد قام أورخان بمن معه من التركمان وإتجه لحدودها وأقام إمارته هناك ثم ضم لإمارتة مدينة كبيرة هى (إسكى شهر أواسكيشهروتعنى باللغة التركية المدينة القديمة (٢) .

هذا ويوجد نص فى مسجد بمدينة بروسا التركية مكتوب فى عهد أورخان بن عثمان يذكر فيه أنه (إبن السلطان – سلطان الغزاه – غازى الغزاة – بطل العالم) وكان هذا السلطان يشترط على من يدخل فى خدمتة أن يكون أولاً

---

(١) Camb : Hist ' of Islam Votl P. 2d 8 ;

(٢) إسكيشهر : إسكى شهر : يرد إسم هذه المدينة فى بعض المصادر والمراجع التاريخية مكتوباً فى كلمة واحدة هكذا (إسكيشهر) وإسكى تعنى باللغة التركية (قديم) وتدخل هذه اللفظة فى أسماء الأماكن فيقال إسكى شهر بمعنى المدينة القديمة وكذلك إسكى حصار تعنى الحصن القديم . ، وهذه المدينة تقع فى جزء من إقليم الأناضول الأوسط ، على نهر بور صوق ، وهو فرع من نهر سقاريا ، وتمتعت هذه المدينة بشهرة واسعة وعريقة عبر التاريخ ، وفى الوقت الحاضر تشتهر بأنها ملتقى هام لخطين حديدين من إستانبول إلى أنقرةوإلى قونية ، كما تشتهر بينابيعها الجارة وكذلك الصلصال الذى يوجد بجوارها . ، عبد العزيز محمد الشناوى " الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، طبعة أولى ، ١٩٨٤م مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ج ١،ص٣٥ ، ٣٦ حاشية ١ .

غازياً وأطلق المؤرخون على أورخان وكذلك والده عثمان لقب غازى (١) بل لقد دعا الغازى عثمان جميع المسلمين لاسيما الأتراك لينضموا تحت راية الجهاد فى سبيل الله ، فاستجاب لة الكثير من المؤمنين الصابرين تحدوهم جميعاً رغبة شديدة فى الانتصار لدين الله تعالى (٢)

[ب] أصل بنى عثمان :-

إختلف أكثر المؤرخين فى أصل سلالة بنى عثمان فقالوا :

• هم من سلالة و نسل العيص بن إسحاق علية السلام

• أو أنهم من طائفة بنى قطورة أتت من بلاد الحجاز و إستقرت فى بلاد القرمان ، و أشتت هذة العشيرة أنها من أشرف العشائر المسلمة و ذلك عن طريق تصرفاتها السليمة (٣)

•قال آخرون إن جد آل عثمان هو سليمان شاه الذى أتى بجماعته فى عام ٦٢١هـ/١٢١٧م و نزل بصحارى بلاد أرمنية ، و بعد أن مكث هناك ردحاً من الزمن أراد أن يعود لبلادة فغرق فى نهر الفرات بجوار مدينة حلب و مات شهيداً هناك ، بعد أن ترك أربعة أولاد أشهرهم أرتغرل الباسل الذى تولى قيادة الجيش و إستقر فى بلاد الروم و منحه علاء الدين بلاد قونية Konia .

كما يذكر البعض أن نسب العثمانيين يتصل بالتتر الذين يقطنون بجوار جبال التاى عند حدود الصين الشمالية ، و يقولون يغلب على الظن إنهم هم الاسكثيون iskithyoun المشهورون قديماً بالشجاعة و شدة البأس (٤)

• و ذكر البعض : أن جماعة منهم ينتسبون إلى جدهم (ترك) نزحوا غرباً و أقاموا فيما يعرف الآن ببلاد تركستان التى تحدها شمالاً سيبيريا و شرقاً الصين و غرباً بحر أورال Oral هذه المنطقة تشتهر بجودة الاقليم و خصوبة المرعَى و جمال السكان و قوة بنيانهم و ما إن إستتب لهم المقام فى هذة المنطقة حتَى أخذوا يوسعون سلطانهم فى المناطق

---

(١)الغازى: كلمة أصلها عربى و مأخوذة من اللغة العربية ، تعنى المجاهد فى سبيل الله .

(٢) محمود ثابت الشاذلى : المسألة الشرقية ، صـ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) حاولت إفراد راى كل من المورخين على حدة و لم يذكر فى المصدر أسمائهم .

(٤) الشاذلى : المسألة الشرقية صـ٣٩ ؛ جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامى هذا العصر (مع فذلكة فى تاريخ مصر القديم) طبعة أولى ١٩٢٥م القاهرة ، مطبعة الهلال،جـ١صـ٤.

المجاورة بما تيسر لهم من سلاح وعتاد (١) ويذكر البعض أنهم أقاموا بآسيا الصغرى منذ معركة مانزكرد التى إنتصروا فيها على الروم ١٠٧١م، بعد سماح السلاجقة لهم بالجلوس بثغر فى جنوب بحر مرمرة وسمى هذا الثغر قرة حصار Kourt Hesar وكان ذلك فى عام ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م (٢) .

[ج] أسماء الدولة العثمانية عبر تاريخها :-

إشتهرت الدولة العثمانية فى التاريخ بعدة أسماء ، ففى العصور الأولى أطلق عليها إسم (دولت عليّه) أى الدولة العلية ، كما أطلق عليها (سلطنت سنيه) أى السلطنة السنية ، وأطلق عليها بعد إتساعها (إمبراطورلقة عثمانلى) أى الإمبراطورية العثمانية ، وعرفت أيضاً باسم (دولت عثمانلى) أى الدولة العثمانية ، ويلاحظ إرتياح العثمانيين للأسمين الآخيرين لإحتوائهما على لقب عثمانلى ، حيث أنهم يعتزون بإنتسابهم لعثمان مؤسس دولتهم و يرون فيه المثل الأعلى للحاكم المسلم الغازى فى سبيل الله المتقشف فى حياته (٣) .

هذا و قد نظم الشاعر العثمانى محمد أمين بك قصيدة قال فيها :

(بن برتوركم جنسم أولودر) و معناها أنا تركى دينى من أعظم الأديان و جنسى من أعظم الأجناس ، و هذا نامق كمال بك الشاعر يقول : نحن ذلك النسل الكريم من العشيرة العثمانية : أصولنا إمتزجت بدم الشهادة من الرأس للقدم ، نحن أصحاب همة عالية ، وأصحاب جد وإجتهاد ، إستطعنا أن نكون دولة عالمية من عشيرة واحدة

و مما سبق تبين أنهم إستخدموا كلمتى تركى و أتراك للدلالة على الاستعلاء و العظمة و القوة و هى سمات بارزة فى حياتهم كان لها أثراً فى جعلها أطول الدول عمراً فى التاريخ الانسانى عامه (٤) .

---

(١) كان سلاحهم أول الأمر هو القوس والنشاب ثم تدرج إلى الرمح الخفيف والسيف القصير ، ثم المحضرة الحديدية والمجن الصغير المستدير وأخيراً الدرع والنوذة الشائكة وهلم جرا *الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ١ صـ٩ ، هامش ٢ .

(٢) ماجد : التاريخ السياسى لدولة المماليك صـ٣١١ ، ٣١٢ .

(٣) محمد جميل بيهم : فلسفه التاريخ العثمانى (أسباب إنحطاط الامبراطورية العثمانية وزالها) ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م بيروت صـ٢٤ .

(٤) الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ١ صـ ١١، ١٢ .

[د] إعتناق العثمانيين الإسلام:

تحدد الوضع الدينى و العسكرى للأتراك العثمانيين فى عهد الامير عثمان أى فى أوا سط القرن الرابع الهجرى ، إذ بعد إعتناق هذا الامير للإسلام تبعه كل العثمانيين ، حيث كانت عقيدتهم غير واضحه قبل ذلك ، و يحتمل أنهم كانوا فى حاله تحول من الوثنيه أو من عقائد أخرى إلى اللإسلام . (١) و لكن كيف إعتنق العثمانيون الإسلام ؟

هناك روايه مستقاه من الحوليات العثمانية القديمة تشير إلى الملابسات التى أدت لاعتناق الأمير عثمان للإسلام ، تقول هذه الرواية : (٢)

(إن الأمير عثمان كان يتردد على منزل أحد العلماء المسلمين المتعمقين فى الدين الإسلامى و إسمه الشيخ " أده بالى " (٣) و هو مقيم بجوار مدينه إسكى شهر و من خلال زيارته للشيخ كان يلمح إبنته المسماه " مال خاتون " و هى فارعة الجمال فطلب يدها من أبيها ، رفض أبيها لحرمة زواج المسلمة من غير المسلم ، لكن عثمان داوم على زيارته للشيخ طلباً للعلم و رحب الشيخ به ، و فى إحدى المرات غفا الشيخ و معه عثمان غفوة ، فرأى عثمان فيما يرى النائم أن القمر ينبثق هلالاً من صدر هذا الشيخ ثم إكتمل هذا الهلال حتى صار بدراً ، عندئذٍ توارى فى ظهره ، ثم خرجت من ظهره شجرة ضخمة با سقة وارقة الظلال ، إمتدت أغصانها يميناً و شمالاً حتى غطت الفيافى و القفار عبر أنهار دجلة و الفرات و الدانوب (٤) ثم هبت رياح قويه تحمل نصل سيف باتر فى مقبضه خاتم مرصع بالياقوت و الزمرد ، و قد أمسك عثمان بهما معاً ، و لما إستيقظ من نومه قص على الفقيه

---

(١)محمد حرب : العثمانيون فى التاريخ و الحضارة (سلسلة دراسات عثمانية) الناشر المركز المصرى للدراسات العثمانية و بحوث العالم التركى ، ١٤١٤هـ/ القاهره صـ٣ .

(٢) محمدحرب : المصدر السابق ، صـ٣،٤

(٣) أد ه بالى : لفظه تركيه تعنى فى العربيه أدب عالى . محمد حرب : المرجع السابق صـ ٣،

(٤) الفيافى : البرارى الواسعة و الجمع فيفاه . معجم لسان العرب ، جـ٥،صـ٣٥٠٢،٣٥٠٣ القفار : المكان الخالى من الناس و الجمع قفر . لسان العرب ،جـ٥،صـ٣٧٠٠ .

تلك الرؤيا ، و كان الشيخ عالماً بتأويل الأحلام ، فبشره بأن أسرة عثمان ستحكم العالم ، ووافق على أن يزوجه إبنته بعد أن أعلن إسلامه ، و قام تلميذ الشيخ بعقد القران) . (١)

وهناك رواية أخرى مستقاه أيضاً من الحوليات العثمانية تقول : يرجع سبب إسلام العثمانيين إلى أن أرتغرل والد الأمير عثمان ، قضى ليلة في دار أحد الزهاد المسلمين ، و قبل أن يأوى إلى فراشه جاء الزاهد بكتاب ووضعه على الرف ، فسأله أرتغرل ما هذا الكتاب فأجابه بأنه القرآن الكريم (كلام الله) فحمل أرتغرل الكتاب و أخذ يقرأه واقفاً حتى الصباح ثم نام ، فرأى فيما يرى النائم كأن ملاكاً يبشره بأنه و ذريته سيعلو قدرهم جيلاً بعد جيل لقاء إحترامه للقرآن الكريم . (٢)

على كل حال لنا أن نصدق أو نكذب هاتين الروايتين ، و لكن نجزم بأن قربهم وصلتهم بالاتراك السلاجقة هو الذى ساعد على إعتناقهم للإسلام . و الحقيقة أن الدولة العثمانية تختلف فى طبيعة تكوينها عن غيرها من الدول لان غايتها الدفاع عن الاسلام و رفع رايته على مشارف قاره آسيا ليس هذا فقط بل وكل العالم (٣)

وما انفك خلفاء عثمان كلما اتسع سلطانهم أن يزدادوا ثقة بأنفسهم فى سبيل تحقيق هذا الحلم ، وعلى الرغم من فشل بعضهم فى فتح القسطنطينية ، فقد جاء محمد الثانى(الفاتح) سابع السلاطين العثمانيين ، وبينه وبين صاحب الحلم مائة وستين عاماً ، فتمكن من دخولها بعد أن يئس المسلمون من فتحها ، بل وحارب أعظم الملوك وأشجع الجيوش ووصل " فيينا Vinna " وفرض الجزية عليها،دفعها له حاكمها الأرشيدوق فرديناند Fridnand ، واكتسح المتوسط حتى أسبانيا (٤) .

---

(١) الشناوى : الدوله العثمانية ، جـ١ ، صـ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) الشناوى : المرجع السابق ، جـ١، صـ٣٧، ٣٨.

(٣) الشاذلى : المسألة الشرقية ، صـ٣٨ ، ٣٩ .

(٤) زيدان : تاريخ مصر الحديث ، جـ٥ ، صـ٦.

[٢] العثمانيون يطورون أسلوب حياتهم :-

أظهر الأمير عثمان مقدرة فائقة فى وضع النظم الإدارية ، فحولهم من نظام القبيلة المتجولة إلى الإدارة المستقرة ، فأصبحت دولة عظمى بعد ذلك .

وكانت الظروف مهيأة لظهور دولة تملأ الفراغ السياسى الموجود بسبب تداعى السلاجقة والبيزنطيين ؛ لكن الثابت أن وجود العثمانيين على الحدود قد فرض عليهم سياسة حربية معينة ، ومن ثم تطورت الدولة ونمت بسرعة حتى أن السلطان علاء الدين كيقباد الثالث سلطان الروم السلاجقة أطلق على الأمير عثمان لقب { حضرة عثمان الغازى _ حارس الحدود – العالى الجاه – عثمان شاه } (١)

[أ] إستقلال الأمير عثمان وإتساع رقعة بلادة :-

تهيأت الظروف للأمير عثمان وكأنه على موعد مع القدر ، فقد أغار المغول على السلاجقة عام ٦٩٩هـ/ ١٣٠٠م وكان ذلك متوقعاً ومنتظره الأمير عثمان ، وبعد وفاة السلطان علاء الدين ١٣٠٧م زالت دولة الأتراك السلاجقة ، وهنا أعلن الأمير عثمان إستقلالة مقتدياً بغيره من الأمراء الذين أسسوا حكومات على أنقاض دولة السلاجقة (٢)

ولقد أبدى الأمير عثمان إهتماماً كبيراً بتدعيم جيشة وتنظيم حكومتة ، ووجه نشاطه الحربى إلى مقاطعة " بيثينيا Bithyia " المتاخمة لحدوده ، حيث أغرتة أطرافها الخالية من وسائل الدفاع الإمبراطورى البيزنطى ، وساعده فى رسم خطط القتال القائد المحنك ميخائيل ذى اللحية المفرجنة Michael fork beard وشن الغارات الخاطفة على أراضى الدولة البيزنطية (٣) .

وإستولى العثمانيون على قلعة (عك حصار) القريبة من مضيق البسفور (٤) وهى تمثل الركن الشمالى الغربى من شبة جزيرة الأناضول وفى نفس العام سيطر العثمانيون على الطريق المائى

---

(١) الشاذلى : المرجع السابق ، صـ٣٩.

(٢) الشاذلى : المرجع السابق ، صـ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) لم يثبت من خلال القراءةوالبحث أن ميخائيل هذا كان مسلماً وإن جاء فى بعض المصادر أنه كان المستشار الحربى للسلطان .

* زيدان : تاريخ مصر الحديث ، جـ٢،صـ ٨ ، ١٥ .

(٤) قلعة عك حصار : كانت آخر حاجز أمام زحف العثمانيين فى شبه الجزيرة الضيقة التى تمتد بين منطقة نيقوميديا New comedia Necew والبحر الأسود * الشناوى : الدولة العثمانية ، صـ ٣٨ ، ٣٩ .

الموصل بين بروسة و القسطنطينية بعد الإستيلاء على جزيرة كالوليمنى Kalolimni الواقعة فى بحر مرمرة وسقطت فى أيديهم أيضاً قلعة " تريكوكا Tricocca " المجاورة لعك حصار يسميها العثمانيون أيضاً " هودج حصار " وكانت تشرف على المواصلات بين { نقيا ونيقوميديا Neccw - New comedia } (١)

(١) ظهرت دراسة جديدة باللغة الفرنسية عام ١٩٣٥م عن نشأة وإتساع الدولة العثمانية قام بها محمد فؤاد كوبريلى كبير مؤرخى تركيا ، حمل فيها حملة شديدة على آراء المؤرخ الإنجليزى " جيبون Gibbons " الذى بسطها فى كتابه تأسيس الإمبراطورية العثمانية " The foundation of the Ottoman Empire " ونشر عام ١٩١٦م وخلاصة دراسة كوبرلى " أن الأتراك ينتمون إلى قبيلة وفدت على الأناضول مع السلاجقة الفاتحين فى أواخر ق ١٣م وكان أرتغرل وعثمان رئيسين لتلك العشيرة وهى تنتمى لقبيلة قاى التى إستقرت بإسكى شهر على الحدود البيزنطية . وفى نفس الوقت رابط على الحدود الأناضولية العربية أمراء حدود أغاروا على بيزنطة كلما واتتهم الفرص ، وأسس عثمان فى تلك المنطقة كياناً مستقلاً تمثل فى الدولة العثمانية ، وتعرض هذا المؤرخ التركى لمسائل هامة منها إعتناقهم للإسلام وحاول إرجاعة لعصور سابقة على قدومهم آسيا الصغرى ، ولكن يلاحظ فى كتابته روح الصلف والرغبة فى إبعاد كل ما يراه مساساً بالعثمانيين فى تاريخهم المبكر . ومن ثم كان تحاملة الشديد على جيبونز بل وتجريحة . وطبع الأصل التركى لهذا الكتاب عام ١٩٦٢م .

هذا وتولى أحمد السعيد سليمان أستاذ الدراسات التركية بآداب القاهرة تعريب الكتاب التركى والتعريف بنشأة الدولة العثمانية التى وردت فى دراسته لسببين الأول: روح التحامل الشديدة الثانى: إعترافة بأن النتائج التى وصل إليها ليست حاسمة ، فقد سجل عليه كلمة فى هذه الفقرة مثلاً (ومهما يكن من أمر فلابد أن نعترف....... بأن النتائج التى حصلنا عليها ليست كافيه لاكماً ولا كيفاً) ، صـ٧ من النص العربى . ومما يذكر فى هذا الصدد أن" محمد فؤاد كوبر بلى " كان من أعوان الزعيم مصطفى كمال أتاتورك ، فقد إستعان به الأخير فى دعم فكرة القومية التركية الحديثة عن طريق كتابة التاريخ على النحو الذى أراده أتاتورك من تخليه عن المفاهيم الإسلامية ، كتأييد للإجراءات العلمانية ، بل عينه أتاتورك وزيراً للخارجية فى الثلاثينات من القرن العشرين ، وبسبب مجموعتة الضخمة فى التاريخ التركى ، فقد أصبح كوبر بلى يلقب بأستاذ الجيل فى تركيا الحديثة .

• عبد العزيز محمد الشناوى : جـ ١ ، صـ ٥١٩ ، ٥٢٠ ، حاشية واحد .

ولما سمع الأمير عثمان وهو على فراش الموت سنة ١٣٢٦م بفتح مدينة بروسة أوصى بنقل جثمانه إليها ، وأصبحت عاصمة جديدة لهم فى سلسلة العواصم التى إنتقلوا إليها عبر تاريخهم (١) .

﴿وصفوة القول﴾ : هناك عوامل هامة ساعدت العثمانيين فى تحركاتهم الحربية ويمكن إجمال تلك العوامل فى الآتى :

- الروح الدينية الجياشة التى تمتع بها العثمانيون .
- الطبيعة العسكرية الصارمة التى إلتزم بها الجيش ، قادة وجنود .
- الموقع الجغرافى الهام الذى ساعدهم على الفتح والإنطلاق .
- إنضمام التركمان إليهم فى فتوحاتهم ، فقد أصبحوا القلب النابض فى المقاطعات الحدودية لأن هؤلاء أكثر فاعلية من الأتراك ذوى الثقافة الفارسية والعربية القابعين بالمدن الكبيرة بالأناضول .

ومن ثم نتج عن هذه العوامل إنسياح العثمانيين فى كل من آسيا وأوربا وإفريقيا غزاة فاتحين ناشرين للدين الإسلامى .

والواقع أن المشايخ لعبوا دوراً هاماً فى تربية الصغار وأشبعوهم قيماً تتمثل فى تعظيم الإسلام ونشره ، و المسجد مؤسسة إجتماعية هامة وكان لديهم مكتب (مدرسة إبتدائية) ومؤسسة للتحصيل المتوسط ، والتركيز على العلم والدين فأدى فى النهاية لجعلها دولة مترامية الأطراف(٢) .

[ب] مظهر العثمانيين الدينى :-

يقصد بهذه العبارة ، الطابع الدينى الإسلامى الذى إتسمت به تشريعات الدولة وتصرف سلاطينها ، حيث كان للهيئة الدينية فى الدولة وضع متميز ، ومركز مرموق ويطلق على رئيس الهيئة المفتى أو (مفتى إستانبول) وأطلق عليه لاحقاً مفتى الإسلام ، فكانت الهيئات ذات الطابع الدينى تخضع لنفوذه ، وحرص السلاطين أنفسهم على تدعيم سلطته وتقوية نفوذه بل واستغلوا سلطته كلما حزبهم أمر أو أقدموا على مشروع خطير (٣)

---

(١) زبيدة عطا : بلاد الترك فى العصور الوسطى (بيزنطة – سلاجقة الروم – العثمانيون) نشر دار الفكر العربى بالقاهرة ، بدون ، ص ١٥٣ .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ١٩٨٨م إستانبول بتركيا. منشورات فيصل للتمويل جـ١ ،صـ٨٨ ،

(٣) الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ ١،صـ٥٣ .

والواقع أن المفتى هو الذى يصدر فتوى تجيز الحرب التى تخوضها الدولة دفاعاً أو هجوماً ، وكذلك عقد الصلح ونحوه ، وطابع الدولة الدينى غالب عليها حيث إنها تهتم بإنشاء المساجد العديدة التى يتجلى فيها الفن المعمارى الإسلامي ذا الطابع العثمانى ، تجدها فى كل مكان فضلاً عن تطبيق الشريعة الإسلامية كما ينبغى . (١)

يعنى ذلك أنها كانت تحافظ على كل ما هو إسلامى .

[٣] عالمية الدولة العثمانية :-

لم تكتف الدولة بوضعها داخل النطاق الإقليمى المحدود الذى تكونت فيه ، بل إنتهجت سياسة التوسع المرحلى ، فامتدت فتوحاتها فى كل مكان ، حتى شملت مناطق الأناضول والبلقان فى وقت واحد وزحفت لأعماق أور با ، وإتجهت لجوف آسيا ، فحاربت الدولة الصوفية الشيعية فى فارس وتوغلت فى أراضيها وإستولت على جميع الأراضى الجنوبية حتى الرقة والموصل ، ثم إستولت على جميع أراضى ذلغادر وعاصمتها أبسلتن _ مرعش ، وكانت هذه الأراضى مشمولة بحماية المماليك (٢) بل وفتحت الشام ومصر وضمت الحجاز واليمن ، وإنتزعت مسقط من يد البرتغاليين ، وإتصلت بالإمارات العربية مثل الإحساء وعُمان والبحرين والكويت ، وبسطت سلطانها على شمال إفريقيا ، وبالنسبة لأور با وصلت إلى مشارف فيينا عاصمة النمسا (٣)

وتمخض عن تلك الفتوحات فى ثلاث قارات أن أصبحت الدولة تحكم شعوباً إختلفت جنسياتها ودياناتها ولغاتهاوثقافاتها وعاداتها وتقاليدها ، وكذلك تميزت بتنوع بشرى متعدد الجوانب (عنصرية - لغوية - دينية) .

---

(١) الشناوى : المراجع السابق جـ١ صـ٥٤ .

(٢) إستولى العثمانيين على مقاطعة كبيرة من أرمنية الغربية وبلاد وراء النهرين وتبليس وديار بكر وأورفة وماردين وحصن كيفا . ، المقريزى : السلوك ، جـ٢ قسم ١ ، ص٢٧٦ .

(٣) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ، مستخلص من مجلة الجمعية التاريخية - المجلد الرابع - العدد الأول ، سنة ١٩٥١م صـ١٩٨ ، ١٩٩ .

أ.من الناحية العنصرية :- ضمت الدولة العثمانية بجانب الأتراك السلاجقة والعثمانيين رعايا من العرب والأكراد والتركمان والشراكسة والبربر والأرمن والسريان والألبانيين والدروز واليونانيين والبشناق (١) والصرب والبلغار والمجر والكروات والرومانيين والقبارصة والكرتيين .

ب.من الناحية اللغوية :-كان غالبية رعايا الدولة يتكلمون لغات حية وهى الكثيرة مثل العربية والتركية والفارسية والكردية واليونانية ولغات ميته وهى القليلة مثل السريانية والعبرية واللاتينية ، فضلاً عن اللهجات المختلفة (٢)

ج.من الناحية الدينية :-شكل المسلمون الغالبية العظمى فضلاً عن المسيحية واليهودية والديانات الأخرى . ويعلق المؤرخ " ألبرت حوراني " بقولة (الإمبراطورية العثمانية عالمية جامعة متماسكة فى إطار موحد وبولاء مفرد لأسرة حاكمة وفى مناطق عديدة).(٣)

[٣] أهم السلاطين العثمانيين فى سطور :-

[أ] السلطان أورخان بن عثمان ...

فى عهده إستولى العثمانيون على بلاد كثيرة من أراضى الروم ، ويرجع السبب فى ذلك إلى تطوير العثمانيين لنظامهم الحربى وهو الذى عرف بنظام الأنكشارية أو (يكتجاري) وهى محرفة من ينى تشارى Yeni Techeri وتعنى الجند الجديد (٤) ولعله كان فى الأصل تنظيماً سلجوقياً ، يعمل على تربية الأطفال والشبان من أسرى المسيحين تربية دينية وحربية ، بحيث لا يعرفون ولياً لأمرهم سوى الخان العثمانى ، فاشتغلوا بالحرب وحدها وكأنهم لم - -

---

(١) من المعلوم أن : البشناق " Les Beshiagues " : نسبة للبوسنة " La Bosnia " التى أصبحت جمهورية مستقلة فى الوقت الحاضر مثل جمهورية الجبل الأسود وجمهورية صربيا وغيرها .

(٢) الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج١ ، صـ٩٠ ، ٩١ .

(٣) الشناوى : المرجع السابق جـ١ ، ٩٢ .

(٤) يرى الدكتور /محمد مصطفى زيادة أن الكتب العربية المتداولة حالياً تقع فى خطأ لغوى واضح ، حين تطلق على هؤلاء الجنود المشاة انكشارية ويرى ضرورة إستخدم اللفظ التركى الأصلى وهو (الينى شرية Yeni Tcheri) ويستند فى تبرير رأية هذا إلى أن الفرنسيين إستخدموا فى لغتهم الكلمة التركية المذكورة ، وأصبح مدلولها الفرنسى Les Janissaires ؛ وفى الواقع أن الكلمة التركية الأصلية وهى الينى شرية والكلمة المعربة وهى الإنكشارية تربيتا شبه مع بعضها البعض ، بحيث لايستحق الأمر هذا كلة ،وهو تغيير شكلى قد يؤدى إلى بلبلة فى الأفكار حول هذا المدلول .

يخلقوا إلا للجهاد والإستشهاد فقط . (١) وفى عهدة إندمج الجزء الشرقى من آسيا الصغرى التابع لقبائل قرة قيون (Korat - Köyoun) ومعه عدد من الولايات الصغيرة فى السلطنة العثمانية .

ولقد إتخذ السلطان أورخان من مدينة بروسة قاعدته الأساسية للإنطلاق منها وتهديد العاصمة البيزنطية تهديداً خطيراً ، وقد أطلق علية صاحب بروسة (٢) .

وبالرغم من زواج أورخان من ابنة القيصر فقد ظهرت العداوه بينهما فعبر البسفور فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى وإستولى على مدينة غاليبولى Ghalibouli ١٣٥٤م وفتح قلعتى سمندرة Samandrah وايدوس Idwos (٣) .

---

(١) يذكر بعض المؤرخين أن الدولة العثمانية كانت تأخذ الأولاد الذين تتراوح أعمارهم بين الثانية عشر والعشرين . أنظر Lybyer , op . cit . p 53 .
ويبدو أنه من الصعب جداً بهذا الرأى لأن الأولاد فى هذه السن يصعب عليهم نسيان آبائهم وأمهاتهم ودينهم ، وإن كانت الدولة العثمانية تحرص على أن ينسى الأولاد ماضيهم . لذلك كانت تحولهم فوراً للإسلام وتدريبهم تدريباً عسكرياً . وهذا بالطبع أمر لا يتوفر إلا إذا إنتزعوا من أهلهم فى سن مبكرة ، ونخلص إلى أن موضوع السن الذى أخذ فيه الصغار موضع خلاف بين المؤرخين ولكل فريق أسانيدة .

(٢) بروسه : يطلق العثمانيين عليها أيضاً إسم بورسه ، و أصبح لها شأن كبير فى العالم الاسلامى منذ أن اتخذها أورخان مقرا له و ضرب فيها أول سله فضية لها قيمتها و هى "الآقجه" فى سنه ١٣٣٧م و بعد فتح القسطنطينية و إتخذها محمد الثانى عاصمة للدولة ، صدرت الأوامر لسكان بروسه بالنزوح للعاصمة الجديدة بعد أن أصبحت مركزاً لقياده الحملات العسكريه فى الشرق . على أن الاهمية الاقتصادية لمدينة بروسة تفوق أهميتها السياسيه فى التاريخ العثمانى ، فهى أقرب المراكز الدولية الاسلامية للعالم المسيحى ، و غدت فى سنه ١٤٠٠م مركزاً من أهم المراكز الدولية لصناعة و تجارة الحرير الطبيعى ، و مدينة بروسة عاصمة لولاية خد اوندكار التركية الحالية . الشناوى : الدولة العثمانية مفترى عليها ، جـ١ صـ ٤٢ حاشيه ٢ .

(٣) ماجد : التاريخ السياسى لدوله المماليك ، صـ٣١٧ ، ٣١٨ .

[ب] السلطان مراد الأول بن أورخان :

فتح مدينة أدرنة وإتخذها عاصمة لـه وفتـح قلعـة سيديبولى Saidibols وأنشـا سراى أدرنـة Sary - Admh (١) ، وفى سنة ١٣٨٩م جعل حاضرته فيلبو بولس Vilio police ، وهـاجم الحشـود الصليبية ضدَه وفتح مدينة صوفيا Sofia ومقدونيا Necc , Macdonia (٢) .

و كون لاذار Lazare ملك الصرب حلفاً من الصرب و البوسنة و البلغار و المجريين و الالبان للقيام بحمله ضد العثمانيين ، فجـهز مـراد جيشـاً قـاده بنفسـه وإنتصـر عليهم فـى معركـة كوسـوفو Kossovo سنه ٧٥٨هـ / ١٣٥٩م بعدها دخل مراد تحت سيادة العثمـانيين البلقـان و معهـا الأنـاضول Anadoul (٣) وحصل السلطان مراد من الخليفة العباسى بالقاهرة علـى لقب سلطان فـأضفى بذلـك على حكمه الشرعية ،و نال رسمياً ألقاب : (غياث الدين والدنيا ـ ليث الاسلام ـ شهاب الدين غازى ـ ملك المشايخ سلطان الغزاه والمجاهدين) . (٤) وصفه المؤرخ البيزنطى فرانتزيس Fhrantzes بقوله (القائد الذى لا يقهر) ، خاض بنفسه سبعة وثلاثين حرباً إنتصر فيها جميعاً ، ومـات شـهيداً فـى معر كة { قصوه } (٥) .

MULOCH KABILITCH ١٨ اكتوبر ١٣٨٩م ودفن فى تربة شكركه Shakarkh بعد نقله من الميدان إلى هناك فى بروسه . (٦)

---

(١) أدرنة : ولاية من ولايات الدولة العثمانية تقع فى روم ايلي من تركية أور با ، يحدها شمالاً أمنية طاغ ، وخوجة بلقان ، وشرقاً وجنوباً البحر الأسود ، وجنوباً أيضاً الأستانة وبحر مرمرة أوالدرد نيل ، وتبلغ مساحتها ٦٢٧٨٨كم² ، وتعتبر من أهم ولايات الدولة العثمانية حيث تنقسم إلى ستة وثلاثين قضاءً ويمر بها عدة أنهار ، وجبالها كثيرة الغابات وبها جميع الأشجار ، وفيها حمامات معدنية ،ويخرج منها الحديد و المرمر ، وبها مصانع حربية ، وهى رائجة الصناعة والتجارة والمعارف .* ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ٩ صـ١٧١ ، ١٧٢ .

(٢) موير : تاريخ دولة المماليك ، صـ١٢٠ ، سعيد الاحدبه : تفصيل الياقوت و المرجان فى إجمال تاريخ عثمان ١٣٠٤هـ الناشر مطبعة بيروت الأدبية القاهرة) ص ١٥ ـ١٩ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٨ ،صـ١٥ .

(٤) أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، جـ١ ،صـ٨٦ .

(٥) قصوة أو قوصوة : من أملاك العثمانيين بأور با يحدها شمالاً مملكـة الصرب و البوسنة والهرسك ، ويحدها جنوباً ولايتا هنتشاستير وإشقود ، وشرقاً بلغاريا وسلانيك ، وغرباً الجبل الأسود وأهلها من الألبان ، أرضها جبلية خصبة ، كثيرة الحبوب والخضرة والفواكة . * ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ١٠ ،صـ٣٠١ ، ٣٠٢ .

(٦) فريد : الدولة العلية ،صـ ٤٨ .

السلطان بايزيد الاول بن مراد:- أطلق عليه يلدرم Yildirem يعنى البرق أو الصاعقه وسماه إبنه أبا يزيد ، فتح البلاد الواقعة على ساحل نهر الطونه Tounh من جهه الروملى وإستولى على الصرب والافلاق والاناضول ، وقونية Kohyat وسيواس Sywas وملاطية Malakia وخضع له التركمان على الحدود الشمالية من الشام (١) .

جمع له سيجموند Siygmound ملك المجر جيشاً من أور با الغربية والبلقان والمورة ، هزميم وطاردهم للنمسا (٢) .

كما حارب أور با مجتمعة بعد ما تجمع الألمان والإنجليز والفرنسيين للقيام بحرب صليبية ضده ، فهزمهم شر هزيمة فى معركة نيقوبوليس Nicopolis (٣) ، ووسع أملاكه فامتدت من البسفور وقيسارية Kysaria إلى سيواس وتوكات ولكن نمو العثمانيين توقف بسبب فتوح المغول التى وصلت لآسيا الصغرى بزعامة تيمورلنك (٤) . الذى حارب بايزيد فى معركة (جوبوق أووه Gobouk - Awowa) قرب تركيا الآن يوم الجمعة ٨٠٤هـ / ١٤٠٢م وهزمة شر هزيمة وأسره وبقى فى أسره سبعةأشهر وإثنى عشر يوماً فاحس بالذل ومات

---

(١) الإمارات التى غزاها بايزيد الأول هى " آدن ، وصاروخان ،ومنتشة Mente che وأضاليا Adalia وآخر مدينة هى تكا Tekke ، وهاجم قرمان Karamanic وقتل أميرها علاء الدين ودخل عاصمتها قونية وأخذ إمارة برهان الدين وقاسطامونى Kastamonei وأخذ ميناء سنيوب على البحر الأسود "

• الشناوى : أور با فى مطلع العصور الحديثة جـ١، صـ٦١٠

(٢) يطلق علية المؤرخون سيجسموند بزيارة السين وتملك المجر سنة ١٣٨٧م ثم أصبح إمبراطوراً على الدولة الرومانية المقدسة فى سنة١٤١١م وملكا على بوهيميا ١٤١٩م ، وخلف سيجسموند على عرش المجر وبوهيميا الملك ألبرت النمساوى سنة ١٤٣٧م إلى ١٤٣٩م .

•أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية"جـ١ ، صـ٩٤ .

(٣) نيقوبوليس : تعنى بالتركية مدينة النصير كما ورد بالمراجع .

(٤) أعلن تيمورلنك إسلامه بعد أن هداه الله وقام بمساعدة الصفويين بإعطائهم التكايا ، وساهم فى إصلاح الحرمين الشريفين ، ومن أقواله " بايزيد قائد ماهر بجيوش رديئة ، جيوش مصر والشام جيدة بقيادة سيئة .

ماجد : التاريخ السياسى للمماليك ، صـ ٣٣٢ .

منتحراً ٨٠٥هـ / ١٤٠٣م بعد حكم دام أربعة عشر عاماً وثمانية وثلاثين يوماً (١) .

والواقع أن السلطان "برقوق المملوكى" لو إنضم لجانب هذا الأمير الغازى وساعده بجنوده المصرية والشامية لاستطاعا معاً القضاء على تيمورلنك ، ولكن برقوق خشى من بايزيد على نفسه وبقى محايداً ، فتمكن تيمورلنك من ضرب كلاهما منفرداً (٢)

[ء] السلطان مراد الثاني :-

كانت حياته كلها جهاد تسلطن فى الفترة ١٤٢١ ، ١٤٥١م وعمره ثمانية عشر عاماً ، ضبط مملكتى الصرب والمجر وإستولى على ولاية جانيك Ganic ومتشايا Mitcha وسلانيك Salnic وتكون ضده حلف مسيحى من البلقان وبقيات إيطاليا والإمبراطورية البيزنطية وإنتصر عليهم جميعاً فى معركة وارنة Warnh ثم معركة قصوه Kaswa الثانية سنة ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م ، وتنازل عن العرش لإبنه بسبب مرضة وأبى الإنكشارية الرضى بسلطان صغير ، فرجع للحكم ثانياً مع تشكيل الحملة الصليبية الخامسة ضد العثمانيين بقيادة لاديسلاس Ladislas وقائده حنا هنيادى Hana Henydy فوقعت معركة Farna فارنا سنة ١٤٤٤ م وهزم مراد الثانى التحالف (٣)

---

(١) سعيد الأحدبة : تفصيل الياقوت والمرجان ، صـ ١٩ .

(٢) أرزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، جـ١ ، صـ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ .

ذكر سعيد الأحدبة أن حكم السلطان ، يزيد دام أربعة عشر عاماً فى كتابة تفصيل الياقوت والمرجان صـ١٩ بينما ذكر أرزتونا أن حكمة كان ثلاثة عشر عاماً ولا يوجد حسب علمى مصدر مستقل

(٣) ابن إياس " بدائع الزهور " جـ٣ صـ٤٨ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ؛ محمد فريد : الدولة العلية ، صـ٥١ ،

فى وقت قصير وقتل لاديسلاس وهرب قائده هنيادى وأسر عدد لايحصى من البيزنطيين .

هذا وقد تأكد للبيزنطيين عدم إمكانية خلع الحكم التركى من البلقان (١)

[١] موقف السلطان جقمق من معركة فارنا :-

لم يقتصر الإحتفال بهذا النصر الكبير على الأتراك وحدهم بل إمتد إلى أنحاء العالم الإسلامى لاسيما مصر المملوكية ، فما إن وصل خبر هذا الإنتصار إلى مصر سنة ٨٤٩هـ يوم الجمعة الأول من إبريل ١٤٤٥م حتى أمر السلطان جقمق بتلاوة إسم السلطان مراد على المنابر المصرية والشامية ، بعد إسم الخليفة العباسى وكذلك الدعاء لأرواح الشهداء العثمانيين فى كل المساجد (٢)

[٢] معركة كوسوفا Cosova :-

إتحد كل من المجر و ألمانيا وبولونيا ونابولى وصقلية والبابوية ومولدافيا فى حلف واستعدوا بمائة ألف مقاتل ، ووقعت معركة فى صحراء كوسوفا إنتهت بنصر العثمانيين ، وهى المحاولة السادسة لإخراج الأتراك من البلقان .

بعدها تحولت أور با من موقف الهجوم لموقف الدفاع وسلمت بقوة العثمانيين (٣) ،

ويلاحظ أن السلطان مراد الثانى كان لايفرق بين مسلم ومسيحى ولا يحب الحرب ولم يدخلها إلا مضطراً ومال دوماً للسلم وأحب العلوم والفنون ونهض بالمنشآت العمرانية ذات النقوش الإسلامية (٤)

[و] السلطان محمد الثانى "الفاتح" :-(٥)

تسلطن عام ٨٥٥هـ / ١٤٥١م ، ويعتبر مؤسس نظام المضايق لتشييده قلعتين متقابلتين عند أضيق نقطة فى مضيق إستانبول ، إستولى على أكثر من مائتى مدينة وضمها للممالك العثمانية ، وأنشأ الكثير من المبانى الخيرية اهمها جامع أيوب والفاتح وإسكى سراى Eski - Sray (٦)

---

(١) عبد المنعم ماجد : طومان باى آخر سلاطين المماليك فى مصر (دراسة للأسباب التى إنهت حكم دولة سلاطين المماليك فى مصر) ١٩٧٨م مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ، صـ١١٢ .

(٢) سعيد الأحدبة : تفصيل الياقوت والمرجان ، صـ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

(٣) أوزونا : تاريخ الدولة العثمانية ، جـ١ صـ١٠٢ .

(٤) ماجد : التاريخ السياسى لدولة المماليك ، صـ٣٢٠ .

(٥) لُقب محمد الثانى بلقب الفاتح Le Conque rant بسبب فتح القسطنطينية .

(٦) مخطوط بدار الكتب المصرية باسم " منشآت الملوك والسلاطين " تحقيق أحمد فريدون تحت رقم ٤٤٤٠ تاريخ تركى ، ١٥٧ ، ١٥٨ .

[ن] الفاتح والقسطنطينية :-

كان فتح القسطنطينية هدفاً للسياسة الإسلامية زمن المسلمين الأوائل ، فإليها بُعثت جملات المسلمين وبجوارها دفن أبو أيوب الأنصارى صاحب رسول الله ﷺ ومضيفه فى دار الهجرة (١)، فى أولى محاولات الفتح ، وإن لم يوفق المسلمون الأوائل فى فتحها فإن الأتراك التابعين حملة الراية من بعدهم قد حققوا هذا الهدف الإسلامى الكبير ، حيث انها كانت وكراً لتدبير المؤامرات ضد المسلمين وديارهم والإغارة على ثغورهم (٢)

هذا وتوجد رسالة من السلطان محمد الفاتح إلى السلطان إينال المملوكى فى مصر يتحدث فيها عن القسطنطينية فيقول : (بقيت وسط بلادة تتباهى بكفرها ... وكأنها كلف على وجة القمر) .(٣) و إستطاع فتحها بعد بناء قلعتين أمامها وسد مضيقها بسلسله ونقل سبعين سفينه لخليج ـ بحر مرمرة ـ بعد أن مهد لها الطريق على البر . (٤) يقول عنه المؤرخ البيزنطى دوكاس Docas : (ما رأينا ولا سمعنا بمثل هذا الشىء الخارق ، محمد الثانى يحول الاراضى بحاراً و يعبر بسفنه فوق قمم الجبال ، فاق بعملة هذا الاسكندرالاكبر) ،و إستطاع دخولها بعد حصارها براً وبحراً لمدة إحدى وخمسين يوماً

---

(١) • بخصوص • أبو أيوب الأنصارى • : هناك رواية فى كتب السيرة تقول • أنه لم يقتل لكنة أصيب بمرض قضى عليه ، و إنتقل معه للرفيق الأعلى فى نفس سنة ٥٠هـ كل من السيدة عائشة أم المؤمنين ومعها السيدة صفيةْ و جويرية وكذلك أم سلمه وأم حبيبة ، والصحابى الأرقم بن أبى الأرقم رضى الله عنهم .

ومن رواية كتب السيرة وصية أبى أيوب ليزيد بن معاوية فيها : ٠(إذا أنا مت فاركب بى ثم سغ بى فى أرض العدو,وجدت مساغاً ، فإن لم تجد فادفنى) وضمت هذه الحملة قادة عظام منهم عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير وغيرهم • الشناوى:أوربا فى مطلع العصور الحديثة ، جـ١ ، صـ٦٤٥ هامش١ .

(٢) كانت الغزوة الأولى للقسطنطينية فى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان أرسلها بقيادة يزيد إبنه ، والحملة الثانية فى عهد الوليد بن عبد الملك الذى توفى قبل قيام الحملة وبعد ولاية أخيه سليمان بن عبد الملك أرسل الحملة بقيادة مسلمة بن عبد الملك بن مروان • الشاذلى : المسألة الشرقية ، صـ٤١ ،٤٢ .

(٣) فريد : الدولة العلية ، صـ٥٩ ، ٦٠ .

(٤) دخلها الفاتح من بوابة القديس رومان Saimnt - Romain ، وبوابة كيركو Kerko وبوابة كاليجاريا Caligaria أوزتونا : تاريخ الدوله العلية العثمانية ، جـ١ صـ١٤١ .

واستنجدت بملوك أوروبا وشاركها كثير من مسيحى أور با ولم ينفعها ذلك (١) وإن بذل ملكها قنسطنطين الحادى عشر باليولوجوس دراجاسيس XI-(x11) constantin paleologos Dragases تكفور (٢) أقصى ما يستطيع بعد تحريضهم على القتال بخطاب طويل وأخذوا فى البكاء وعانق بعضهم بعضاً للوداع (٣)

والواقع أن القسطنطينية كما وصفت كانت " صعبة المرسى ، شامخة الأركان راسخة البنيان ، قلعة حصينة عظيمة ، مشهورة فى ألسنة أهل الأرض " حتى راجت أحاديث نبوية نطق بها رواة الحديث منها ما رواه الإمام أحمد والحاكم عن بشر الغنوى عن رسول الله ﷺ أنه قال " لتفتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش جيشها " (٤)

---

(١) أحمد بن زينى دحلان " مفتى مكه " : الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م نشر مؤسسة الحلبى ، مطبعة المدنى ، القاهرة صـ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ . يذكر أن دول أور با تحركت متباطنة متثاقلة لنجدتها ، فأنفذت أسطولاً لم يكن يصل لثغر نجربونت حتى بلغ مسامع قوادة أن القسطنطينية قد سقطت ، فعادوا بسفنهم من حيث أتوا . الشناوى : أور با فى مطلع العصور الحديثة ،جـ١صـ٦٤٩ ،

(٢) تكتب هذه اللفظة فى بعض المراجع Dracoses .

(٣) من المراثى التى تمجد قنسطنطين دراجاسيس قولهم :أمسك الإمبراطور بسيفه وقاتل الأتراك بجواده وذبح عشرة باشوات وستين إنكشارى وكسر سيفه وظل وحيداً فرفع يده للسماء وقال " يارب إنشر رحمتك على شعبك وأبسط رعايتك على القسطنطينية " • ماجد : التاريخ السياسى للمماليك ، صـ٣٢١ .

(٤) يذكر الدكتور أمين فارس والأستاذ منير البعلبكى مترجماً كتاب كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، دار العلم للملايين _ بيروت ١٩٥١م الجزء الثالث منه يتناول تاريخ العثمانيين وحضارتهم أن " هذا الحديث قد ورد فى :الجامع الصغير : للسيوطى ؛ كما ورد فى " السراج المنير شرح الجامع الصغير للعزيزى ، ١٣٠٤هـ / ١٨٨٣م طبعة مصر جـ٣ ، صـ١٩٢ ،

ويقول المعربان لاذكر فى الكتب المتقدمة لهذا الحديث ، أنظرها صـ٤٥ فى كتاب بروكلمان المذكور كما تذكر المراجع الفرنسية هذا الحديث المنسوب للرسول عليه السلام ولكن يتغير لفظى لا يخرجه عن معناه وهو، " Ils Prendrant Gonstantinople ، Le Meilleur prince est celui qui Fera cette conquete et La Meilleure armee sera la sienne" والمعنى سيأخذون القسطنطينية ، وإن خير الأمراء من يقوم بهذا الفتح ، وخير الجيوش هو جيشه." دحلان : الفتوحات الإسلامية صـ١٢٨ ،

هذا وبعد البحث يوجد معنى الحديث فى سنن أبو داوود جـ٢ صـ ٤٢٦ وسنن بن ماجه صـ٤٠٩٢ ؛

وقال الترمذى حديث حسن،ويوجد نص عن معاذ بن جبل قال : قال الرسول ﷺ الملحمة وفتح القسطنطينية رواه عكاشة عن المناذ الطيبى فى سنن أبى داوود جـ٢ ، صـ٤٢٦ ،

وفى الحديث منقبة عظيمة للسلطان محمد الفاتح وجيشه (١) فكان حاكماً عظيماً يعرف مايريد ولم يكن له غاية سوى الفتوحات ، فوفقه اللّه لإحياء الغاية المقدسة للغزوات النبوية منذ عصور طويلة. (٢)

ونخلص من هذا كله : أنه بسبب هذا الفتح تم قطع دابر الدولة البيزنطية نهائياً وهى التى شغلت المسلمين طوال تاريخهم الوسيط وأصبح للعثمانيين مكانه عظيمة بين العالم الإسلامى ؛ فأصبحوا يقفون موقف الند من دولة المماليك فى الشرق .

أمر الفاتح فى سنة ١٤٥٩م ببناء مسجد يضم ضريح أبى أيوب وهو بناء مربع بسيط تعلوه قبة ، وكان [السـ]لاطين يتقلدون من داخل المسجد سيفاً لجدهم عثمان الأول فى إحتفال رسمى وذلك بعد إرتقائهم للعرش ، هذا وقد [د]فن [بالقـ]رب من هذا المقام كثير من السلاطين وأقاربهم ورجال الدولة ، الشناوى : اوربا فى مطلع العصور الحديثة ، [جـ١] ص ٦٤٦.

[(٢)] [مـ]اجد : التاريخ السياسى للمماليك ، صـ١٤٢ ؛ أوزتونا " تاريخ الدولة العثمانية"جـ١، صـ١٥٧.

[ويذكر ا]بن إياس أن هذا السيف لعثمان جدهم الذى مات شهيداً فى إحدى غزواتة سنة ٦٩٩هـ / ١٣٠٠م

[ابن إ]ياس : " بدائع الزهور " جـ٣ ، صـ٢٣٧.

الفصل الثانى

تطور العلاقات العثمانية المملوكية

(أ) الاتصال العثمانى المملوكى

١ - نظرة المماليك للعثمانيين.

٢ - نظرة العثمانيون للماليك.

٣ - السلطان بايزيد الأول وبرقوق .

٤ - السلطان مراد الثانى والأشرف برسباى .

٥ - السلطان مراد الثانى وجمقمق.

٦ - مصر و الفتح الأكبر سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م .

(ب) بوادر الإفتكتك العثمانى المملوكى.

١ - أثر الصراع الأسرى العثمانى

٢ - العلاقة بين السلطان محمد الفاتح وإينال العلائى.

٣ - العلاقة بين السلطان محمد الفاتح وخشقدم.

٤ - العلاقة بين السلطان محمد الفاتح وقايتباى.

(حـ) لجوء السلطان جم إلى مصر

١- السلطان بايزيد الثانى وقايتباى.

٢ - الصراع العثمانى المملوكى.

(أ) الاتصال العثمانى المملوكى:

تضخمت قوة الأتراك العثمانيين فى بداية القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى، حيث كانت إقامتهم فى خرسان، ثم تحركو غربا للإستقرار فى آسيا الصغرى، وتهيئت لهم فرصة ذهبية للتوسع بعد ما إنهارت سلطنة سلاجقة الروم.(١)

فتوسعوا على حسابها وكذلك على حساب الإمارات التركية الكثيرة ومعها الإمبراطورية البيزنطية.(٢)

وتمثل هذا التوسع فى الإستلاء على بروسة (٣) ونيقية (٤) وقونية (٥) وبعد ذلك عبروا إلى الشاطئ الأوربى. ولكن توقف نمو الدولة العثمانية وقتا بسبب وصول عنصر المغول (٦)

---

(١) نهاية سلطنة سلاجقة الروم: شهدت نهاية القرن ٧ هـ / ١٣ م أحداثا هامة على مسرح الشرق الأدنى، فبالإضافة إلى زوال دولة الصليبين بالشام عقب سقوط عكا سنة ١٣٠٧ هـ. تفككت أيضا سلطنة سلاجقة الروم عقب وفاة سلطانها علاء الدين قيقباد الثالث، الأمر الذى ترتب عليه ظهور عدد كبير من الإمارت التركية على أنقاض سلطنة الروم، وأشهر هذه الأمارات آيدين، وصاروخان، وقرمان، فى حين عرف البعض الآخر بأسماء عواصمها مثل فوكة ومغنسيا. العمرى: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار حـ ٢ ق ٢ ورقة ٣٥٦.

(٢) عاشور: الأيوبين والمماليك فى مصر والشام ص ٣٣١.

(٣) سبق الحديث عنها.

(٤) نيقية: قال إبن الحروى هى مدينة من أعمال إستانبول، تقع على البر الشرقى منها، سكانها حفاة وليس لمن يسكنها خلاق.

ياقوت الحموى: معجم البلدان حـ ٨ ص ٣٦٠؛ محمد بن عبد المنعم الحميرى: الروض المعطار فى خبر الأقطار - (قاموس جغرافى)، تحقيق: إحسان عباس، نشر مؤسسة ناصر للثقافة، طبعة أولى سنة ١٩٧٥ م، طبعة ثانية ١٩٨٠م (لا يوحد مكان للنشر) ص ٥٨٩.

(٥) قونية: بالضم ثم بالسكون ونون مكسورة وياء مثناه من تحت خفيفة - وهى من أعظم مدن الإسلام وتقع ببلاد الروم وبها سكن أكثر ملوك الروم. ياقوت الحموى: معجم البلدان حـ ١٠ ص ٣٠٢.

(٦) المغول: هم عنصر آسيوى كان مجاورا للعثمانيين وقد تحركوا لفتح البلاد تحت قيادة زعيمهم المشهور تيمور لنك، وتمكنوا من وقف نمو الدولة العثمانية لفترة. فريد: الدولة العلية، ص ٥١.

إلى آسيا الصغرى ، حيث حاربوا العثمانيين وهزموهم فى معركة بالقرب من مدينة أنقرة (١) فى عام ٨٠٤ هـ / ١٤٠٢ م.(٢)

بل وأسروا السلطان العثمانى بايزيد الأول ومات فيما بعد منتحرا (٣).

ونتج عن هذه الهزيمة تمزق الدولة العثمانية الناشئة وتنازع أولاد بايزيد الأول على السلطنة وإنفصال كثير من الإمارات عن دولتهم ، وإستمر هذا الوضع لحين مجئ السلطان محمد الأول (٤) الذى وحد الدولة وعمل على تقويتها ، وأصبحت الدولة ثابتة الأركان راسخة البنيان على يد السلطان مراد الثانى (٥) الذى عمل على إدخال الأساليب الحديثة فى الإدارة والحكم والسياسة والجيش.(٦)

(١) أنقرة : تحدها من الشمال الغربى مدينة بورسة ومضيق الدردنيل ومن الشرق قيصرية والجنوب الغربى قونية. بتفصيل راجع : الحميرى : الروض المعطار ص ٣١ ، ٣٢.

(٢) إبن إياس : بدائع الزهور ، حـ ٣ ص ٤٨ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ . ؛ فريد : الدولة العلية ص ٥١ ، ٥٢.

(٣) بايزيد الأول : وقع أسيرا فى معركة قصوه بالقرب من أنقره وتمكن من أسره جنود القائد تيمور لنك فى سنة ٨٠٤ هـ / ١٤٠٢ م وتوفى فى مدينة آمد شهر منتحرا بعد أن بلع فص من الماس فى قفصه الحديدى ودفن فى مدينة بروسة عام ٨٠٥ هـ / ١٤٠٣ م ، دائرة المعارف الإسلامية ،حـ ٣ ،ص ٣٢٨ ، ٣٢٩.

(٤) السلطان محمد الأول : هو خامس سلاطين آل عثمان عمل على إستتباب الأمن بالداخل وإسترجاع ما ضاع من العثمانيين بعد معركة قصوة ويؤثر عنه الحزم مع الحلم ويرجع له الفضل فى إعادة تكوين الدولة. فريد : الدولة العلية ص ٥٢.

(٥) السلطان مراد الثانى : لقبه الغازى لكثرة غزواته خلف أبيه السلطان محمد الأول فى الحكم ، يرجع إليه الفضل فى إعادة أملاك الدولة المسلوبة والتى إستقلت بأمر تيمور لنك ومن أهمها آيدين وصاروخان ومنتشا. فريد : الدولة العلية ص ٥٥.

(6) Khalil EdhÂem : Meskukat osmanli .I. Catalogue des Mannaies islamiques de Musee' in p. VI Constantinople 1334. Wo 88-91.

(١) نظرة المماليك إلى العثمانيين :

لقد أعاد العثمانيون الإسلام إلى القارة الأوربية بعد أن رحل عنها من الأندلس خاصة بعد القسطنطينية (١) ، هذا الفتح الذى جعل من الدولة العثمانية دولة إسلامية عظيمة لها مكانتها وأهميتها فى أرجاء العالم الإسلامى.(٢)

وعلى الرغم من هذا فإن المماليك لم ينظروا للعثمانيين فى بداية الأمر بمنظار العداوة أو حتى المنافسين لهم فى السيطرة والنفوذ داخل العالم الإسلامى ، على أساس أنهم لم يعادوهم بعد ، بل ولا يرتقون إلى مرتبتهم ، حتى وإن أحرزوا إنتصارات هائلة فى آسيا الصغرى وأوربا.(٣) وكذلك لأنهم لا يقيمون مثلهم فى قلب العالم الإسلامى ، وإنما يقيمون فى آسيا وأوربا موئل الشعوب غير الإسلامية ، وهم بعد فتحهم القسطنطينية وتحويلها لعاصمة إسلامية ، بعد أن كانت تحمل العبء الشديد للمسلمين طوال قرون عديدة ، فهم فى نظرهم مسلمون مجاهدون فقط لا غير.(٤)

وعلى العكس من ذلك فإن المماليك بسبب وجود دولتهم فى الشرق إعتبروا أنفسهم حماة للإسلام والمسلمين ، وكان لهم ميزة الإقامة فى مصر قلب المسلمين النابض ، فقد إتخذوها مركزا وقاعدة أصلية لدولتهم المملوكية الإسلامية المترامية الأطراف وهم بذلك قد نهجوا نفس سياسة الفاطميين والأيوبيين ، والواقع أن المماليك لهم رصيدهم السابق بالنسبة للمسلمين ، فهم الذين قطعوا دابر الصليبين من الشرق وأوقفوا الخطر المغولى الذى لا يقل تهديدا

---

(١) القسطنطينية : سبق الحديث عنها ، وبتفصيل راجع الحميرى : الروض المعطار ص ٤٨١.

(٢) Gibbins, E. Dechine and fall of The Roman Empire, edin T vols by J. B. Bwry, Lonaon, 1909.

(٣) ماجد : التاريخ السياسى لدولة المماليك ص ٣٢٣.

(٤) أحمد السيد دراج : المماليك والفرنجة فى ق ٩ هـ / ١٥ م - القاهرة سنة ١٩٦١ م ، ص ٨٥.

المسلمين عن الخطر الصليبى ، كما أنهم إستطاعوا إعادة الخلافة العباسية التى قضى عليها المغول فى بغداد ، فأصبحت القاهرة مركزا للخلافة عوضا عن بغداد.(١)

وبعد هذه المهام الكبرى لصالح الإسلام والمسلمين ، فلم يستكين المماليك فى الجهاد ضد قوى المسيحية ، فهاهو برسباى السلطان المملوكى يذكى روح الجهاد ويهاجم جزيرة قبرص فى ثلاث حملات متوالية حتى اخضعها وإنتصر على ملكها جانوس الثانى لوزغنان Ganous 2 nd Louz benen وأحضره أسيرا للقاهرة.(٢)

وبجانب هذا كله يضاف جهادهم الدائم ضد البرتغالين حتى فى أواخر أيامهم بعد طمع هؤلاء فى بلاد المسلمين بالقارتين الإفريقية والأسيوية ، ولا سيما الخليج العربى والبحر الأحمر ، ولقد أستخدم المماليك فى حربهم ضد البرتغاليين البارود والمدافع على أساس أنهم غير مسلمين ، ويسجل التاريخ تلك المعارك التى أنتصر فيها المماليك عليهم برا وبحرا ، وإن تفوق البرتغاليون فى النهاية.(٣)

وفى بداية الأمر . فإن المماليك كانوا مثل بقية المسلمين يثلج صدورهم إنتصارات العثمانيين على الروم وقضاؤهم عليهم نهائيا وكذلك فتوحاتهم فى أوربا ، باعتبار ذلك فتحا ونصرا للإسلام والمسلمين ، وكان من مظهر التقدير للعثمانيين المجاهدين أن الخليفة العباسى الذى يستظل بحماية المماليك فى مصر ، كان يرسل إلى سلاطين آل عثمان تقليدا بالسلطنة.(٤)

---

(١) زيادة : نهاية المماليك،ص ٢٠٠.

(٢) عندما تعددت غارات لصوص البحر على مصر من جزيرة قبرص Cybrus أرسل برسباى أسطولا بحريا لغزوها ، فتمكن من الإستيلاء عليها سنة ٨٢٥ هـ / ١٤١٩ م وإحضار ملكها جمس جانوس أسيرا إلى القاهرة وبصحبته كثيرون من سكان الجزيرة بيعوا فى أسواق الرقيق ، وبقيت خاضعة لمصر حتى نهاية الدولة المملوكية سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٧ / . عمر الأسكندرى : تاريخ مصر للفتح العثمانى،ص ٢٦٧.

(٣) إبن إياس : بدائع الزهور،جـ ٣،ص ٢٣٦ ، ٢٣٧.

(٤) أحمد فؤاد متولى : الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته ، القاهرة سنة ١٩٧٦ م ملحق ١٣ ، ص ٢١٠.

(٣) نظرة العثمانيين للمماليك:

لقد كان الوئام يخيم على العلاقة بين العثمانيين والمماليك ، يظهر ذلك من خلال الرسائل التى تبادلوها مع بعضهما وقد فخم العثمانيون المماليك بإعتبارهم زعماء ، وهم حماة المقدسات الإسلامية ـ الحرمين والأقصى ـ وأحيانا نجد عبارات الحب والوئام والوله من الطرفين (١) ومن أبرز هذه العبارات : (أن المملكتين روحان فى جسد أو ساعدان فى عضد أو أنهما مملكة واحدة ، ويلاحظ أن هذا التعبير كان سائد فى المراسلات بين الدول الإسلامية وكذلك الدول الصديقة أنذاك. (٢)

وأرسل السلطان مراد تهنئة للسلطان برسباى بالفتح القبرصى . ويلاحظ أن سلاطين العثمانيين كانوا يستشيرون سلاطين المماليك بشأن حملاتهم الأوربية بل وينزلونهم منزلة الآباء ، فضلا عن الأسرى الذين يرسلونهم إلى مصر عقب إنتصارهم على الفرنجة ، وهناك من السلاطين العثمانيين من طلب أطباء مصريين لمعالجتهم(٣) وهناك من طلب منتجات مصرية ، وآخر طلب فيلا ليراه ، هذا كله يظهر مدى العلاقة الودية بين الدولتين.

ولقد رأى العثمانيون أنهم يستحقون مركزا خاصا يليق بهم بين مسلمى الشرق ، حتى وإن كانوا بعيدين عنه ، بسبب حروبهم المستمرة ضد المسيحين وإنتصارهم عليهم فى آسيا وأوربا.(٤)

---

(١) معظم الرسائل التى كانت بين الدولتين وردت باللغة العربية فى كتاب : أحمد فريدون : منشآت الملوك والسلاطين ، ذكرت المصادر والمراجع أنه كان مخطوطا بمكتبة طوبقبو سراى تحت رقم ١٩٦٠ . R ، وهى موجودة بملاحق هذا البحث ؛ هذا وقد صدر كتاب بإستانبول سنة ١٣٩٨ هـ وتم الإعتماد عليه.

(٢) عبد المنعم ماجد : الأشرف طومان باى ، آخر سلاطين المماليك فى مصر ((دراسة للأسباب التى أنهت حكم دولة سلاطين المماليك فى مصر)) القاهرة ، نشر مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٩ م طبعة ثانية ص ١٠٥ ؛ ماجد : تاريخ المماليك السياسى ص ٣٢٦.

(٣) طلب السلطان العثمانى بايزيد الأول أطباء مصريين لمعالجته فكان يعانى من الروماتيزم ، بتفصيل راجع متولى : الفتح العثمانى للشام ومصر ، ملحق ١١ ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢.

(٤) أحمد فريدون : منشآت السلاطين ، ص ١٨٠.

ومن ثم أصبح ذلك هدفا فى سياستهم ، سعوا إلى تحقيقه ، يظهر ذلك فيما نسبوه إلى جدهم عثمان وحلمه سالف الذكر ، فقد أصبح هذا الحلم يحرك كل سلطان عثمانى كى تمتد دولته من الدانوب إلى النيل.(١)

ولكن كيف بدأ الإتصال بين الدولتين ؟ لقد إرتبطت العلاقات بين دولة المماليك الجراكسة القائمة والدولة العثمانية الناشئة بمسألة الحدود وكذلك التنافس على زعامة العالم الإسلامى.(٢)

وإستمرت العلاقة بين الدولتين ودية مادامت حدودهما متباعدة - لا سيما أن الدولة العثمانية وجهت جهودها فى بداية الأمر ضد القوى المسيحية فى أوربا وهو أمر قوبل بالإرتياح الشديد من جانب المماليك وغيرهم من القوى الإسلامية .(٣)

وتبادل سلاطين الدولتين الهدايا مع بعضهم وازدادت أواصر الصداقة بينهما بعد ظهور تيمور لنك المغولى (٤) وخطره على كلا الجانبين.

لختم هذا الخطر ضرورة الإتصال والتفاهم بينهما لمواجهته ، ومن ثم بدأ العثمانيون يسعون لتأكيد تلك الصداقة ، بل وإيجاد نوع من التحالف مع المماليك ، لتعارض مصالح العثمانيين مع المغول فى السيطرة على أسيا.(٥)

---

(١) محمد فريد : الدولة العلية ، ص ٤٠.

(٢) راجع بتفصيل فريد : المرجع السابق ص ٤١.
حكيم أمين عبد السيد : قيام دولة المماليك الثانية ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة سنة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م ، طبعة أول ص ١٤٦.

(٣) عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٢٢٦.

(٤) تيمور لنك : كان زعيم القوات المغولية التى كانت تعثوا فى البلاد خرابا ودمارا ، ولقد تمكنت هذه القوات من الإستيلاء على بغداد عاصمة الخلافة العباسية وتمكن صاحبها القآن أحمد من الفرار إلى القاهرة ، فأكرمه السلطان برقوق وعمل على طردهم منها فجهز جيشا كبيرا قاده بنفسه ، وفى تلك الأثناء رحل تيمور لنك عن بغداد ثم رجع برقوق إلى القاهرة ، وتولى القان أحمد مملكته.
المقريزى : الخطط جـ ١، ص ١٤١ إبن زنبل : آخرة المماليك، ص ٥.

(٥) Malct Ft Isaac; L'Hisroire du X IV and XV and XVI Siecles. p. 210.

(٣) السلطان بايزيد الأول العثمانى والسلطان برقوق المملوكى:

يعتبر عام ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م هو البداية التاريخية للإتصال بين الدولتين حيث أرسل السلطان بايزيد الأول سفارة إلى السلطان برقوق تحمل إليه هدية وتحذره من الخطر المغولى الداهم الذى تحرك من تبريز (١) متجها صوب الغرب ومهددا الدولتين المملوكية والعثمانية.(٢)

وأكرم السلطان برقوق رسل السلطان بايزيد ، وأبدى إستعداده للتعاون والتنسيق لصد الخطر المغولى . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى طلب السلطان بايزيد منه طبيبا حاذقا فى مهنة الطب وأدوية توافق مرضه ، حيث كان يشكو من آلام المفاصل (الروماتزم) ، وإستجاب السلطان برقوق لطلبه وأرسل له الطبيب ومعه كمية كبير ة من العقاقير الطبية التى طلبها.(٣) والواقع أن السلطان برقوق ، قابل كل هذه العروض بحذر شديد وإن لم يستطع أن يخفى مخاوفه من أطماع العثمانيين ، وقال قولته المشهورة : (إنى لا أخاف من تيمور لنك ، فإن كل إنسان يساعدنى عليه ، وإنما أخاف من إبن عثمان). هكذا جاهر برقوق بمخاوفه من إبن عثمان.(٤)

---

(١) تبريز : هى أشهر مدن آزربيجان ، وهى مدينة عامرة حسناء ، ذات أسوار محكمة ، وفى وسطها عدة أنهار جارية ، وتحيط بها البساتين من كل جانب والفواكه بها رخيصة ، وعمارتها بالآجر الأحمر المنقوش والجص غاية فى الإحكام. ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣.

(٢) يذكر الدكتور طرخان فى كتابه : مصر فى عصر المماليك الجراكسة ص ١٦٢ أن بايزيد الأول هو الذى أرسل الهدية إلى برقوق ، ويوافقه فى هذا الكلام الدكتور حكيم أمين عبد السيد فى كتابه : قيام دولة المماليك الثانية ص ١٤٨ ، ولكن يخالفهما الرأى الدكتور عاشور فى كتابه : العصر المماليكى،ص ٢٦٦.ويقول إن الذى أرسل الهدية لبرقوق هو مراد الأول . وأضم صوتى لرأيهما ويحتمل أن يكون سهوا مطبعيا فى كتاب العصر المماليكى.

(٣) المقريزى : يذكر الطبيب أنه الرئيس شمس الدين صغير : السلوك،جـ ٣،ص ٧٠٨.

(٤) إبن إياس : بدائع الزهور ، جـ ١،ص ٣٠٠.

والحقيقة إن السلطان برقوق أدرك ببعد نظره خطورة الدولة العثمانية على بلاده فى الوقت الذى لم يكترث فيه بخطورة تيمور لنك ، وبالفعل لم تلبث الأحداث المتتابعة أن أثبتت صدق ظنه وحدسه.

وقد دأب السلطان بايزيد الأول على تأكيد صداقته وإحترامه لسلاطين المماليك فهاهو يتمسح بهم فيرسل فى سنة ٧٩٧ هـ / ١٣٩٤ م هدايا وتحفا نادرة إلى الخليفة العباسى فى مصر.(١) ويطلب منه تشريفا وتقليدا بإعتماده سلطانا ، فبعث له الخليفة بهذا التقليد وإن تحفظ المماليك إزاء هذا الطلب. (٢)

هذا يعنى بجلاء أهمية السلطنة المملوكية وسيادتها العليا فى أنحاء العالم الإسلامى.

غير أن علاقة الود هذه لم تستمر بإطراد ، بل نجد السلطان بايزيد الأول صاحب العلاقة الطيبة يزحف بقواته على مدنية قيسارية (٣)

---

(١) إبن حجر : إنباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٣٨٥.

(٢) يذكر الدكتور عاشور إسم الخليفة العباسى فيقول إنه المتوكل على الله وذلك فى كتابه : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٢٦٦.

(٣) قيسارية : تكتب قيصرية أيضا وتسمى قيسارية الروم وهى مدينة كبيرة عظيمة فى بلاد الروم وكانت كرسى ملوك بنى سلجوق وعلى رأسهم ابن أرسلان ، وبها موضع يقولون أنه حبس فيه محمد بن الحنفية بن على كرم الله وجهه.

ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٧ ص ١٩٥ ؛ الحميرى : الروض المعطار ص ٢٣٧.

وهناك قيسارية الشام : وهى مدينة على ساحل بحر الشام وتعد من أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام ، وكانت قديما من أعيان أمهات المدن وهى واسعة الرقعة طيبة البقعة كثيرة الخير والأهل. ياقوت الحموى المصدر السابق جـ ٧ ص ١٩٥.

ويذكر الحميرى أنها : مدينة كبيرة تقع ببلاد الشام وهى ساحلية كبيرة عظيمة وهى حصن منيع بينها وبين يافا ثلاثون ميلا ، فتحها معاوية بن أبى سفيان فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما . الروض المعطار فى خبر الأقطار ص ٤٨٦ بخصوص إغارة السلطان بايزيد على قيسارية سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م يذكر الدكتور : عاشور فى كتابه العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٢٦٦ نفس التاريخ ؛ ويوافقه فى نفس التاريخ الدكتور حكيم أمين عبد السيد فى كتابه : قيام دولة المماليك الثانية ص ١٤٧ ، ويخالفهما فى هذا التاريخ الدكتور طرخان فيذكر السنة (٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م) فى كتابه : مصر فى عصر الجراكسة ص ١٦٢. وبعد التأكد من كتاب إنباء الغمر لأبن حجر نجد صحة تلك السنة =

وهى المشمولة بحماية السلطان برقوق وذلك فى سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م. (١)

وعلى الرغم من هذا فإن السلطان بايزيد لم ير حرجا فى أن يطلب ود المماليك ، عندما إقترب من خطر المغول ، فسارع إلى إصلاح الأمور مع السلطان برقوق ، وإعتذر له عما حدث وأرسل إليه مفاتيح قيسارية _ قيصرية ـ ومعها هدية ثمينة ؛ حيث أنه رأى فى صداقة برقوق خير معين له على دفع الخطر المغولى. (٢)

وبالطبع لم يتأخر برقوق فى قبول الإعتذار وأرسل سفارة لعقد الصلح. هذا وقد أراد السلطان بايزيد إستغلال صداقته للمماليك ، فأرسل إلى تمور لنك يذكره بأن الخلافة العباسية مازالت قائمة فى مصر ، وأن مصر قوة كبيرة ويمكن أن يرتبط معها فى وحدة وهذا الإتحاد يقاومه إذا أراد العدوان على العثمانيين أو على المماليك .(٣)

والحقيقة إن السلطان بايزيد كان حريصا على تدعيم علاقة الود مع المماليك فهاهو يرسل سفارة لمصر تحمل البشارة بإنتصاره الحاسم على الأوربيين فى موقعة نيقوبوليس Nicopolice ومعها بعض أ سرى الفرنج من الفرنسيين والإيطاليين ، بلغت مائتى أسير.(٤)

بيد أن العلاقة الطيبة بين العثمانيين والمماليك أضعف من شأنها أطماع العثمانيين فى الشرق ؛ فبدأ يشوبها التوتر عقب وفاة السلطان برقوق ؛ حيث إنتهز السلطان بايزيد فرصة إنقسام الأمراء فى مصر على أنفسهم وقام بالإغارة على أطراف دولة المماليك وإستولى على مدينة ملاطية .(٥)

- ٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م . والمتأمل فى كتاب الدكتور طرخان نجد أنه يدون تلك الأحداث فى عهد السلطان فرج بن برقوق ونعلم أن السلطان فرج عاصر بايزيد سنة واحدة فقط.

(١) طرخان : مصر فى عصر الجراكسة ، ص ١٦٢.

(٢) إبن حجر : إنباء الغمر جـ ١ ص ٣٣٦ ؛ عاشور : العصر المماليكى ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨.

(٣) إبن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام جـ ٣،ص ٦٩.

(٤) إبن قاضى شهبة : المصدر السابق جـ ٣،ص ١٢٢ ؛ حكيم أمين : قيام دولة المماليك الثانية ، ص ١٤٧.

(٥) العينى : عقد الجمان ، جـ ٢٥ ، ص ٧٨.

والواقع أن السلطان بايزيد بعدوانه هذا ، أظهر ما فى نفوس العثمانيين من رغبة ملحة فى زعامة العالم الإسلامى ، وبالطبع حرمان المماليك منها ، كما ذلل بفعلته هذه على مدى إستهتارهم بالعلاقات السياسية بين الدولتين فى تلك الظروف الصعبة التى أحاطت بكل منهما.(١)

ومما لاشك أن هذا العدوان كان كافيا لتحذير سلطنة المماليك من نوايا إبن عثمان ، وإن كان خطر المغول يدفع المماليك دفعا حثيثا إلى الأحتفاظ بود المماليك بدليل طلب السلطان بايزيد التحالف مع السلطان فرج بن برقوق لصد ذلك الخطر الزاحف من جهة الغرب ، نحو الحدود المشتركة بين الدولتين .(٢)

وبالطبع رفض فرج تلك الفكرة وذكر بايزيد بغارتة علىملاطية ، ولم يدر أنه بهذا الرفض قد أوجد فرصة ذهبية طالما تمناها تيمور لنك ليستطيع مواجهة كل منهما على حدة ، وهى الفرصة التى لم يحققها زمن السلطان برقوق ، وفعلا زحف الجيش المغولى تجاة الشرق قاصدا المماليك ، لتأكدة من وجود الخلاف بين الدولتين .(٣)

وقد تمكن من إنزال الهزيمة بالجيوش المملوكبة قرب دمشق ، وبعد فراغهم من المماليك إتجهوا نحو العثمانيين ، وإنتقموا من الاهانات التى ألحقها بهم بايزيد الأول وتحديه لتيمورلنك

= ملاطية ـ ملطية : هى بفتح أولها وثانيها وسكون الطاء وتخفيف الياء .كانت من بناء الأسكندر الأكبر وبعد الفتح الإسلامى بنى بها الصحابة جامع كبير ، وهى تابعة لبلاد الروم مشهورة تتاخم الشام وأعاد بناءها عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام بأمر من الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور . ياقوت الحموى : معجم البلدان،جـ ٨،ص ١٥٠ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ١٢ ، ص ١٧٩ حاشية ٣ ؛ الحميرى : الروض المعطار ، ص ٥٤٥.

(١) العينى : المصدر السابق ، جـ ٢٥ ، ص ٧٨ ، ٧٩.

(٢) حكيم أمين : قيام دولة للمماليك الثانية ص ١٤٨ .

(٣) عاشور : العصر المماليكى ص٢٦٩ .

عدة مرات ،وأنزلوا بهم هزيمة ثقيلة فى معركة قرب أنقرة .(١) وأسروالسلطان بايزيد الأول نفسه ومات بعد ذلك .(٢)

والحقيقة إن هزيمة تيمورلنك لكل من السلطانين المملوكى والعثمانى قد أضاع هيبة كل منهما فى نظر الآخر ، ومن ثم أخرت الإصطدام بينهما حوالى قرن من الزمان تأرجحت العلاقات خلاله بين الود والعداء . (٣) على أن بقاء تيمورلنك على قيد الحياة جعل السلطان محمد الأول بن بايزيد الأول يتنبه لخطورة الموقف بعد وفاة والده ووقوع شرق بلاده تحت رحمة من تحالفوا مع تيمورلنك ، فأسرع بعقد الصلح مع السلطان فرج بن برقوق سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٣ م .(٤)

ولما توفى تيمورلنك سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م وترتب على ذلك تفكك دولته ، فأتاح ذلك الفرصة لدولتيى المماليك والعثمانيين التخلص من أثر ضرباته ، بل وأزال منافسا خطيرا من طريق العثمانيين الذين أرادوا تحقيق أطماعهم بالشرق .(٥)

وصفوة القول : عندما بدأ ميزان القوى يتأرجح بين الدولتين المملوكية والعثمانية ، أصبحت صداقتهما صورية،الغرض منها : إظهار قوة كل منهما للآخر ؛ إذ كلما صار لأحدى الدولتين فتح قريب أو بعيد ، وتبادل كل منهما التهانى والتبريكات والأسرى .

---

(١) انقرة : مدينة عظيمة شهيرة حصينة تحدهاشرقا كيثرية وغربا بروصة وجنوب شرق قونية وهى الآن عاصمة الجمهورية التركية.

الحميرى : الروض المعطار ص٣١،٣٢ .

(٢) أحمد عبد الحميد خفاجى : السلطان الظاهر جقمق وعصره . ٨٤٢ -٨٥٧ هـ/ ١٤٣٨ - ١٤٥٣ م،رسالة دكتوراه غير منشورة بكلية الأداب جامعة الأسكندرية ، سنة ١٩٧٢ م ص ١٥٦ .

(٣) Atiya : The Crusade in The later Middle Ages , p. 22. (ترجمة العصور الوسطى .

(٤) دحلان : الفوتوحات الإسلامية ، جـ ٢،ص ٦١.

(٥) الزنانى : الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٦٠٤ ت ورقة ٩٠م.

(٤) السلطان مراد الثانى والأشرف برسباى :

لقد أرسل السلطان مراد الثانى سفارة عثمانية إلى السلطان برسباى سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣م تضم هدية قيمة ، يهنئه فيها بالسلطنة ومعها هدية قيمة ، ورد عليها برسباى بأحسن منها ، وإن لم تصل إليه لوقوعها فى أيدى قراصنة المتوسط.(١)

وبالرغم من عدم وصول الهدية من برسباى إلى مراد الثانى ، فقد أرسل سفارة عثمانية أخرى لمصر سنة ٨٣٠ هـ / ١٤٢٦ م ومكثت تلك السفارة بالقاهرة حتى شهدت عودة حملة برسباى الثالثة التى هزم فيها ملك قبرص (جانوس لوز جنان) وأحضره أسيرا للقاهرة بعد تمام الإستيلاء على جزيرته سنة ٨٣١ هـ / ١٤٢٧م. (٢)

ويبدو أن أخبار الإنتصارات التى أحرزها السلطان برسباى قد أثارت حفيظة السلطان العثمانى فأرسل فى العام الثانى مباشرة خمسين أسيرا أوربيا هدية إلى برسباى ، على إثر إستيلائه على إحدى الإمارات البلقانية .(٣)

وهدف السلطان من هديته هذه : التدليل على أنة ليس دون الأشرف برسباى فى إعلاء كلمة الأسلام .(٤)

هذا وقد إستقبل السلطان برسباى وهو فى حلب ببلاد الشام.(٥)

---

(١) خفاجى : الظاهر حقمق وعصره ص ١٥٦، ١٥٧ .

(٢) زيادة : نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢٠٢ .

(٣) طرخان : مصر فى عصر الجراكسة ، ص ١٦٤.

(٤) طرخان : مصر فى عصر المماليك الجراكسة ، ص ١٦٤ .

(٥) حلب : هى مدينة كثيرة المياة ذات حدائق غناء ومرواج واسعة كثيرة الزراعة كانت تسمى حاليون ،ثم حرف العرب الإسم إلى حلب . أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٢٥٠ ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ١٠ ص١٧٤ ، ١٧٥، ١٧٦ ، ١٧٧ .

الشام :مهموز الألف ولايهمز ، وأطلق عليه الشام لشامات حمر وسود هناك كثيرة ، وقيل إن الناس لما تفرقت لغاتهم تيامن بعضهم يمين الشمس وتشاءم بعضهم شمالها ، فسميت بهذا الإسم . والشام بلاد كثيره ، وكور عظيمة وممالك، وقد قسم الأوائل الشام إلى أربعة أقسام الأول:فلسطين وتشمل (غزة والرملة) والثانى (طبرية والغور واليرموك)-

فى عام ٨٣٧ هـ /١٤٣٣ م إثنين من أسرة السلطان مراد هما : (الأمير سليمان وأخته شاه زاده) اولاد أخو السلطان مراد الثانى نفسه : وأكرمهما وإصطحبهما معه إلى القاهرة حيث أسكنهما فى الأدر الشريفة بالقلعة . (١)

وقد إطمأن السلطان مراد على إقامة الصبى والصبية عند صديقه برسباى ، ويذكر أن الأشرف برسباى لما كبرت شاه زاده خطبها لنفسه ، لكنه مات قبل الدخول بها (٢)

يتبين مما سبق :

وجود حسن الثقة المتبادلة بين كل من السلطان مراد الثانى والسلطان الأشرف برسباى وهو دلالة على تحسن العلاقة بين الدولتين فى تلك الفترة وأعنى بالتحديد سنة ٨٣٧ هـ / ١٤٣٣م.

(٥) السلطان مراد الثانى وجقمق :

إزدادت أواصر الصداقة والمحبة والود على عهد السلطان جقمق ، وكان مجمل تلك العلاقة تبادلا للهدايا والتهانى والتبريكات وغير ذلك من مظاهر المجاملة فى المناسبات المختلفة ، حتى المشورة فى حملات العثمانين ضد الأوربيين . (٣)

هذا وقد أرسل السلطان إلى جقمق خمسين أسيرا وخمسة من الجوارى وكمية كبيرة من الحرير القيم ، وذلك عقب إنتصاره على جيوش لادسلاس Ladislas ملك المجر وقائده

-والثالث (الغوطة ومدينها دمشق) وأهم سواحلها طرابلس الشام والرابع (حمص وحلب وقنسرين) وأهم سواحلها أنطاكية .

الحميرى : الروض المعطار، ص ٣٣٥ .

(١) أسكنها بالآدر الشريفة بالقلعة ، الآدر جمع دار ويقصد بها هنا الحريم السلطانى. وكذلك الآدر من ألقاب الشريف التى تستعمل للإشارة إلى الخوندات (صاحبات العصمة) من علية القوم دون ذكر أسمائهن . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣،ص ٢٧١ ، ٢٧٢ . خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢١ ، ١٢٢.

(٢) خفاجى : الظاهر جقمق وعصره ص ١٥٧ .أ. ماجد : تاريخ المماليك السياسى ص ٣٢٦.

(٣) خفاجى : المصدر السابق ص ١٥٧.

هونيادى Huny adi نائب ترانسلفانيا Transilfania فى موقعة فارنا Farna سنة ٨٤٨ هـ / ١٤٤٤م. (١)

(٦) مصر و الفتح الأكبر سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م:

لقد تمكن السلطان محمد الثانى (الفاتح) بن مراد من إحياء الدولة العثمانية ، وربط أجزائها المتفرقة ، بعد إسترداد كل أملاكها بين البحرين (المتوسط ـ الأسود) وإستأنف سياسة التوسع من جديد ونتج عن ذلك سقوط القسطنطنية سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م وتحويل كنيستها فى أياصوفيا إلى مسجد للمسلمين .(٢)

فيقول (صيرنا معابد الأصنام مساجد لأهل الإسلام) ومنها كانت شهرة محمد الفاتح فى أرجاء البلاد الإسلامية ، ولقد أقسم أن يستولى على روما ويربط حصانه فى كنيسة القديس بطرس ، وهو بذلك قد أحل نفسه محل القياصرة ، بل وأغلق صفحة البيزنطيين من التاريخ نهائيا.(٣)

ومن يومها غير أسمها من القسطنطينية إلى أستانبول (دار الاسلام) .(٤)

ومن ناحية أخرى كان لهذا الفتح الكبير أثر فى أوربا ، إذ بعدها إنطلق العثمانيون بالفتح داخلها وكأنهم يقومون بحركة إسلامية مضادة للحركة الصليبية ، وذلك بغزو الأوربيين فى عقر دارهم ، وكان ذلك منهجهم منذ قيام دولتهم . (٥)

---

(١) طرخان : مصر فى عصر الجراكسة ص ١٦٥.

(٢) موير : تاريخ المماليك فى مصر،ص ١٤٨.

(٣) فريد : الدولة العلية ، ص ٦٢.

(٤) عاشور : أوربا فى مطلع العصور الحديثة ، حـ ١،ص ٦٨٣ .

(٥) دراج : المماليك والفرنجة ، ص ٨٥.

والواقع أن فتح القسطنطينية كان نقطة تحول خطير ليس فقط فى تاريخ العثمانيين ، بل فى تاريخ الشرق والغرب معا.(١)

هذا وقد حلت كلمة ترك عند الأوربيين محل كلمة شرقيين Saraceni وإن كانت هى الأخرى قد إختفت وحل محلها كلمة العثمانيين .(٢)

ولقد أخبر السلطان محمد الفاتح السلطان اينال العلائى فى مصر بهذا الفتح والنصر المبين ، فاحتفلت مصر به إحتفالا رائعا بسقوط مدينة عريقة مثل القسطنطينية فى قبضة العثمانيين ، وعلقت الزينات فى الشوارع والحارات والأسواق وأوقدت الشموع وأنوار المآذن وعمت الأفراح السلطانية القلعة لعدة أيام (٣) وأرسل السلطان إينال للفاتح على هذا الفتح الكبير هدايا ، ليؤكد له أسباب المودة والمحبة ويوثق عرى الإتحاد والصحبة. (٤)

ولعل الفتح العثمانى للقسطنطينية قد أعطاهم الفرصة ولفت أنظارهم إلى السيطرة على بلاد المشرق الإسلامى كله ، حيث أن السلطان محمد الفاتح قد أعد جيشا لغزو بلاد الشرق الإسلامية ، ولكنه توفى قبل أن يهم بذلك ، وإن كان لا يعرف على وجه التحديد أى دولة كان ينوى حربها أولا .(٥)

(١) خفاجى : الظاهر جقمق وعصره ، ص ١٥٨.

(٢) زيادة : نهاية المماليك فى مصر ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٣) فريدون : منشآت السلاطين ، ص ٣٤١ ، ٣٤٢.

(٤) إبن إياس : بدائع الزهور ، سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م ، صفحات لم تنشر حققها : محمد مصطفى ص ١٤.

(٥) إبن إياس : المصدر السابق ص ١٤ ، ١٥.

ويبدو مما سبق : أن الأحداث التى صحبت نمو الدولة العثمانية وإتساعها فى خلال القرنين الثامن والتاسع الهجرى الرابع عشر والخامس عشر الميلادى ، تؤكد على حسن العلاقة ، ولم يظهر فى الأفق ما يدل على إحتمال حدوث صدام بين الدولتين .

ولا أكون مبالغا اذا قلت إن سلاطين المماليك فرحوا للإنتصارات التى حققها العثمانيون على حساب الأوربيين بل إعتبروا أى نصر يحققوه هو نصر للإسلام والمسلمين ، ومن ثم أدرك العثمانيون هذه الحقيقة فدأبوا على إرسال الهدايا والأسرى للقاهرة كلما أحرزوا نصر فى أى موقعة.

ومما يدل على تحسين العلاقة التماس سلاطين العثمانيين الشفاعة لأكثر من أمير مملوكى لجأ إليهم وأرسل السلطان إينال التهانى بالفتح فى قصيدة ممتعة، ورسالة شيقة ، وبقى الوضع على هذا حتى تولى السلطان خشقدم (١) سلطنة المماليك سنة ٨٦٥ هـ /١٤٦١م محدثا نوع ما من التغير فى العلاقة بين الدولتين .

وأرى أن هذا التغير سببه قناعة الدولة العثمانية بما حققته فى منطقة البلقان من فتوحات ، ومن ثم إتجهت للشرق بغية الإستيلاء على الأجزاء التى مازالت خارج حوزتها بآسيا الصغرى والوطن العربى.

(ب) بوادر الإحتكاك العثمانى المملوكى :

ترجع بوادر الإحتكاك بين الدولتين إلى عام ٨٦٠هـ / ١٤٥٦ م ، حيث أن السلطان محمد الفاتح لم يبلغ السلطان إينال العلائى فى مصر بفتح القسطنطينية فحسب ، بل أبلغ شريف

---

(١) السلطان خشقدم : خلف السلطان المؤيد أحمد بن إينال فى حكم مصر فى التاسع عشر من شهر رمضان ، سنة خمسه وستين وثمانمائة ومات فى اليوم العاشر من شهر ربيع سنة أثنين وسبعين وثمانمائة ، فكانت مدته فى الحكم ست سنين ونصف ، وخلفه فى الحكم السلطان الظاهر بلباى. المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ٣٩٦.

مكة به أيضا ، وطلب منه إعلان هذه البشرى فوق منابر مكة وتوزيع الصدقات التى أرسلها له بمناسبة الفتح على الفقراء بالحرمين الشريفين.(١)

وبالطبع لم يرتاح إينال لهذا الإتصال المباشر بشريف مكة ، وإعتبر ذلك إهانة له حيث تخطاه بوصفه صاحب السيادة الفعلية على الحرمين ، ومن ثم لفت نظر الفاتح لتلك الإهانة ، حين تولى الرد عليه نيابة عن شريف مكة ، وأرفق مع رده هذا رد شخصى مع شريف مكة ، الذى طلب بدوره المزيد من الصدقات.(٢)

(ا) الصراع الأسرى العثمانى :

من الغريب أن النزاع الناشب بين أبناء الأسرة العثمانية على حكم البلاد ، كان السبب المباشر فى سوء العلاقات بين العثمانين والمماليك ، حيث سن السلطان محمد الثانى فى : (قانوننامه محمدى)(٣) أنه لكى يستقر الأمن ويسود السلام فى ربوع الدولة : يجب أن يقتل السلاطين إخوانهم الأمراء ليصفوا الجو ويستتب الأمن ، ووافقه علماء الشرع على ذلك وكان للفاتح ولدان أكبرهما (بايزيد) الذى ولد سنة ٨٥١ هـ / ١٤٤٧ م ، وعينه أبوه حاكما على أماسيا ،وثانيهما (جم) الذى إشتهر فى كتب الإفرنج بالبرنس (زيزيم Zizim) وعينه أبوه حاكما على القرمان.(٤)

---

(١) أحمد السيد دراج : جم سلطان والد بلوماسية الدولية ، مقال مستخرج من مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، العدد الثامن سنة ١٩٥٩ م ص ٢٠٣ ، ٢٠٤.

(٢) فريدون : منشآت الملوك والسلاطين ، جـ ٢،ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ (خطاب محمد الفاتح إلى شريف مكة) ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ (جواب شريف مكة على خطاب محمد الثانى).

(٣) قانوننامة (آل عثمان) سنه الفاتح بإستانبول سنة ٨٥٩ هـ / ١٤٥٥ م ، ترجمة : أحمد فؤاد متولى ، نشر الأنجلو المصرية ، طبعة أولى سنة ١٩٧٧ م ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠.

(٤) Şavid Bagsun;Gem Sultan Istanbul; 1946 , p.p. 67 , 77 .

وقد أخفى الصدر الأعظم (قرمانى محمد باشا) موت السلطان الفاتح ، لحين حضور أكبر أولاده بايزيد ، ولكنه لشدة إرتباطه وحبه لأخيه الأصغر ، أرسل إليه يخبره سرا بموت أبيه ، كى يتخذ الترتيبات اللازمة قبل أخيه الأكبر فى إستخلاص عرش البلاد.(١)

ولكن بعد إذاعة الخبر وعلم الجنود الإنكشارية به ، ثاروا على قرمانى باشا وقتلوه وعاثوا فى المدينة فسادا ، وأقاموا إبن بايزيد (كركود) نائبا عاما حتى يحضر أبيه ، وفعلا حضر بايزيد فى الخامس من ربيع الأول سنة ٨٨٦ هـ / الرابع من مايو ١٤٨١ م وبصحبته أربعة آلاف فارس إلى إستانبول بعد مسيرة تسعة أيام ، وفيها قابله أمراء الدولة وأعيانها وبالتحديد عند بوغاز البوسفور وفى أثناء إجتيازه للبوغاز أحاطه الإنكشارية بقواربهم طالبين منه عزل مصطفى باشا عن إستانبول وتعيين إسحاق باشا ضابط الأمن بالمدينة بدله فأجاب طلبهم.(٢)

وعند وصوله إلى السراى الملوكية وجدهم مصطفين أمامها طالبين عفوه فيما وقع منهم من قتل ونهب ، وأن ينعم عليهم بمبلغ من المال سرورا بتعينه - فأجاب كل طلباتهم.(٣)

أما بخصوص الرسول الذى أرسله الوزير قرمانى باشا إلى الأمير جم ، فقد قبض عليه سنان باشا حاكم الأناضول وقتله ، حتى لا يعلم جم بموت أبيه.(٤)

وإذا نظرنا إلى شخصية بايزيد نجده فى بداية حياته ميالا للسلم أكثر منه للحرب ومحبا للعلوم الأدبية مشتغلا بها ، حتى أطلق عليه بايزيد الصوفى ، ولكن أمور الدولة حتمت عليه التفرغ لها والإشتغال بها .(٥)

---

(١) فريد الدولة العلية ، ص ٦٨.

(٢) فريد المرجع السابق ص ٦٨ ، ٦٩.

(٣) فريد : المرجع السابق ص ٦٩.

(٤) يطلق إبن إياس فى كتابه بدائع الزهور وفى سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٢ / ، تحقيق محمد مصطفى فى صفحات لم تنشر : على الأمير جم (الجام أو الجمجمة) ص ١٥ ، ١٦ .

(٥) فريد : الدولة العلية ص ٦٨ ، ٦٩.

وكانت أولى حروبه فى الداخل ضد أخيه جم الذى تمركز فى مدينة بورسة (١) بعد هزيمته لألفى جندى إنكشارى ، وأرسل لأخيه بايزيد يعرض عليه الصلح بشرط تقسيم المملكة بينهما (فيختص جم بولايات أسيا وبايزيد بولايات أوربا ، ولم يقبل بايزيد وأتى إليه بجيش كبير وهزمه يوم ٢٣ جمادى الأولى سنة ٨٨٦ هـ / ٢٠ مايو سنة ١٤٨١م.(٢)

هذا وقد إستقر بايزيد فى مدينة إستانبول عاصمة الدولة .(٣)

(٣) العلاقة بين السلطان محمد الفاتح وإينال العلائى :

كانت السمة المميزة للعلاقات بين محمد الثانى والسلطان جقمق ، الود وتبادل التهانى والتبريكات ، إلى أن إعتدى رئيس كرمان x إبراهيم بك قرمان على الحدود السورية ، وإستولى على كل من أطنة وطرسوس .(٤)

وخلف السلطان أينال العلائى السلطان جقمق عقب وفاته فى سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م ، فأرسل إلى هناك جيشا كبيرا فأعاد الأمن والنظام إلى نصابه ، بعد أن سلم رئيس كرمان له بدون قتال.(٥)

---

(١) سبق الحديث عنها .

(٢) موير : تاريخ المماليك فى مصر ، ص ١٤٧.

(٣) إستانبول : ورد إسمها فى صيغ متعددة ، فتارة تأتى بحرف الميم) إستامبول) وأخرى تأتى بحرف اللام (أسلامبول) ولكن الغالب إستانبول ومعناها مدينة السلام ، وأطلق عليها أحيانا دار الخلافة ودار السعادة وهى كلمة فارسية تعنى العتبة ، ولا يطلق عليها بعد قيام النظام الجمهورى فى تركيا الحديثة سوى إستانبول.

ولقد وجدت فى القرن التاسع عشر الميلادى فى كثير من الفرمانات السلطانية بلفظة (الآستانة) . العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ، مصر سنة ١٣١٢ هـ ص ٤٠.

(٤) طرسوس : هى مدينة من مدن الشام كانت خاضعة مع أطنة للسيادة المملوكية تحتها الحصانة عليها سوران كبيران يفصلهما خندق ، ويجرى الماء حواليها وقد بنى السور أبى مسلم المتعسى التركى بأمر مولاه هارون الرشيد الخليفة العباسى.

الحميرى : الروض المعطار ، ص ٤٠٣.

(٥) يسمى وليم موير رئيس كرمان (بإبراهيم بك كرمان) فى تاريخ المماليك فى مصر ص ١٤٨.

وحدث ما يجمع الدولتين بعد ذلك حين تمرد السلطان حسن الطويل وأراد الإستنجاد بالفرنجة.(١) فطالب العثمانيون المماليك بعقد صلح وتحالف ضده والمتأمل فى ذلك يلمس تحسن العلاقات بين الدولتين.(٢)

كانت إمارة كرمان خاضعة للسيادة المملوكية وتمرد أميرها إبراهيم بك عليهم فجرد إينال العلائى الحملات ضده ، وفى النهاية إضطر إلى طلب الصلح سنة ٨٦٢ هـ / ١٤٥٨ م وإعترف بالسيادة المملوكية .(٣)

وبينما كان السلطان إينال العلائى يحافظ على حدوده بحروبه التأديبية ضد القرمانيين ، كان محمد الثانى يعمل بدوره على تصفية الإمارات الأناضولية الباقية ، حيث إنضمت إليه إمارة كرمان Kerman الخاضعة للسيادة المملوكية - وإمارة آيدين Aydin وهنتشا Hentesha وطرابيزون Trabiwoun (٤) وسينوب Synoub ، وبالتالى لم يتبق أمامه فى خطوة توحيد آسيا الصغرى سوى إمارتى قرمان ودلغادر

---

(١) حسن الطويل : سبق الحديث عنه ثنايا البحث بتفصيل راجع الزركلى : الأعلام جـ ٢ ص ٢٠٤.

(٢) حسن أحمد محمود : إبن إياس (دراسات وبحوث) محاضرة فى الجمعية التاريخية المصرية تحت عنوان : (البعثات الدبلوماسية لدولة سلاطين المماليك كما وصفها إبن إياس) بالإشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الإجتماعية فى الفترة من ١٦ إلى ٢١ ديسمبر ١٩٧٣ م ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥.

(٣) كرمان : أرض كرمان متصلة بأرض فارس وكذلك أرض مكران ، ذكروا أنها ثمانون فرسخا ، وتحدها من ناحية الشرق مكران ومن الغرب فارس ومن الشمال مفازة خرسان وسجستان ومن الجنوب فارس أيضا .
الحميرى : الروض المعطار، ص ٤٩١.

(٤) طرابيزون : ولاية تركية بآسيا يحدها شمالا البحر الأسود وجنوبا أرضروم وسيواس وشرقا أرضروم وقفقاسيا وغربا قسطمونى وهى أرض جبلية عامرة بالأشجار المثمرة تقع على ساحل البحر الأسود وهى ميناء تجارى واسع. ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ١٠، ص ٢٩٢.

(٣) العلاقة بين السلطان محمد الفاتح وخشقدم :

وجدت البابوية فى إبراهيم بك بن قرمان الذى طالت أيامه وزادت عظمته منافسا خطيرا لمحمد الثانى ، فأطلقوا عليه لقب (قرمان العظيم Grand Qaraman) وحثه كل من البابا كالكستس الثالث Calkcts 3 والبابا ريبوس الثانى Raypos 2 على الإشتراك فى آخر مشروعاتهم الصليبية ضد العثمانيين.(١)

وسنحت الفرصة التى طالما تمناها السلطان محمد الثانى حين توفى إبراهيم بك بن قرمان سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٤ م ، الذى حرم أولاده من زوجته الأميرة نفيسة عمة السلطان محمد الثانى من حقهم الشرعي فى عرش الأمارة وآثر إبنه إسحاق بك من زوجة أخرى فطلب هؤلاء الأولاد العون من العثمانيين ، وهنا قرر محمد الثانى إنتزاع إمارة قرمان .(٢) وهو بذلك قد كشف النقاب عن سياسة العثمانيين الحقيقية تجاه المماليك، فبدأت الجفوة والتربص بين العثمانيين والمماليك ، لأن المماليك يعلمون أن الخطوة القادمة هى إلتهام إمارة دلغادر والقضاء على نفوذهم فى آسيا الصغرى. وبالفعل تدخل محمد الفاتح ومد يد المساعدة لأولاد عمته ضد أخيهم إسحاق بك.(٣)

ومن ناحية أخرى أرسل محمد الفاتح قاصدا إلى القاهرة فوصلها يوم ٢٨ رمضان سنة ٨٦٨ هـ / ٤ يونيو سنة ١٤٦٤ م يحمل مكاتبة إلى خشقدم ؛ أغفل فيها ذكر ألقابه السلطانية ، وإستهلها بمخاطبته بلقب المقر الكريم.(٤)

---

(١) Hammer : Op. Cit, 11, p. 369, III, p.p. 69 -71 ; Babingpr : OP Cit, p.p. 19-29.

(٢) أبو المحاسن : منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٧٧ ، ٥٨١.

(٣) أبو المحاسن : المصدر السابق ص ٥٥٨.

(٤) لقب المقر الكريم : دأب المماليك على إستعماله فى مخاطبة العثمانيين بإعتبارهم أقل منهم فى المرتبة. حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ص ٤٨٩ ، ٤٩٤.

هذا بجانب أن القاصد العثمانى إمتنع عن تقبيل الأرض أمام خشقدم حسبما جرت به التقاليد ويعتبر ذلك إشعارا واضحا بتحول ميزان القوى وإنذارا لم يخف أمره (١).

وبالطبع رد خشقدم على هذه الإهانة بالمثل ، فرفض إرسال قاصدا من طرفه ردا على هذه السفارة ، وطلب من القاصد العثمانى مغادرة القاهرة فورا ومعه هدايا محمد الفاتح وخطابا من خشقدم.(٢)

بن ابراهيم قرمان

وفى سنة ٨٦٩ هـ / ١٤٦٥ م أغار محمد الفاتح على إمارة قرمان ولم يتمكن إسحاق بك من الصمود وإنتهى الأمر بإلتجائه إلى حسن الطويل وتنصيب أخيه الأكبر (بير محمد) مكانه على كرسى عرش الولاية.(٣)

بن ابراهيم قرمان

والواقع إن حسن الطويل أمير قبيلة الشاه السوداء قد غدا قوة كبرى فى المنطقة وإمتدت مملكته من إمارة قرمان غربا حتى خرسان شرقا (٤) ، ورأى فى مساعدة إسحاق بك فرصة ذهبية لزيادة رقعة بلاده على حساب الدولتين المماوكية والعثمانية.(٥)

وبالرغم من خشية خشقدم من قوة حسن الطويل المتنامية ، فقد تغاضى مؤقتا عن أطماعه ، وقبل التحالف معه ضد محمد الفاتح الذى يمثل خطرا مزدوجا عليهما ؛ وفعلا تقدم إسحاق بك تسانده قوات حسن الطويل وتمكن من إستعادة بعض المدن القرمانية ؛ وأصبحت إمارة قرمان مسرحا للقتال بين (بير محمد) تسانده القوات العثمانية وأخيه (إسحاق بك) تسانده قوات حسن الطويل ، وإن إستطاع بير محمد من تخليص الإمارة من أخيه.(٦)

---

(١) أبو المحاسن : المصدر السابق ، ص ٤٧٣.

(٢) أبو المحاسن : منتخبات من حوادث الدهور ص ٤٧٣.

(٣) زيادة : نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢٠٢.

(٤) خرسان : هى ولاية فى شمال شرق فارس ، تحتوى على عدة مدن ، بها كثير من الزراعة . بتفصيل راجع : ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ ١٠ ص ١٨٢.

(٥) زيادة :المرجع السابق ، ص ٢٠٣.

(٦) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٣، ص ٥٦ ، ٥٧ ، ٧٢.

وقد قابل محمد الفاتح هذه المناورة بمد أصابعه فى إمارة دلغادر وعاصمتها التى تربطه بأمرائها صلة النسب والقرابة ، وأحس خشقدم بتحول أمير دلغادر (أرسلان بك) عنه نحو العثمانيين ، وخشى طبعا أن ينتهى الأمر بإلتهام الإمارة والقضاء نهائيا على السيادة المملوكية فى آسيا الصغرى ، فنشطت الدبلوماسية المملوكية لمحاولة وقف العمليات العثمانية ضد الإمارة.(١)

وإتجه نظر خشقدم للبندقية المتحفزة للقضاء على الخطر العثمانى والحريصة على مصالحها التجارية ؛ وبالطبع لم يغب هذا الخطر عن بال الفاتح ؛ فإتجه بدوره إلى تأمين بلاده من الجهة الأوربية ، فطلب الصلح مع البنادقة ليتفرغ للماليك.(٢)

وأصبحت الحرب بين الدولتين قاب قوسين أو أدنى وإقتضى الأمر أن يتظاهر خشقدم بالرغبة فى إعادة علاقات الود مع محمد الثانى ، فأرسل قاصده إلى إستانبول سنة ٨٧١ هـ / ١٤٦٥ م ردا على السفارة العثمانية السابقة؛ إلا أن سفيره عاد فى نفس العام ليخبر القاهرة بأن الفاتح مازال على عدائه ، وكان حاملا معه ردا على مكاتبة خشقدم ، فيها إصرار على مخاطبة خشقدم بلقب المقر الكريم.(٣)

وفى نفس الوقت مهد البنادقة المقيمون بالأسكندرية للإتصال بين خشقدم وحكوماتهم وفعلا وصل السفير المملوكى إلى البندقية سنة ٨٧١ هـ / ١٤٦٥ م فى الوقت الذى كانت تجرى فيه مفاوضات الصلح مع السفير العثمانى الموجود بالفعل هناك ووجد البنادقة فى العرض المملوكى ما يحقق مصالحهم ، فبادروا بقطع المفاوضات مع العثمانيين (٤) .

---

(١) زيادة : نهاية السلاطين المماليك، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣.

(٢) عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٦٩ ، ٢٧٠.

(٣) أبو المحاسن : منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٥٨١ ، ٥٨٢.

(٤) أبو المحاسن : المصدر السابق ص ٥٨٣.

وكان ذلك إنذار كاف للفاتح إضطره إلى التريث والتمهل فى إتمام توحيد آسيا الصغرى ، حتى لا يعطى الفرصة للماليك والبنادقة للإطباق عليه ؛ وإنتهى الأمر بتجميد الموقف بين الدولتين.(١)

والواقع إن هذا الموقف أتاح لخشقدم أن يسترد أنفاسه ، فأخذ يدبر الأمر بشأن أرسلان بك أمير دلغادر الذى خرج عن طاعته ، ووجد فى أخيه شاه بوداق الموجود فى مصر منذ زمن الأشرف قايتباى ما يحقق هدفه ؛ فخلع عليه الإمارة (ذولغادر) وغادر مصر بصحبة أحد الفدائيين الذى إنقض على أرسلان وهو يخطو داخل مرعش العاصمة ليؤدى صلاة الجمعة وقتله.(٢)

وعلى الفور تحرك محمد الفاتح وجهز أخاه شاه سوار الموجود فى إستانبول وفعلا تمكن بمساعدته من إعتلاء عرش الإمارة ، ومن ثم إضطر خشقدم مرة أخرى إلى الإتصال بالفاتح راجيا الوصول إلى حل سلمى يحول دون نشوب قتال بين الدولتين وأرسل قاصده إلى أستانبول سنة ٨٧١ هـ / ١٤٦٦ م يطلب من الفاتح عدم التدخل فى شئون دلغادر. (٣)

هذا فى الوقت الذى فكر الفاتح فى سبب للتحرش بخشقدم ، فأرسل قاصده إلى القاهرة يطلب السماح له بعمارة قنوات المياه فى الأراضى المقدسة وعين عرفة بمكة المكرمة. (٤)

وبالطبع رفض خشقدم هذا الطلب ، ليظل محافظا على سيادة دولته تجاه الحرمين الشريفين ، وإضطر خشقدم إلى التدخل الحربى كى يعيد هيبة الدولة المملوكية هناك.(٥)

---

(١) من الواضح دأب البنادقة على السعى تجاه مصالحهم التجارية ، فهم قد قطعوا المفاوضات مع العثمانيين وإتجهوا للماليك لأن فى عرض المماليك ما يحقق مصالحهم ، فضلاً عن كراهيتهم للعثمانيين الذين أزعجوهم.

(٢) مرعش : هى ثغر من ثغور أرمنية بينها وبين زبطرة تسعة فراسخ ، وهى مدينة حصينة بسور من الحجارة ، فتحها خالد بن الوليد رضى الله عنه بعد أن وجه إليها الصحابى أبى عبيدة بن الجراح فأتم فتحها ودخل أهلها فى الإسلام. الحميرى : الروض المعطار، ص ٥٤١.

(٣) أبو المحاسن: منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٤٩٥ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩.

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ١٧ص ٧٣٧.

(٥) أبو المحاسن : منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٤٣ ، ٥٤٨ ، ٦٠٢.

وإندلعت الحرب المعروفة (بحرب شاه سوار) وجرد خشقدم حملة حربية سنة ٨٧١ هـ / ١٤٦٨ م كان مصيرها الفشل ، وتابعها بحملة ثانية سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧م فشلت أيضا.(١) وبعد تولية السلطان قايتباى المحمودى خلفا لخشقدم ، أرسل حملة ثالثة لهناك سنة ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م إنهزمت أيضا ، ثم أردفها بحملة رابعة سنة ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م يقودها الأمير يشبك الظاهرى ، وإستمر بحملته هناك إلى سنة ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م ، وانتهى أمرها بالقبض على شاه سوار فى قلعة زمنطو Tsamandus البيزنطية وتم شنقه على باب زويله.(٢) و تنصيب أخيه شاه بوداق الموالى لمصر على عرش دلغادر.(٣)

وإن تمرد بعد ذلك على مصر وتمكن أخيه بير محمد تولى عرش الإمارة بمساعدة العثمانيين بإعتباره من أقاربهم.؛ وتمرد هو الآخر عليهم فأدى ذلك فى النهاية إلى قبول الدولتان العثمانية والمملوكية سياسة الأمر الواقع وتقاسما النفوذ بالمنطقة.(٤)

ويبدو من خلال السطور الماضية :

أن طلب العثمانيين فى هذا الوقت بالذات المتمثل فى إصلاح مياه مكة المكرمة والمدينة المنورة ليس المقصود منه عمل الخير فحسب وإنما بجانب عمل الخير المعلن ، هناك تطلعات نحو الحجاز والإتصال به مباشرة ، ومحاولة لفت أنظار المسلمين إليهم فى كل مكان.

---

(١) إبن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٥١-٥٧.

(٢) Wiet : Legypte Musulmawe de la congiete Arabe et la congiete Otlanmame T. IV, La Caire, 1938. p., 492.

(٣) أبو المحاسن : منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٦٠٣ ، ٦٠٤.

(٤) إبن إياس : المرجع السابق، جـ ٣ص ٥٦ ، ٥٧ ، ٧٢.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لم يتمكن المماليك من الإنتصار فى الحملة الرابعة على شاه سوار إلا بعد نجاح سفارة الأمير يشباك الظاهرى التى أرسلها إلى حسن الطويل وهدفها إقناعه بالكف عن مساعدة شاه سوار.(١)

ومن ناحية ثالثة كان إتفاق قايتباى ومحمد الثانى على تقاسم النفوذ فى المنطقة من العوامل المساعدة، حيث إستأثر العثمانيون بإمارة قرمان فى مقابل إنفراد المماليك بإمارة دلغادر ، وهو ماذكرته المصادر.(٢)

(٤) العلاقة بين محمد الفاتح وقايتباى :

أتاح إنتصار محمد الفاتح على البنادقة سنة ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م الفرصة أمامه كى يستولى على جزيرة نجريون Negaryon ويقضى على مقاومة القرمانيين ويهزم أسحاق بك أمام مدينة أبلستين Eblestan سنة ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م (٣) وكذلك يهزم حسن الطويل بالقرب من تردجان Terdgan سنة ٨٧٨ هـ / ١٤٧٤ م إلى سنة ٨٨٣ هـ / ١٤٧٩ م ، عاد إلى سياسة المداراة والتظاهر بالعلاقات الودية مع المماليك ، وعقد الصلح معهم.

وفى سنة ٨٤٤ هـ / ١٤٨٠ م عاد الفاتح وتدخل فى شئون دلغادر ، ولم يغيب عن فكر قايتباى ما ينويه ، لأنه كان على يقين أن الأمور مع العثمانيين لم تسو بعد ، ولابد من القتال فى النهاية.(٤)

---

(١) أبو المحاسن : منتخبات من حوادث الدهور، ص ٦٠٣ ، ٦٠٤.

(٢) بتفصيل ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٧٢ ، ٧٣.

(٣) ابلستين : هى مدينة مشهورة فى بلاد الروم ، وكانت جزء من مدينة أبسس مدينة أصحاب الكهف المشهورة . ياقوت الحموى : معجم البلدان، جـ ١، ص ٩٣.

(٤) إبن إياس : بدائع الزهور ، طبعة إستانبول، جـ ٣، ص ٧٦.

ومن ثم كانت رحلته التفتيشية إلى آسيا الصغرى وأعالى الفرات التى هدفت إلى عمارة القلاع والحصون وشحنها بالحاميات العسكرية والأسلحة وإصلاح البريد الذى كان على جانب كبير من الأهمية آنذاك. (١)

وتحقق ظن قايتباى ، فلم تعوذ الحيلة السلطان محمد الفاتح ، فكان لديه رصيد كبير من الأمراء ، فأرسل أحدهم وهو (علاء الدولة) الذى تمكن بمساعدة القوات العثمانية من طرد أخيه شاه بوداق ، والتربع على عرش دلغادر بعد الإستيلاء على عاصمتها مرعش ، والإعتراف بالسيادة العثمانية . (٢)

(جـ) لجوء السلطان جم إلى مصر :

لم يكن السلطان جم هو أول اللاجئين العثمانيين إلى مصر ولا آخرهم ، فقد لجأ إليها الكثير من أمراء قرمان ودلغادر الخارجين على طاعة العثمانيين ، كما شهد بلاط العثمانيين أيضا الكثير من الأمراء المماليك المتمردين على سلاطينهم. (٣)

ولجأ السلطان جم إلى مصر بعد هزيمته من أخيه بايزيد سنة ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م وحل ضيفا على السلطان قايتباى وبرفقته أمه وزوجته وولده ، هاربا من المذبحة التى إعتاد كل سلطان عثمانى جديد تدبيرها للتخلص من المنافسين له . (٤)

---

(١) زيادة : نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢٠٣.

(٢) علاء الدولة : كان أميرا على إمارة دلغادر ، خاضعا لسادة المماليك وإتهمه السلطان سليم بموقفه العدائى من الجيوش العثمانية أثناء مرورها بأراضى الإمارة متجها نحو فارس ، ومن ثم إنحاز بايزيد إلى منافسه على عرش الإمارة شاه سوار ، بل وقرر سليم خلعه بالقوه ، وكان هدفه ضمان ولاء الإمارة له وحفاظه على مؤخرة جيشه إذا هاجم بلاد الشام .

أحمد جودت : تاريخ جودت ، المجلد الأول ، بيروت مطبعة جريدة بيروت سنة ١٨٩٠ ص ٤٧.

(٣) شارل ديل : البندقية جمهورية إستقراطية ، ترجمة : أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق إسكندر : دار المعارف بالقاهرة ، لا توجد سنة للنشر ، ص ١٣٩ ، ١٤٠.

(٤) إبن إياس : بدائع الزهور ، طبعة إستانبول جـ ٣ ص١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠.

بايزيد وجم

ولقد حاول قايتباى فى بادئ الأمر التوفيق بين الأخوين على أساس تقسيم السلطنة بينهما ، لرد السلطان بايزيد بعبارته المشهورة (لا أرحام بين الملوك) ، ومن ثم تحرك قايتباى لإمداد جم بالمال والجنود ، كى يحصل على حقه المسلوب بحد السيف على الرغم من عدم موافقة الأمراء المماليك على هذه السياسة ، خوفا من القتال مع العثمانيين بسبب سوء الحالة وخواء الخزائن من الأموال ؛ (١) إلا أن قايتباى تمادى فى سياسته حيث إحتفل بتجهيز السلطان جم لأداء فريضة الحج مع أسرته سنة ٨٨٦ هـ / ١٤٨٢ م ولم تكن لهذه الأفعال صدى فى نفس بايزيد الثانى سوى إيغار صدره على المماليك وتحريك الرغبة فى الإنتقام منهم. (٢)

وبعد إنتهاء الأمير جم من أداء فريضة الحج لم يعد إلى مصر بل إستقر به المقام فى مدينة حلب (٣) ومنها راسل قاسم بك بن قرمان (آخر من تبقى من الأمراء القرمان) ووعده إذا ساعده فى الحصول على السلطنة ، أن يرد له ملك أجداده ؛ فاغتر قاسم بك بتلك الوعود وجمع أحزابه وسار مع الأمير جم لمحاصرة مدينة قونية عاصمة بلاد القرمان . (٤)

وعندما حاول جم محاصرة قونية لم يستطع دخولها لصمود القائد العثمانى الذى قام بهجوم مضاد على جم وقواته مما إضطره إلى الفرار إلى رهبنة القديس حنا الأورشليمى بجزيرة رودس (٥) يوم ٢٩ يوليو سنة ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢ م وكان قد راسله طالبا مساعدته لتحقيق أغراضه ، فإستقبلوه بكل تجلة وإحترام ، وكان هدف جم من لجوءه إلى جزيرة رودس هو

---

(١) إبن إياس : بدائع الزهور، طبعة إستانبول جـ ٣ ص ١٨٦ ؛ زيادة : نهاية السلاطين ص ٢٠٤.

(٢) ماجد : تاريخ المماليك السياسى، ص ٣٢٨ ؛ ماجد : طومان باى ص ١٠٧.

(٣) حلب : يذكر أبو المحاسن بن تغرى بردى الأتابكى أن حلب الشهباء موفورة المياه كثيرة الزراعة عظيمة المروج أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ، ص ٢٥٠.

(٤) طرخان : مصر فى عصر الجراكسة ، ص ١٦٦.

(٥) جزيرة رودس : جزيرة تقع فى البحر المتوسط على بعد ميل من شاطئ آسيا الصغرى الجنوبى الغربى يفصلها عنه

العبور منها إلى أوربا ومتابعة الحرب ضد أخيه معتمدا على أخواله المجريين ، لأن أمه جيجك Gigck كانت مسيحية تمت بصلة القرابة إلى ملك المجر ما تياس كوفينوس Matheus Corvinus حيث أخذت أسيره لدى العثمانيين عند إجتياح محمد الفاتح لبلاد الصرب في سنة ٨٦٤ هـ / ١٤٥٩ م.(١)

والحقيقة إن جم الذي لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، قد أخطأ في تقدير الأمور ، لأن جزيرة رودس كانت هدفا إستراتجيا للعثمانيين الذين خططوا للإستلاء عليها .(٢)

ولقد فرح دوبسن Dopson رئيس الاسبتارية بالجزيرة بالأمير جم فرحا شديدا ، لأنه وجد فيه وسيلة تمنع العثمانيين من غزو الجزيرة.(٣) وإزاء ذلك إضطر بايزيد الثانى إلى مفاوضة دوبسن والصلح معه ، بل والرضوخ لشروطه ، من أهمها دفع ٤٥ ألف دوكاه سنويا له (٤) في مقابل الإحتفاظ به عنده ومنعه من إستئناف القتال ضده.

هذا وقد رأى دوبسن أن ينقل الأمير جم من الجزيرة إلى جنوب فرنسا وتم بالفعل فى سنة ٨٨٨ هـ / ١٤٨٢ م ، وحدد إقامته هناك في فيلا فرانكا Franka ، أحد بيوت الفرسان ، وإعتبره فى مأمن من أعين العثمانيين ومئوراتهم لإستعادته ؛ وما لبث أن نقله إلى مدينة نيس Neice الفرنسية ، ثم إلى مدينة شيمبرى Chmpry ، وإستمر جم فى التنقل من مكان لأخر لمدة سبع سنوات. (٥) وكان من جملة ألعاب دوبسن مع الأمير جم : أن أوقعه

---

(١) فريد الدولة العلية ص ٦٨.

(٢) إبن إياس : بدائع الزهور ، جـ٣ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦.

(٣) شارل ديل : البندقية جمهورية إستقراطية ، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم وعزت إسكندر دار المعارف بالقاهرة ، بدون ص ١٣٩ ، ١٤٠.

(٤) دوكاه : عملة للتداول فى العصور الوسطى ، كانت ذهبية وفى نهاية الدولة البيزنطية دخلها عنصر النحاس لقلة الذهب ؛ كما ورد ذكره سلفا بالمتن. هذا وقد حاولت الإستدلال على قيمتها حاليا من خلال مكاتب الصرافة ، فلم يستدلوا عليها.

(٥) مدينة نيس الفرنسية : تقع هذه المدينة فى جنوب فرنسا وهى مدينة لطيفة معتدلة الهواء وتطل على البحر المتوسط

فى غرام إبنة كبير حراسه وساوم عليه زوجته جيجك الموجودة فى مصر ، وأخذ منها مبلغ عشرين ألف قطعة ذهبية فى نظير إطلاق سراحه ولم يوفِ بوعده بعد إستلامه الذهب.(١)

ومن خلال السطور الماضية يرى المتأمل الآتى :

أولا : السلطان قايتباى ومعه الأمراء ، حيث شجعوا الأمير جم وهو العنصر الضعيف ضد أخيه بايزيد الثانى وهو العنصر القوى ، الذى تولى السلطنة بفضل مساعدة كبار رجال الدولة ومعهم الجنود الإنكشارية . وإن رأى السلطان قايتباى فى مساعدة الأمير جم مصلحة للدولة المملوكية ، ولكن الأحداث أثبتت عكس ذلك تماما.

ثانيا : يذكر المؤرخ هومر أن السلطان بايزيد الثانى رضخ لشروط دوبسن قائد الإستبارية بجزيرة رودس ولا يستطيع القارئ أن يسلم بصحة هذا الرأى حيث أن السلطان يريد التخلص من أخيه الأمير جم حتى يصفوا له الجو. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، الأمير جم هارب من المذبحة التى إعتادها كل سلطان عثمانى يتولى أمور السلطنة جديدا إتباعا للسنة التى سنها السلطان محمد الثانى (الفاتح) فى بداية عهده وفى سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٩ م سلم دوبسن رئيس الرهبنة الأمير جم إلى البابا (إينوسنت Einocent 8) الثامن الذى إتفق مع السلطان بايزيد الثانى على رعايته مقابل ما كان يدفعه السلطان لرهينة دورس ، فقبل السلطان بايزيد ذلك ، (٢)

-مساعدة فرنسا لإيطاليا فى حربها ضد النمسا وحصولها على الإستقلال ؟بردتها مرة أخرى لفرنسا مع مقاطعة السافو مكافأة لفرنسا سنة ١٨٦٠ م. شارل ديل : المرجع السابق ، ص ١٤٧.

(١) طرخان : مصر فى عصر الجراكسة ، ص ١٦٩ ، ١٧٠

(٢) ورد مايلى بخصوص إقامة الأمير جم عند البابا إنيوسنت الثامن ، فى الصفحات الأولى من الوثائق المودعة فى محفوظات مجلس الشيوخ (السانتو) بالبندقية ، والتى نشرها مؤخرا الأستاذ توفيق إسكندر فى مصر — و الوثيقة عبارة عن تعليمات مؤرخة فى العاشر من سبتمبر سنة ١٤٨٩ م ومرسلة إلى السفير (بيرو ديدو Picro-Diedo) يسترشد بها عند مقابلته للسلطان قايتباى فى مصر ، وجاء فيها الآتى : (وإن سئلت عن الأمير جم أخو بايزيد ، فإنك تجيب أنه موجود فى روما عند الحبر الأعظم ، ويقيم فى قصر قداسته مكرما وبصحبته كثير من الأشراف ، وهو فى راحة كبيرة ، والسبب فى وجوده لدى البابا هو خوفه من وقوعه فى يد غير أمينة تؤذيه وكان فى إمكان الآخرين-

وإستمر الحال حتى وفاة إينوسنت فخلفه البابا (إسكندر بورجيا).(١) وفى هذه الأثناء أغار شارل الثامن ملك فرنسا على إيطاليا لتنفيذ مشروعه الوهمى المتمثل فى إسترداد القسطنطينية ، لكن الإيطاليين أخبروا العثمانيين بذلك المشروع، وبالفعل بدأ شارل الثامن بمحاصرة روما وطلب من الإسكندر تسليمه الأمير جم فسلمه إياه ، وأعقب ذلك وفاة الأمير البائس فى ١٨ جمادى الأولى سنة ٩٠٠ هـ / ٤ فبراير سنة ١٤٩٥ م فى مدينة نابلى الإيطالية ، ونقلت جثته إلى مدينة بورسة العثمانية ، حيث دفن مع أجداده ، بعد أن عاش ٣٦ سنة ١٣ سنة منها على هذه الحالة الشبيهة بالأسر.(٢)

(١) العلاقة بين بايزيد الثانى وقايتباى :

كانت العلاقة بين بايزيد الثانى والسلطان قايتباى طيبة تارة وسيئة تارة أخرى ، ولقد وصلت فى بعض الأحيان لحد الصدام بين الدولتين ، وكان دواعى الصدام بينهما ما أشيع فى القاهرة وعلم به السلطان بايزيد ، أن قايتباى قد راقت فى عينيه الهدية القيمة التى أرسلها أحد ملوك الهند على يد تجارهم إلى السلطان بايزيد ، وإحتفظ بها نائب جدة ثم أحضرها للقاهرة.

-الإستحواذ عليه ، لولا أن قداسته منع حدوث ذلك بما فعل ، وهذا نفس ما تجيب به أم السلطان جم الموجودة هناك ، إذا ما طلبت ذلك أو تصادف أن تحدثت إليها ، إذا هى رغبت الحديث إليك فلا تتحدث معها إلا بإذن من السلطان قايتباى نفسه ، وبدونه لا تتحدث إليها بأى وسيلة من الوسائل) . راجع توفيق إسكندر : تاريخ مصر فى مخطوطات البندقية " وثائق غير منشورة " السلسلة الأولى " المعاهدات" سفارة بيرو ديدو ، ومعاهدة تنازل مصر عن قبرص سنة ١٤٩٠ م . مكتبة ومطبعة المصرى ، القاهرة سنة ١٩٥٦ م ص ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ . هذا وقد نشر النص الأصلى بالإيطالية لهذه التعليمات توفيق إسكندر فى القاهرة تحت عنوان :

La Mission- de picpro Diedo et La cession de chypre. 1490 Le Coire, 1956 . p. p, 1-8.

(١) الأسكندر بورجيا : هو إسكندر السادس ولد فى أسبانيا وتم إنتخابه للمذهب الكاثوليكى سنة ١٤٩١ م. .Weit : p.p, 595 , 596

(٢) طرخان : مصر فى عصر المماليك الجراكسة ، ص ١٦٨ .

وواقع الأمر أن السلطان بايزيد قرر الصدام بالسلطان قايتباى ، وذلك بالتحرش ببقايا الدولة التيمورية فى إيران ، التى تحالف معها قايتباى ، ربما إستشعارا بطموح العثمانيين. (١)

وراح بايزيد يسأل قايتباى عن سبب تحالفه مع الدولة التيمورية ضده ونظرا لمعرفة قايتباى بنية بايزيد الثانى العدائية تجاه المماليك ، فقد توجه على رأس جيش كبير لمقاتلة العثمانيين الذين إستولوا على مدن خاضعة للسيادة المملوكية وأهمها (طرسوس وأطنة) (٢)

وبفضل أحد قواد قايتباى وهو (أزبك بن ططخ) (٣) الذى كان لديه الحنكة العسكرية ، فقد تمكن من وقف تقدم العثمانيين ، وإسترد المدن التى سلبت ، وتكريما لهذا القائد الشجاع أنشأ قايتباى مسجدا بإسمه عرف بمسجد الأزبكية. (٤)

ولم يسكت بايزيد العثمانى على ذلك ، فأرسل جيشا كبيرا بقيادة علـى باشا ، فإستولى ثانية على أطنة وطرسوس ، فإضطر قايتباى إلى تجريد حملة عسكرية ثانية بقيادة القائد الكبير أزبك وتمكن بالفعل من هزيمة على باشا العثمانى هزيمة منكرة ؛ وعلى الرغم من هذا فقد عمل قايتباى على وقف العداء بينه وبين العثمانيين وإستعان فى سبيل ذلك بوساطة باى تونس وإسمه (عثمان) الذى لم تنجح وساطته . (٥)

يرى المتأمل أن : إحتفاظ السلطان قايتباى بالهدية المرسلة من ملك الهند لا يعتبر سببا كافيا يبرر نشوب الحرب بين الدولتين ، ولكن يمكن تفسير تصرف قايتباى هذا بأنه تصرف

---

(١) زيادة : نهاية المماليك ص ٢٠٥.

(٢) طرسوس : هى مدينة حصينة فى بلاد الشام عليها سوران بينهما خندق ويجرى الماء حواليها ، بنى سورها أبى مسلم فرج الخصى التركى بأمر الخليفة هارون الرشيد. الحميرى : الروض المعطار ، ص ٣٧٩ ، ٣٨٠.

(٣) ازبك بن ططخ : هو أمير كبير من أمراء المماليك تمتع بمكانة عظيمة زمن السلطان قايتباى ، حيث كان يصحب السلطان فى معظم رحلاته .

إبن إياس : بدائع الزهور ، حـ ٢ ، ص ١١٣ ، ١٢٨ ، ١٢٩.

(٤) الأزبكية : هى من احد أحياء القاهرة ، باقية للآن على الرغم من زوال هذا المسجد. هذا ويوجد للقائد أزبك بن ططخ سيف ، نقش على وجهه (وقف المقر الأشرفى أزبك ، أمير رأس نوبة النوب ، أعز الله أنصاره على توالى سنيه .

Weit : p. 597.

(٥) ماجد : طومان باى ص ١٠٨.

طبيعى فى ضوء العلاقات العدائية بين الدولتين لا سيما فى الفترة الأخيرة ، وتربص كل منهما بالأخر وتحين الفرص المناسبة للإنقضاض على صاحبه وإزاء ذلك إضطر قايتباى إلى التنازل للعثمانيين عن أدنة وطرسوس ، فكان هذا أول وهن للمماليك أمام العثمانيين ، هذا وقام قايتباى فى نفس الوقت بتحصين البلاد وأنشأ قلعته الشهيرة بالأسكندرية (١) ، (وهى موجودة للآن) وذلك خوفا من حدوث غزو مفاجئ . (٢)

(٣) الصراع العثمانى المملوكى :

هناك عوامل أساسية أججت الصراع بين الدولتين ، من أهمها الآتى :

- معاونة السلطان قايتباى للأمير جم ضد أخيه بايزيد ، فكان أول صدام مسلح بينهما.
- رفض قايتباى طلب بايزيد الثانى السماح بإصلاح قنوات المياه فى الحرمين الشريفين.
- الاستيلاء على هدية ملك الهند المرسلة إلى بايزيد التى ضمت خنجرا ثمينا (وإن أرسلت فيما بعد له) .
- محاولة إنتزاع الحرمين الشريفين والأقصى من سيطرة المماليك. (٣)
- محاولة العثمانيين توحيد راية المسلمين تحت قيادتهم لتكون لهم الصدارة.

---

(١) الأسكندرية : بناها الأسكندر المقدونى وكانت على نمط الزوايا القائمة المستقيمة بعد أن رسمها المهندس (دنيقراطس) من جزيرة رودس ووضع أساسها يوم الحادى والعشرين من شهر يناير سنة ٣٣١ ق.م ، إسماعيل مظهر : مصر فى قيصرية الأسكندر المقدونى سنة ١٩٣٧ م مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة ، ص ٢٣ بتفصيل راجع : المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٤٤ - ٢٧٢ ؛ أبى المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٨٠٢ ، ١٨٠٣ ؛ على مبارك باشا فى خططه الجديدة حيث أفرد لها جـ ٧ ؛ مجلة الكاتب : عدد يناير سنة ١٩٤٧ ، ص ٣٧٩ ، ٣٩٢.

(٢) ماجد : طومان باى ص ١٠٩.

(٣) تم إستنباط هذه النقاط من خلال كتاب إبن إياس : بدائع الزهور أهمها جـ ٣ ، ص ١٩٧ ، ١٩٨.

هذا وقد إتخذ بايزيد موقفا عدائيا صريحا من المماليك عندما وصلته شكاية علاء الدولة أمير دلغادر ، من تصرفات قايتباى تجاهه ، فأمده فورا بقوة حربية كبيرة هاجم بها ملاطية الخاضعة لسيادة المماليك سنة ٨٨٧ هـ / ١٤٨١ م . (١)

وبالطبع لم يقف قايتباى مكتوف الأيدى إزاء الهجوم على ملاطية ، فجهز الجنود لرد ذلك العدوان ، وتحركت بالفعل حملة مملوكية كبيرة ، انتصرت على علاء الدولة ومن حالفه من العثمانيين ، وعادت الحملة وفى ركابها عدد كبير من صناجق (أعلام) العثمانيين مأسورين بعد أن ردت العدوان. (٢)

وهكذا إندلعت أول حرب عثمانية مملوكية إنتهت هذه الحرب فى سنة ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م بإنتصار المماليك إنتصارا لم يتوقعه المعاصرون ، وكان موضوع الأمير جم بلا شك أحد العوامل الرئيسية فى هزائم العثمانيين المتتالية ، لأن بايزيد كان يحارب والخوف يتملكه على عرش الدولة فكان له أسوأ الأثر على العثمانيين . (٣)

وعلى الرغم من إنتصار المماليك على العثمانيين فإن قايتباى كان يؤثر السلام والمحبة والصداقة ، ففى سنة ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م أرسل أميرا داهية تمكن من عقد الصلح مع العثمانيين ولم ينس قايتباى أن يرسل مع قاصده الهدية التى أرسلها ملك الهند ، وأرفق برده هذا إعتذارا عما وقع بشأنها.

ولكن تأتى الرياح بغير ما تشتهى السفن ، حيث إستقبل بايزيد قاصد قايتباى أسوأ إستقبال ، ورفض التصافى والود وأجاب بإرسال جيش لغزو أطراف دولة المماليك ، فلم ير قايتباى بدا من إستئناف الحرب ضده. (٤)

---

(١) ماجد : طومان باى ، ص ١٠٩ ، ١١٠.

(٢) طرخان : مصر فى عصر الجراكسة ، ص ١٦٩.

(٣) زيادة : نهاية السلاطين ، ص ٢٠٥ – ٢٠٩.

(٤) إبن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٤٩ ، ٥٠.

ومن ثم بدأت حملات القائد أزبك بن ططخ تتوالى من عام ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥م وتمكن القائد أزبك فى حملته الأولى من أسر عدد كبير من العثمانيين من بينهم القائد العثمانى (أحمد بن هرسك) ، ولم يسكت السلطان بايزيد بالطبع على هذه الهزيمة الشنعاء ، بل زحف بجيش يفوق جيشه السابق عددا وعدة ، واستعد قايتباى بحملة كبرى بلغت نفقاتها مليون دينار ، وتحركت الحملة بقيادة القائد المحنك أزبك فى سنة ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م. (١)

هذا وقد ظل قايتباى يتشبث بأهداب السلام ، فتقدم بخطوة دبلوماسية جريئة فأطلق سراح كل الأسرى العثمانيين وأعادهم لبلادهم.(٢)

ومن ناحية أخرى حاول قايتباى أن يتسلم الأمير جم قبل وفاته من ملك فرنسا ليكون أداة للضغط على بايزيد لكنه فشل فى مسعاه.(٣)

ولم تجد هذه الدبلوماسية حيث تمسك بايزيد بالحرب وزاد من قواته ، وأرسل أسطول بحرى إقترب من الأسكندرونة (٤) حتى يقطع الطريق على حملة أزبك القادمة من مصر ، ولكن فشلت المحاولات العثمانية فى الحصول على موافقة البندقية لتموين أسطولهم من فاماجوستا Fama Gosta (الماغوصة) فى جزيرة قبرص . (٥)

(١) بلغ مجموع ما أنفقه السلطان قايتباى على الحملات التى أرسلها ضد التركمان والعثمانيين من عام ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م إلى عام ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م حوالى ثلاثة ملايين وسبعمائة وسبعين ألف دينار.

السيوطى : تاريخ الأشرف قايتباى ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٦١ تاريخ ورقة ١٦ أ ، ١٥ ب.

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ ٢ ص ٥٠ ، ٥١.

(٣) زيادة : نهاية السلاطين ، ص ٢٠٦.

(٤) الأسكندرونة : بعد الدال راء وواو ساكنة ونون ، هى مدينة فى شرقى أنطاكية ، تقع على ساحل بحر الشام ، بينها وبين بغراس أربعة فراسخ (الفرسخ ٨.١ كيلومتر) وبينهما وبين أنطاكية ثمانية فراسخ ، هذا ووجدت الإسكندرونة فى بعض تواريخ الشام أنها تقع بين مدينة عكا ومدينة صور .

ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ١ص ٢٣٤ . وراجع جـ ١ص ٢٥٥ ؛ بتفصيل راجع : الحميرى ، الروض المعطار ، ص ٥٦.

(٥) Weit : p.p, 601 , 602.

هذا إلى جانب إجتياح عاصفة مفاجئة للأسطول العثمانى فغرقت معظم سفنه ، ومن ثم نجح أزبك فى الوصول إلى أذنة والإستيلاء عليها بعد حصارها لمدة ثلاثة شهور ، وغنم وأسر الكثير من العثمانيين ، فإحتفلت القاهرة سبعة أيام متوالية إبتهاجا بهذا النصر الكبير. (١)

وعاد أزبك وفى ركابه عدد كبير من الأسرى العثمانيين إلى القاهرة ، وقد أثر الكثير منهم الدخول فى خدمة السلطنة الظافرة ، وأنزلهم قايتباى بديوانه ورفع من شأنهم ، وقد إستمرت هذه الطائفة فى خدمة المماليك حتى نهاية عصرهم وعرفت بإسم (العثمانية). (٢)

وعلى الرغم من هذا فلم يكف بايزيد عن الحرب ، وأرسل حملة ثانية إستولت على مدينة طرسوس وسيس وغيرها من المدن الخاضعة لسلطنة المماليك .

ولكن بسبب سوء الحالة الإقتصادية فى مصر وثورة المماليك الجلبان (٣)

أظهر قايتباى ميله إلى الصلح ، لا سيما بعد وصول (داود باشا) رسول بايزيد إلى القاهرة فى مايو ٨٩٥ هـ / ١٤٨٩ م ، وتم إبرام الصلح ونص على إطلاق سراح الأسرى المماليك وتسليم مفاتيح القلاع التى إستولى عليها العثمانيون ، ووافق بايزيد على ذلك . (٤)

ولكن دلت الأحداث التى أعقبت حديث الصلح أن العثمانيين ما قصدوا الصلح لذاته بل قصدوا الخديعة ، حيث تجمعت الجيوش العثمانية فى أواخر سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٨٩ م بالقرب من مدينة قيصرية بآسيا الصغرى ، ومن ثم إضطر قايتباى إلى إرسال حملة قوية بقيادة

---

(١) إبن إياس : المصدر المذكور جـ ٢ ، ص ٢٦٧.

(٢) زيادة : نهاية السلاطين ص ٢٠٧ ، ٢٠٨.

(٣) المماليك الجلبان : الجلبان أو الأجلاب / هم الذين كانوا يجلبون إلى السلطنة المملوكية كبار السن ، فكان من الصعب ترويضهم ، فكثرت ثوراتهم . إبن زنبل الرمال : آخرة المماليك ص ٢٦. هذا ويذكر الدكتور أحمد عبد الحميد خفاجى أن هؤلاء الجلبان كان من العسير عليهم أن يتشربوا روح النظام والولاء لأساتذتهم ، ومن ثم أصبحوا خطرا على السلطان نفسه ، فتعددت حركاتهم الثورية ، إلى حد أن السلاطين أصبحوا ألعوبة فى أيديهم وتسببوا فى إثارة الفتن والقلاقل ، بل ثاروا سبع مرات فى عهد السلطان الأشرف إينال. بتفصيل راجع : حركة المماليك الأجلاب فى عهد الأشرف إينال (الأسباب والنتائج) . أحمد عبد الحميد خفاجى بحث منشور بكلية الآداب جامعة أسيوط سنة ١٩٧٥.

(٤) إبن إياس : المصدر السابق جـ ٢ ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩.

القائد الكبير أزبك وهى آخر الحملات التى أرسلها قايتباى ، ومع ثقة السلطان المملوكى من عزم بايزيد على القتال ، فقد أوعز لقائده بجس النبض بشأن الصلح (١) وبالفعل قام أزبك بإرسال قائد من عنده للمعسكر العثمانى ، ولما أستبطأ عودته تحرك بجيشه وحمل على العثمانيين حملة عنيفة فأجلاهم عن قلعة كولك Kolk ,إستولى على قلعة كوارة Kwara ، وعاد بعد هذا النصر إلى القاهرة سنة ٨٩٦ هـ / ١٤٩٠ م ، وهو النصر الذى يعتبر الثالث على يديه ضد العثمانيين فخلع قايتباى الأوسمة العظيمة . (٢)

ولم يكف قايتباى عن الإستعداد للحرب بسبب علمه بتصميم بايزيد على الإنتقام وقال لمستشاريه (إن إبن عثمان ليس براجع عن محاربة مصر ، وإن أحوال البلاد الحلبية قد فسدت وآلت للخراب ، والتجار منعوا ما يجلب لمصر من أصناف التجارة ، والمماليك الجلبان يطلبون منى النفقة ، وإن لم أنفق عليهم نهبوا مصر وبيوتها وأحرقوها ، وأقسم بخلو الخزائن . (٣) وفى تلك الإثناء قدم رسول عثمانى بصحبته الرسول المملوكى الذى أرسله القائد أزبك من قبل ، وكان معهم مفاتيح القلاع التى إستولى عليها بايزيد من قبل ، فأكرمه قايتباى وأحسن إستقباله وسرعان ما أطلق الأسرى العثمانيين ومعهم القائد (إسكندر) الذى أرسله علاء الدولة أسيرا إلى قايتباى ، وتم الصلح بين الدولتين سنة ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م وتبادل الطرفان الهدايا والمجاملات ، وإنتهت حالة الحرب بين الدولتين وإستمر الوضع هادئا حتى وفاة السلطان بايزيد الثانى سنة ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م .(٤)

(١) Weit : p.p, 602 , 603.

(٢) قلعتى كولك وكوارة : قلعتان عظيمتان كانتا كحائط ضد العثمانيين عن المماليك و نفوذهم فى إمارتى قرمان ودلغادر فكان نصر القائد أزبك وإستيلاءه عليهما نصر كبير للمماليك على العثمانيين .

زيادة : نهاية السلاطين ، ص ٢٠٧.

(٣) إبن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩.

(٤) إبن إياس : المصدر السابق جـ ٢ ، ص ٢٦٩.

مما سبق يتبين : أن سوء العلاقة بين الدولتين كان سببه الوحيد : هو تطلع العثمانيين لزعامة العالم الإسلامي ولا يكون إلا عن طريق إستخلاص تلك الزعامة من يد المماليك ، فكان الصدام.

كان فى البداية خفياً وتمثل فى مساعدة كل منهما لزعيمى قرمان ودلغادر - وما لبث أن طفا على السطح سنة ٨٩٠ هـ / ١٤٨٩ م عندما إستولى السلطان العثمانى بايزيد على بعض القلاع المشمولة بحماية المماليك فى أسيا الصغرى ، وهو أول صدام مباشر بينهما ، ثم تدخل داود باشا وزير العثمانيين وأشار على قايتباى بأن يرسل مبعوثه الخاص للمصالحة ، لكنه إشترط رد القلاع وإطلاق سراح الأسرى .

ولكن الغريب حقاً أن المماليك أسرفوا فى الحفاوة برسل أهل عثمان فلما قابلوا به سفراء آخرين ، ولعل السبب فى ذلك هو : **فزع مملوكى من قوة آل عثمان المتعاظمة يقابله** ضعف دولتهم المتهالكة ومداراة الضعف بهذا الملق الظاهر .

ونخرج من هذا بإنطباع هو : أن التحول من الصداقة إلى العداوة ومن التحالف إلى الحرب كان تحولا مفاجئا وليست له جذور قديمة أو مقدمات فى ظاهر الأمر.

الفصل الثالث

الخلاف العثمانى المملوكى

أولا : توتر العلاقات العثمانية المملوكية سنة ٨٦٤هـ / ١٤٦١م.

(١) العلاقات فى عام ٨٩٥ هـ / ١٤٩٢ م

(٢) السلطان قانصوه الغورى

ثانيا : العثمانيون وفتح الشام.

(١) تحرك الجيش المملوكى إلى الشام (٢) الأوضاع العثمانية سنة٩٢١هـ / ١٥١٦ م

(٣) الموقف اللملوكى قبيل المعركة (٤) معركة مرج دابق سنة٩٢١هـ / ١٥١٦ م

ثالثا : العثمانيون وفتح مصر.

(أ) التعريف بالأشرف طومان باى

(١) طومان باى نائب الغيبة. (٢) الموقف بمصر بعد مرج دابق.

(٣) سلطنة طومان باى. (٤) واقعة غزة.

(ب) واقعة الريدانية سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٧ م

(١) الإستعداد للقتال. (٢) الزحف العثمانى تجاه القاهرة.

(٣) إندلاع الريدانية. (٤) دخول العثمانين القاهرة.

رابعا : طومان باى والمقاومة المصرية.

(١) واقعة الصليبة. (٢) واقعة أطفيح ونتائجها.

(٣) مساعى الصلح بين الطرفين.

(أ) فشل محاولة السلطان سليم فى عبور النيل.

(١) عبور النيل وموقعة الجيزة.

(٢) تدخل عرب غزالة إلى جانب العثمانين.

(٣) واقعة وردان.

خامسا : القبض على طومان باى وإخفاق المقاومة.

(١) شنق طومان باى على باب زويلة.

(٢) مصر ولاية عثمانية.

(٣) عوامل عجلت بنهاية المماليك الجراكسة.

****

الخلاف العثمانى المملوكى

كيف كانت العلاقة بين المماليك والعثمانين التى إنتهت بالحرب بينهما ؟

حين نشأت الدولة العثمانية ، لم يكن وجودها يسترعى إنتباه دولة المماليك ، وسرعان ما أتسعت وابتلعت آسيا الصغرى ، فاقتربت حدودها مع المماليك فى أعالى بلاد الشام فكان الاحتكاك بينهما. وقد مرت علاقة الدولتين بمرحلتين:

الأولى : مرحلة التحالف والتعاون ، ومبعث ذلك الأخطار التى تعرض لها الشرق الاسلامى التى تمثلت فى تيمورلنك.[١] هذا من ناحية ومن ناحية أخرى خطر البرتغاليين إعادة التجارة إلى رأس الرجاء الصالح ، فساعد بايزيد الغورى بأخشاب لبناء أسطول مملوكى ، كذلك يلاحظ فى سبيل الإتجاه الودى تلقى القاهرة أنباء إنتصار العثمانيين فى أوربا بإبتهاج وسرور.[٢]

الثانية : مرحلة الإختلاف والحرب ومبعث ذلك النزاع على الحدود ولجوء الأمير جم لمصر ، بالإضافة لعامل الغيرة بعد إستيلاء المماليك على قبرص وإن كان الخلاف لم يتطور فى جميع مراحله إلى نزاع عنيف ، وكانت زروة الخلاف بين الدولتين فى عهد السلطان سليم والسلطان الغورى حين نشبت الحرب بينهما وإنتهت بالقضاء على الدولة المملوكية قضاءا مبرما كما ستأتى تفصيله [٣].

أولا : توتر العلاقات العثمانية المملوكية (٨٦٤ هـ/١٤٦١م).

أرسل السلطان محمد الفاتح رسالة شخصية إلى السلطان خشقدم لا ترقى فى التخاطب إلى المستوى المطلوب ، فضلا عن رفض رسوله تقبيل الأرض بين يدى خشقدم كما جرت العادة وإن أدى المراسم المتبعة ، وقدم له خشقدم الهدايا ليحملها للباب العالى ، رفض قبولها بدعوى أن مقام السلطنة يتطلب أن ترسل الهدايا مع بعث خاص.[٤]

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لم يرضى خشقدم عن تعين والى قرمان حيث حدث فى تعينة خلاف مساعدة الفاتح لابن أميرة عثمانية لولاية قرمان وخشقدم يساعد إبنا أخر من

---

(١) Wiet : OP. Cit., P. 603

(٢) وليم موير : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ص ١٥٨ ، ١٥٩.

(٣) فى معارك أهمها مرج دابق بالشام والريدانية بالقاهرة.

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٣٨٦.

إصلاح مجارى المياه فى دروب مكة ورفضه مساهمة العثمانيين فى رفض الإصلاح.

إحتجاز المماليك فى مصر لهدية السلطان بايزيد المرسلة إليه من بلاد الهند ، حيث كان فيها خنجرا ثمينا من الماس.(٢)

(١) العلاقات فى عام ٨٩٥ هـ / ١٤٩٢ م :

طلب بايزيد الثانى من قيتباى إرسال والدة السلطان جم (جيجك خاتون) مع إبنتيه إلى إستانبول ولم يستجب قيتباى لهذا الطلب، فأضرمت نارأول حرب عثمانية مملوكية .(٣)

والواقع أن المماليك لم يعتدوا على العثمانين ، ولكن قام العثمانيون بإسقاط تحكيمات المماليك فى بوغاز (كلك) يقودهم (قرة نور محمد باشا) الذى دخل إمارة رمضان (جوقورأوفا) فى

---

(١) عاشور : الأيوبيين والمماليك فى مصر والشام ، ص ٣٢٢.

(٢) وصلت هذه الهدية إلى السلطان بايزيد ولكن بعد فترة من الزمن . موير : المرجع السابق ص ١٥٩ ، ١٦٠.

(٣) طرخان : مصر فى عصر المماليك الجراكسة ، ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨. يبدو فى ظاهر الأمر أن الإمبراطوريتين بذلتا جهديهما للحيلولة دون إندلاع الحرب بينهما وحصرها على الأكثر فى أضيق نطاق ، وعدم تصعيدها إلى حرب شاملة ، وبالفعل لم تذكر المصادر تواجد السلطان العثمانى أو المملوكى أبدا فى ساحة المعارك ، حيث كان قصد العثمانيين إن أمكن حيازة إمارة رمضان وكذلك قصد المماليك حيازة إمارة دلقادر (ماراش) وعدم التقدم خطوة بعدها.

شهر مايو سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م وذلك بعد مضى أربع سنوات على وفاة السلطان محمد الفاتح ، وأعلن رمضان أوغلو تبعيته للعثمانيين فى إستانبول وخروجه على المماليك.(٤)

ورد المماليك على ذلك بدخولهم إمارة دلغادر .(١) هذا وقد أخرج أمير لواء (يعقوب بك المماليك من دلغار وتمركز أمام القلعة المملوكية ملاطية ، ثم جاء المدد بقيادة الأمير الكبير أزبك الذى أباد القوات العثمانية بقيادة يعقوب بك ودخل أمارة رمضان وأخرج العثمانيين منها وإستمرت الحرب كذلك بين شد وجذب وهزيمة ونصر إلى سنة ٩٠٠هـ / ١٤٨٥ م وسنة ٩٠١ هـ / ١٤٨٦ م ، حين بدأت غارة العثمانيين على الحدود الشامية بدون سابق إنذار وإستولوا على (طرسوس وأطنة) الشاميتين.(٢)

وإنتهت هذه الحرب بإحراز المماليك للنصر بالقرب من أطنة ، وحمل المصريون عددا كبيرا من الأسرى ورؤس القتلى ودخلوا القاهرة ظافرين.(٣)

وما لبثت الحرب أن أندلعت مرة ثانية بعد الخلاف بين زعيم دلغادر بوداق وأخيه شاه سوار الذى يؤيده العثمانيين ، وقام المماليك بإرسال عدة حملات ضد سوار ونجحت الأخيرة بقيادة الأمير يشبك فى إنزال الهزيمة به والإستيلاء على قاعة عينتاب وأدنة وطرسوس ، واخيرا تم القبض على شاه سوار وأرسل إلى القاهرة بعد تمكين أخيه بوادق من الإمارة.(٤)

وأمر قايتباى بشنق شاه سوار على باب زويله، وعادت حملة يشبك إلى القاهرة وإستقبلت إستقبالا حافلا ، وكان يشبك يحمل أعلام الأعداء منكسة ويجر وراءه الكثير من الأسرى مقيدين بالسلاسل.

---

(٤) أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، جـ ١ ، ص ١٨٩.

(١) كان دلغادر أوغلو علاء الدولة بورقورد أبالزوجة السلطان بايزيد الثانى ، وكذلك أب لوالدة الأمير (شهر ذاده) ياوز سليم . أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية جـ ١ ، ص ١٩٠.

(٢) موير : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ص ١٦٠ ، ١٦١.

(٣) أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، جـ ١ ص ١٩٠ ، ١٩١.

(٤) Wiet : L'Egypte Arabe, P. P. 590-594.

ومع ذلك كان قايتباى خائفا من بطش وإنتقام بايزيد ، ومبعث ذلك مطالب المماليك التى لا تنتهى وخواء الخزائن ، وعمل على الصلح فأرسل وفد مملوكى يصحبه الأسرى العثمانيين والهدايا الثمينة ، فعجل بايزيد بالصلح لأنه كان يتطلع إلى فتح بلغراد آنذاك ، وبالتالى تأخرت الحرب الفاصلة قليلا.(١) وعقد الصلح بالفعل عام ٨٩٧ هـ ١٤٩١ م. (٢)

(٢) السلطان قانصوه الغورى : (٣)

عرض عليه الأمراء المماليك العرش فرفضه أول الأمر ، والغريب أن الأمراء فى هذه المرة كانوا يتهربون من هذا المنصب الذى غدا ملطخا بالدماء ، ثم إتفقت كلمتهم أخيرا على تولية الغورى المنصب قهرا ، لا لأنه أقدرهم وأكبرهم سنا ولكن رأوه لين عريكة سهل الإزاحة فى أى وقت يريدون.(٤)

وإجتمع الأمراء وبايعوه بدون علمه وأبلغوه بتلك المبايعة ، ذهل ورفض قائلا لهم (لن أخالف لكم أمرا ، وإنما أرانى غير لائق بهذا المنصب ، الذى لا أستحق ولم أفكر فيه وكذلك لأنى لم أعتاد معاناة الحكام والأمر والنهى)(٥) فأجابوا أن صدق نيته وإخلاصه وثقة الناس فيه كافية لاستحقاقه . وأقسم له الأمراء على الإخلاص فى خدمته وعدم إثارة المشاكل حوله

---

(١) عاشور : الأيوبين والمماليك فى مصر والشام ، ص ٣٢٠.

(٢) فريد : الدولة العلية ، ص ٧٠.

(٣) قانصوه الغورى : هو مملوك جركس من مماليك السلطان قايتباى ، كان خادما له كغلام وتابعا له كشاب ، وهو رجلا تقيا عفيفا محترما مخلصا مخلصا ، تجاوز الأربعين من عمره قبل أن يصير رئيسا لعشرة ، وترقى بسرعة فوصل لقيادة طرسوس وملاطية وحلب ، ثم صار أمير لألف ، ثم كبير الأمناء ثم رئيس الوزراء. المقريزى جـ ١ ص ٤٩ ، زيدان : تاريخ مصر الحديث ، جـ ١ ، ص ٣٨٨.

(٤) طرخان : مصر فى عصر المماليك الجراكسة ، ص ٤٨.

(٥) زيدان : تاريخ مصر الحديث، جـ ١، ص ٣٧٨.

فحصل على كل مايريد. (١)

وصرف الأموال على الإصلاحات العامة ، لا سيما طرق الحجاج ومكة والمدينة.(٢)

وتميزت مجالس الغورى بالأدباء والشعراء والعلماء والقصاصين. (٣) ولم يحدث في أوائل حكمه قلاقل ذات أهمية بإستثناء ثورات العربان.(٤)

---

(٦) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٤ (نشر محمد مصطفى).

(٧) الغورية نسبت للغورى : وهى حى مشهور بالقاهرة يقع بين باب زويلة والأزهر وتجارته دائمة. ابن زنبل : أخرة المماليك ، ص ٣٧.

(١) قام السلطان الغورى بفرض ضرائب إجبارية على كل أنواع الممتلكات ، حتى أملاك الوقف ، وإستخدم العنف فى سبيل جبايتها ، وجمع عشرة أشهر مقدما دفعة واحدة (عاشور : المماليكى ص ١٨٦).

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٨٩ ، ٩٠.

(٣) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٩٤ ، ٩٥ ، موير : تاريخ المماليك فى مصر ، ص ١٦٧ ، ١٦٨.

(٤) العربان أو العرب : سكنوا مصر منذ الفتوحات الإسلامية الأولى ، عندما نقل إليها الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك بيوتا من عرب (قيس) بلغوا ثلاثة آلاف بيت وإنضم إليهم عرب البادية وتجمعوا فى الحوفين الشرقى والغربى فغلب عليهم إسم الحوفية أو الأصواف، لا سيما منطقة بلبيس التى وجد فيها ألف وجمسمائة بيت من قيس. هذا وقد أضعف الخليفة العباسى المعتصم نفوذهم لما إعتمد على الأتراك فقط وأسقط أرزاقهم من الديون (السجلات العسكرية) حتى قال المقريزى (لقد أنقرضت دولتهم من معه) ومن ثم أصبحوا يعرفون بالعربان على وجه الخصوص وهى تعنى (غير النظاميين ، فكانوا عناصر قلق فى المناطق التى سكنوها. المقريزى : الخطط ص ١٢٨ ، ١٢٩. الطبرى : تاريخ الأمم ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة جـ ١ ، ص ٦٢.

والجلبان ، أما الخطر الكبير الذى هدد مصالح البلاد فكان إكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح (٥) عام ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م وسرعان ماثبت البرتغاليون أقدامهم فى كلكتا بالهند ، فهددوا بذلك مركز مصر الإقتصادى ، وكان ذلك إيذانا بإنتقال زمام التجارة من إيدى المماليك إلى أيدى البرتغاليين .وإزاء هذا الخطر الجسيم ، لجأ الغورى أولا إلى الأساليب السياسية فوجه نداء للبابا يطالبه بمنع البرتغاليين والأسبان التعرض بسوء للمسلمين شرقا وغربا، ولم يحدث جديد فإضطر إلى تشييد أسطول بحرى جديد فى البحر الأحمر ، وفى الصراع الذى نشب بين المماليك والبرتغالين فى البحر العربى غربى الهند إنتصر المماليك أولا ثم إنهزموا فى معركة ديو البحرية ٩١٥ هـ ١٥٠٩ م وتحطم أسطولهم.(١)

وفى الواقع أدت المعركة لضياع مكانة مصر التجارية بين الشرق والغرب ، الأمر الذى تسبب فى ذبول دولة المماليك سريعا.

وثمة خطر خارجى آخر تفاقم فى أواخر عهد الغورى وترتب عليه سقوط سلطنة المماليك نفسها ، أعنى بهذا الخطر (بنى عثمان).(٢)

فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى وصل العثمانيون فى توسعهم إلى مفترق الطرق فكان عليهم أن يختاروا بين أمرين :

إما الإستمرار فى التوسع داخل أوربا وإما التوسع شرقا على حساب الدولة الإسلامية وكان أن إختار سليم الإتجاه الأخير.(٣)

وتمكن سليم من إلحاق الهزيمة بالصفويين ٩٢٠ هـ ١٥١٤ م وإستولى على الجزيرة والموصل وديار بكر ، فتاخم أطراف دولة المماليك بشمال الشام والعراق ، فإستاء الغورى

---

(٥) سماه الملك يوحنا ملك البرتغال بهذا الإسم ، حيث كان يسمى رأس العواصف ، فأطلق عليه هذا الإسم رجاء أن يكون صالحا .

(١) Wiet : Op . Cit P. 616-617.

(٢) عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ١٨٧.

وأمراؤه من ذلك وخشوا من سطوته وشدة بأسه ولم يبدد مخاوف الغورى ما تردد من أخبار فحواها إنتصار الصفويين على العثمانيين لأنه أدرك أن بقاء دولته رهينا بإستمرار الصراع بين الدولتين.(٤) ومن ثم صمم على الخروج إلى الشام وقال قولته المشهورة (حتى نرى ما يكون من أخر الصوفى وإبن عثمان . فإن من إنتصر منهما على غريمه لابد أن يزحف على بلادنا ....).(١)

ولقد توفرت أسباب النزاع بين الغورى وسليم **أهمها** الخلاف الحدودى بين الدولتين فحسم سليم هذا النزاع بالإستيلاء على مناطق الحدود ، هذا ودأب الغورى على إيواء الأمراء العثمانيين الفارين من وجه سليم ، وإتخاذهم أداة لإثارة المتاعب والقلاقل فى الدولة العثمانية.(٢)

فضلا عن عدم وقوف الغورى من الصراع الصفوى العثمانى موقف الحياد. والحقيقة أن سليم بعد أن قضى على الصفويين عزم على الانتقام من المماليك وأدى إستيلاؤه على المناطق المتاخمة للمماليك إلى تهيئة المزيد من الفوضى لوقوع الصدام بين الدولتين ، لاسيما بعد ما أصبحت دولة المماليك مواجهة للدولة العثمانية ، فأصبح الخطر وشيكا.(٣)

---

(٣) إبن إياس : بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠.

(٤) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ١٩ ، ٢٠.

(١) إبن إياس : بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٣٩٩ ، ٤٠٠.

(٢) القرمانى (أبو العباس أحمد الدمشقى) : أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ، طبعة بغداد ، طباعة حجر ، سنة ٢٨٢ هـ ٦٧٦م. ، ص ٣١٤ ، ٣١٥ ؛ إبن الوكيل (يوسف الملوى) : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب : مخطوطة فى مكتبة (رفاعه الطهطاوى بسوهاج تحت رقم ٢٨ تاريخ ، ومصورة بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم ٤٧٧ ورقة رقم ٦١.

(٣) السيد محمد الدقن : السلطان الأشرف طومان باى والمقاومة المصرية للغزو العثمانى سنة ١٩٧٩ م، القاهرة ، مطبعة الحسين الجديدة ، ص ١٣. ؛ وعاشور : الأيوبيين المماليك ، ص ٣٣٥.

ثانيا : العثمانيون وفتح الشام :

فى سنة ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م جاء الأمير (كركود) أخو السلطان سليم الى مصر لاجئا بعد تخاصمه على السلطة مع أخيه ، كما حدث مع (جم) ، فرحب به الغورى وأكرمه ، ثم جهزه بعشرين بارجة بحرية لفتح إستانبول ، فذهبت هذه الحملة غنيمة لمراكب فرسان القديس يوحنا الأورشليمى فى البحر المتوسط.(١)

وكان نتيجة ذلك إثارة غضب السلطان سليم على مصر ، ومن ثم إستعد للقضاء على المماليك قضاء مبرما.(٢)

وترامت الأخبار إلى مسامع الغورى عن قرب هجوم عثمانى وشيك على الدولة المملوكية فإتخذ عدة خطوات إيجابية منها :

(١) تحالف مع الشاه إسماعيل الصفوى .(٣)

(٢) كما آوى إليه الأمير قاسم العثمانى (أبن أخو سليم) الذى فر من وجه عمه بعد أن قتل أباه الأمير أحمد . وهكذا أصبح الصراع المكشوف متوقعا بين لحظة وأخرى بين الدولتين ، وسرعان ما جاءت الأخبار بعظم الحشود التى يجريها سليم قرب الحدود المملوكية ، ولم

---

(١) **المقدسى (مرعى بن يوسف) :** نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الملوك والسلاطين مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٣٣٢٦ تاريخ ، ورقة ١٢٣.

(٢) الإسحاقى (محمد عبد المعطى بن أبى الفتح) : لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول / ١٣١٥ ، القاهرة ، ص ١٢٨ ، وتوجد فيه أسباب أخرى للحرب.

(٣) الشيخ عبد الله الشرقاوى : نزهة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين كتاب مطبوع على هامش كتاب الإسحاقى السالف الذكر ، ص ١٣٣ ؛ عاشور : الأيوبيين والمماليك ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ ؛ Weit : Op. Cit., p.p. 632-633. كان هدف السلطان الغورى من تحالفه مع الشاه الصفوى عمل جبهة موحدة ضد السلطان سليم.

يصدق الغورى إشاعات العثمانيين التى مفادها أنها لمحاربة الصفويين وأخذ يحشد قواته على عجل لمواجهة الموقف الخطير الذى ظهر فجأة.(٤)

وفى تلك الأوقات العصيبة لم يتخل المماليك عن عبثهم ولم يقدروا خطورة الموقف الذى أوشك أن يعصف بهم جميعا فثار الجلبان فى القاهرة لتأخر رواتبهم.(٥)

الأمر الذى أغضب السلطان الغورى فترك القلعة وإعتزل فى المقياس وقال للأمراء (أنا ما بقيت أعمل سلطانا ولو عليكم من تحتارون غيرى !) فكان ردهم (بقيت أو لم تبق يجئ غيرك) فقال لهم (لا تشمتوا العدو فينا ، وابن عثمان متحرك إلينا ، ولابد من خروج تجريدة له عن قريب). (١)

والواقع أن الغورى لم يضيع وقتا فأرضى المماليك الثائرين ، وأخذ يستعد للمعركة القادمة ، فإستدعى العسكر إلى ديوان الجيش وأعد آلات الحرب وحصن قلعة قايتباى بالأسكندرية ، وكلف عائلة علاء الدولة الموجودة فى مصر بالخروج معه وجمع العسكر التركمان ، وأمر الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة بالإستعداد للسير معه إلى حلب.(٢)

(ا) تحرك الجيش المملوكى إلى الشام:

لاشك أن العثمانين كان لديهم رغبة ملحة فى القضاء على المماليك ، ويؤيد الطموح العثمانى تلك الأقوال التى نقلت عن سليم ومن حوله ، فمثلا وجه الصدر الأعظم هرسك زاده أحمد

---

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، عاشور : العصر المماليكى ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث ، ص ٣٨٩.

(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٣٥.

(١) التجريدة : فرقة من العسكر الخيالة لا رحالة فيها ويقال ركب السلطان جريدة .. أى ركب على وجه السرعة دون أن يصطحب معه أثقالا أو حشدا. المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ١٠٦ ، عاشور : المماليكى ، ص ٤٢٦.

باشا الحيث إلى السلطان سليم فقال له : (سلطانى ينبغى عليك أن تؤدب سلطان مصر بشن حرب عليه ، فعندما كنت فى مصر مأسورا سمعت من كبار المسؤلين أنهم لايدخرون وسعا فى العمل على محو العثمانيين نهائيا)(٣) وكذلك ورد على لسان مسئول آخر قوله : (إن ولاية الحرمين ومقام الخلافة سيؤلان إلى الأسرة العثمانية) ، وحتى شيخ الإسلام العثمانى (زنبللى على أفندى) أفتى بشرعية التحرك إلى مصر وشن حرب عليها، وقال : (الحرب والقتال مع أهلها غزو وجهاد ... والمقتول على أيديهم شهيد ومجاهد فى سبيل الله)(١)

وبينما كانت مصر تموج بحركة الإستعداد للقاء العثمانين ، وصلت إلى القاهرة رسالة من خير بك نائب حلب يذكر فيها أن السلطان سليم ينوى مهاجمة الشاه الصفوى ، والشاه يستعد لمقاتلته.(٢)

والواقع أن خاير بك أراد بهذه الرسالة تثبيط همة الغورى وصرفه عن الإستعداد القائم ، حيث أنه كان متصلا بسليم منذ عهد بايزيد الثانى.(٣)

---

(٢) طرخان : مصر فى عصر المماليك الجراكسة ، ص ١٧٥.

(٣) أ. بتفصيل راجع : السلطان قانصوه الغورى وعصره ٩٠٦ - ٩٢٢ هـ / ١٥٠٠-١٥١٧ م عدلى فريد ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ رسالة ماجستير ، غير منشورة بكلية الأداب جامعة الأسكندرية ، سنة ١٩٧٠ ؛ موير : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ص ١٧٢ .

(١) عاشور : الأيوبيين والمماليك فى مصر والشام ، ص ٣٣٥.

(٢) يبدو أن : الغورى لم يستعد الإستعداد الكافى لمواجهة السلطان سليم ، ربما كان لا ينتظر أن ينهزم الصفوى بهذه السرعة أو أنه يستبعد أن يجرؤ سليم على القيام بحرب شاملة معه ، وغالبا كان يأمل المصالحة ويعمل لها ، وقد توسط للصلح بين سليم والصفوى ، ومما يثبت صحة ذلك تسميته للجيش تجريدة أثناء خروجه للشام وأنه أيضا إصطحب معه أهل العلم جميعا فى مصر والحليفة.

(٣) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ١١ . ومن خلال السطور السابقة يظهر أن رسالة خايربك تكشف عن دور الخيانة التى خرص خاير بك على القيام به ، مما كان له أبعد الأثر فيما بعد فى هزيمة الغورى ، على أن هذه الخيانة تعد بحق من أخطر الخيانات على كثرة ماشهده العصر المملوكى ، ثم هى آخر حلقة فى سلسلة تلك الخيانات التى دبرها المماليك ضد أولى الأمر فيهم وإن

وبالطبع كى تنطلى هذه الحيلة على السلطان الغورى فإنه أخذ يروى فى رسالته تاريخ الحرب بين العثمانيين والصفويين ، كما أتصل بالأمير سيباى نائب الشام وطلب منه أن يطمئن السلطان الغورى من ناحية العثمانيين. (٤)

ويخبره بسوء الأحوال الإقتصادية بالشام بحيث لا تحتمل البلاد مجئ السلطان بجيشه الغفير وفعلا انخدع سيباى وأرسل له وقال فى نهاية رسالته (إن تحرك سليم علينا فنحن له كفاية).(٢) ولكن الغورى لم يأخذ بكلام خايربك ومضى فى إستعداده للخروج للشام ومالبث أن وصلت رسالة أخرى من خايربك يقول فيها إن رسولا جاءه من قبل سليم ومعه رسالة مضمونها كلام معسول مثل (..... أنت والدى وأسألك الدعاء وجميع ما ترونه فعلناه).(١)

ولكن الغورى لم يصدق ، وبعد يومين من تسلمه رسالة سليم خرج على رأس جيشه الكبير للشام يقوده بنفسه فى شهر مايو ٩٢٢ هـ ١٥١٦ م وحملت خزائنه على خمسمائة جمل ضمت ذهب وفضة وسلاح ومغطاه بحرير أصفر ، وكان معه ابنه محمد والخليفة والقضاة والفقهاء الأربعة والمتصوفه وغيرهم . (٢)

على أن الغورى لم يعلن أثناء خروجه النفير العام ـ مثلما كان يحصل أثناء الحروب الهامة ولم يطلب من عرب مصر السير معه فى هذه الحملة ، لكنه طلب من بعض فرسانهم أن

كانت الخيانات السابقة تنتهى بعزل السلطان أو قتله وتولية غيره لكن هذه الخيانة أودت بحياة الدولة برمتها.

(٤) إبن إياس : بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٤٨٤.

(٢) إبن إياس : المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٧.

(١) طرخان : مصر فى عهد المماليك الجراكسة ، ص ١٧٦ ، ١٧٧.

(٢) المتصوفة : أهمهم الشيخ أحمد البدوى ، والشيخ إبراهيم الدسوقى والشيخ أحمد الرفاعى والشيخ عبد القادر الجيلانى . أبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٤.

يحلوا محل المماليك أثناء غيابهم ، على الرغم من تحذير المقربين له من مغبة ذلك. (٣) وإكتفى بأن دعى المماليك السلطانية وحدهم للسير معه.(٤)

وجدير بالذكر أن الغورى أثناء خروجه للشام لم يعلق الجاليش (او الشاليش) إلا أربعة أيام قليلة فقط ، وكانت العادة تظل معلقة مدة التعبئة (أربعون يوما) وكانت تدق من حوله الطبول والمزامير (٥)

والحقيقة أن الغورى لم يسمع لنصيحة سيباى فى عدم المجئ للشام لأنه كان يتخوف منه لظنه أنه يسعى ليحل محله ويسأل رجال الطالع فيخبرونه بالشخص الذى يتولى بعده يبدأ إسمه بحرف السين فيظن أنه سيباى.(١)

---

(٣) أختار الغورى منهم عشرين ألفا تقريبا . ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ١٥-١٩.

(٤) **المماليك السلطانية** : يذكر الدكتور عاشور أنهم مشتريات السلطان وجلبانه ، وما يتبقى عنده من مماليك من سبقه فى السلطنة ، ويصرف مرتباتهم جميعا من ديوان المفرد. العصر المماليكى ، ص ٤٧٧.

(٥) **الجاليش أو الشاليش** : هذه الكلمة أصلها تركى وقيل فارسى قديم ، كما تسمى أيضا (جاليش السفر) وهو شعار الترك فى موطنهم الأصلى راجع عبد المنعم ماجد :نظم دولة سلاطين المماليك= =ورسومهم دراسة شاملة للنظم السياسية سنة ١٩٧٩ م طبعة ثانية ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ص ١٥٠؛ **والجاليش** : راية عظيمة فى رأسها خصلة من الشعر تحمل فى مواكب السلطان لاسيما المواكب الخاصة بالحرب. وكان المماليك يطلقون اللفظ أيضا على الطليعة من الجيش بتفصيل راجع : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ، ص ١٠١ المقريزى : السلوك جـ١ ، ص ٦٢٨ ، عاشور : المماليكى ، ص ٤٢٥.

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ،جـ ٣ ، ص ١٩ ، ٢٠ ، ابن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٦٠. بخصوص خيانة جان بردى الغزالى وخايربك وعلم الغورى : كان خاير بك على إتصال بالعثمانيين منذ زمن السلطان بايزيد الثانى والد سليم عندما كان فى سفارة هناك ، وجند معه جانبردى الغزالى الذى عارض قتل خايربك عندما كشف سيباى أمره قبل مرج دابق ، ولقد عمل خاير بك على تثبيط همة المماليك بالرسائل التى كان يرسلها للغورى ، بل أوهم سيباى بسلامة موقفه وأرسل المسكين رسالة للغورى تؤيد كلام خاير بك ، ولما علم سيباى بخيانته أمسك بتلابيبه وقال يامولاى أقتل هذا الخائن (هذا الموقف يثبت بدون شك وقوع الخيانة) على أن الغورى أقتنع بكلام الغزالى ولم يقتله ، على أن الغورى تأكد بأم عينه من تلك الخيانة لما رأى إنسحاب جناحيه

ولم يكن المماليك الذين صحبوا الغورى فى خروجه للشام فى وئام وإنسجام مع بعضهم ، فالمماليك الجلبان ، الذين جلبهم السلطان من الخارج ، بلغ عددهم حوالى ثلاثة عشر ألفا ، وأصبحوا يعادون المماليك القدامى أو ما عرفوا بالمماليك السلطانية أو القرانص (القرانصة) حيث كان معظمهم من الشيوخ الطاعنين فى السن والعجائز .(٢)

ولعل أساس النزاع بين الفريقين هو تقريب الغورى لمماليكه الجلبان على حساب الآخرين وإن تذبذب بينهما ، ومعروف عن الغورى اعتداده برأيه فكان لا يستشير أحدا (١) وكان خروج الغورى للشام فى موكب تتقدمه الأفيال المزينة وتفوح من الحملة رائحة البخور ، وأخذ معه آلات السلاح الفاخر التى تستعمل فى المواكب الرسمية مثل السيوف والسروج المزينة بالجواهر ، وكان هو يلبس أفخر الثياب وفى أصابعه الخواتم والياقوت والفيروز والزمرد ولا يشرب إلا فى طاسات من ذهب .(٢)

وفى أثناء سفر الغورى للشام كان يحتفل به كل بلد يمر عليه ويظهر الحماسة له ويمدح بأشعار كثيرة (٣)

بزعامة خاير بك والغزالى وأخذ ينادى بأعلى صوته يا أغوات الشجاعة ، صبب ساعة ولكن لم ينفعه ذلك حيث فات الأوان. ابن إياس : المصدر السابق ،جـ ٣ ، ص ١٦ ، ١٧.

(٢) القرانصة : أو القرانيص هم الجند القدامى ويعتبرون أقدم الجنود ، موصولون بالديوان ، أصحاب أرزاق كبيرة - معينون للأمره ، كانوا فى منزلة أمراء الخمسوات ويطلق عليهم أيضا الوغاد. ابن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٢٨ حاشية١.

(١) موجود فى النص (لا يعتد إلا برأى نفسه) . ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٢٥.

(٢) يبدو : أن السلطان الغورى قد أخذ حربه مع السلطان سليم بخفة ظاهرة فمثلا سمى خروجه للشام تجريدة وليست حملة ولم يعلق الجاليش طوال فترة التعبئة . كل هذا يظهر أن قصد الغورى من ذهابه للشام ليس حرب العثمانيين بقدر البحث عن حل سلمى للنزاع بينهما ، هكذا كان حال الأمراء معه. ابن زنبل المصدر السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩.

(٣) فحوى هذه الأشعار الكثيرة (أن البلاد الشامية شرفت بوجود السلطان) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ، ص ١٨ ،ص ٢٨ ؛ وليم موير :تاريخ دولة المماليك فى مصر ،ص١٧٢ ، ١٧٣.

وقد أسرع الغورى فور وصوله إلى حلب بإرسال رسوله لسليم ومعه نص الصلح ، كما خاطب إمام جامع حلب المصلين فى صلاة الجمعة عن الصلح ، وحتى كل الأمراء كانوا ينتظرون الجواب بالصلح ويرجون العودة للبلاد دون حرب ، إلا أن السلطان سليم رفض الصلح ، وقبض على رسول الغورى ووضعه فى الحديد بعد أن حلق لحيته ، ثم أرسل الغورى رسلا آخرين قطع سليم رؤوسهم.(٤)

وكان الغورى قد أناب عنه فى مصر الأمير طومان باى (نائب الغيبة)(١) وإضطر السلطان الغورى لدفع طوالع جنده إلى منطقة مرج دابق (٢) بالشام وقال قولته المشهورة (إنها إرادة الله).(٣)

---

(٤) إبن إياس : بدائع الزهور ،جـ ٣ ،ص ٤٠ ، إبن زنبل : آخرة المماليك، ص ١١ .

(١) **نائب الغيبة** : يوجد فى باب الوظائف السلطانية الكبرى وصف لإختصاص نيابة السلطنة ونصه فى صبح الأعشى الآتى : (ويعبر عن صاحبها بالنائب الكافل وكافل المماليك السلطانية ... وهو يحكم فى كل ما يحكم فيه السلطان ويوقع فى القاليد والمناشير وغيرها وجميع نواب الممـاليك تكاتبه فيما تكاتب فيه السلطان ، ويراجعونه فيما يراجع فيه السلطان وكتاب السلطنة أن يستخدم الجند من غير مشاروة السلطان ، ويعين أرباب الوظائف الجليلة كالوزراة وكتابة السر وينزل الجميع فى خدمته . فإذا مثل فى حضرة السلطان وقف فى ركن الإيوان فإذا إنقضت الخدمة خرج إلى دار النيابة بالقلعة ومعه الأمراء ، ويجلس جلوسا عاما للناس ويحضره أرباب الوظـائف ويقف أمامه الحجاب وتقرأ عليه القصص ، ثم يمد السماط للأمراء كما يمد لهم السلطان فيأكلون وينصرفون. حتى ديوان الجيش لا يكون له جدمة إلا عنده ولا إجتماع إلا به ولا يجتمعون بالسلطان ، أما إذا كانت الأمور معقدة فلابد فى هذه الحالة من إحاطة السلطان بها فيعلمه النائب بنفسه أو يرسل له رسولا؛ أى أن هذا النائب تارة ينصب وتارة يعطل وهو يختص فى الغالب بإخراج الإقطاعات دون الغير ، ويكون صاحب ديوان الجيش ملازم كما يلازم السلطان ناظر الجيش. القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٦ ،١٧، ١٨ ؛ جـ ٥ ، ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ ؛ المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ، ص ٦٤٢.

(٢) **مرج دابق** : إحدى مدن الشام بالقرب من حلب السورية . إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٢٦ ، ياقوت الحموى . معجم البلدان جـ ٤، ص ٣.

(٣) يقدر الجيش المملوكى العادى ٢٦ أميرا لألف عدا أمراء المائة ، كذلك أمراء العشرة وبلغت مماليك الغورى ١٣ ألف مملوك ترك منهم ألفين لحماية القلعة فى مصر وإصطحب معه للشام إحدى عشر ألفا منهم . وليم موير : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ص ١٧٣.

وفى تلك الأثناء سمع لأول مرة عن خيانة خاير بك ، لكنه رفض تصديق التهمة .(١)

وكان أهالى حلب قد خرجوا منها بسبب إعتداء جنود الغورى عليهم بالسلب والنهب والسبى مما تسبب فى إشتراكهم مع العثمانيين ضدهم للأضرار التى لحقت بهم. (٢)

وفى هذه الأثناء وصل رسولان من سليم للتفاوض مع الغورى ، وكان هدفهم الخديعة وإشاعة المماليك بجو السلامة والطمأنينة ، فقالا : (لقد فوض لنا أستاذنا الأمر ومهما إختار السلطان أى شيئ إفعلوه ولا تشاورونى) وطلبا منه سكرا وحلوى ، فأرسل له مائة قنطارا سكر وحلوى فى علب كبيرة، ولم يطمئن الغورى لسليم بل إزداد فى شكه بدليل أنه إستدعى جميع أمراءه وطلب منهم أن يقسموا على القرآن فى حضرة الخليفة.(٣)

وما إن وصلت الإمدادات العثمانية بقيادة الصدر الأعظم سنان باشا حتى أساء معاملة رسول الغورى الأخير ورفض الحديث معه فى شأن الصلح وقال له قل لأستاذك يلاقينا على مرج

---

(١) لكن ياترى هل وقعت الخيانة أم لا ؟ - يبدو أنها وقعت بالفعل بدليل إتهام الغورى بعدم الخطورة على الدولة والواقع عكس ذلك ، وكذلك إشاعة خاير بك خبر وفاة الغورى كذبا ثم إنسحابه مع رفيق خيانته الغزالى فكانت القاصمة التى تسببت فى هزيمة الجيش المملوكى ، فضلا عن الحرب التمثيلية التى قادها الغزالى بالقرب من غزة فضلا عن إنضمام خاير بك للعثمانيين ومحاولته جلب زملائه لهم.

(٢) ابن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٢٢ . ذيادة : نهاية المماليك ص ١٨ ،١٩. طرخان : مصر فى عصر الجراكسة ، ص ١٧٨ ، ١٧٩.

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ ٥ ص ٦٠ ن ٦١،٦٢،٦٣،٦٧،٦٨.

دابق (٤) وقد خلع سليم رداء السلم وكشف عن غرضه الحقيقى ، فعامل الوفد المملوكى معاملة مشينة وعلى رأسهم (مغلة بك) وهو برتبة وزير ورده مقصوص الشعر ، محلوق اللحية ، راكبا حصانا أعرج بشعا والباقين يسيرون على الأقدام ، وأخبر السلطان بموقف سليم العدائى وبإقتراب الجيوش العثمانية ، فظهرت الحقيقة عندئذ. (١) وفى ظل تلك الظروف القائمة أخذ الغورى فى الإستعدادات والحذر التى يقتضيها الوضع الراهن فجمع الامراء وإستعرضهم فى الميدان وهم فى كامل لباسهم وسلاحهم وأدخلهم من تحت سيفين على هيئة قنطرة كما هى العادة وهو ما يعنى القسم العظيم.(٢)

وتحرك بالفعل الجيش العثمانى ووصلت طلائعهم إلى عنتاب وإستولت على ملاطية وكركر وبهنس وغيرها من القلاع المملوكية، فجمع الغورى أمراءه وأقسموا للمرة الثانية وفى هذه اللحظات لم يطق سيباى نائب الشام أن يرى خايربك أمامه والمعركة توشك أن تندلع ، بعد أن وقف على خيانته فهجم عليه وأمسك بتلابيبه صائحا (يامولانا السلطان إذا أردت أن تنتصر على عدوك بإذن الله فاقتل هذا الخائن الغادر فى الحال).(٣)

---

(٤) **سنان باشا** : كان سنان باشا قائدا عسكريا وسياسيا لامعا ، تعينه باشا على مصر مرتين: الأولى سنة ٩٧٥ هـ ١٥٦٧ م بعدما جاء إليها من حلب ثم أصبح قائدا لحملة كبرى فتحت اليمن عقب نجاح الزيود فى إخراج العثمانيين وقد صادف توفيقا كبيرا فى مهمته، وسمى الفتح العثمانى الثانى لليمن (٩٧٦ هـ ١٥٦٨ – ٩٧٧ هـ ١٥٦٩) ثم عاد لمصر سنة ٩٧٩ هـ ١٥٧١ م وبقى باشا عليها إلى ٩٨١ هـ/ ١٥٧٣ م ثم عين صدرا أعظم ثانيا ، وعهد سليم الثانى إليه فتح تونس فتمكن من فتحها ٩٨١ هـ / ١٥٧٣ م وتولى صدرا أعظم للمرة الثالثة بعهد مراد الثالث ٩٨٨ هـ/ ١٥٨٠ م ثم باشا على الشام (دمشق) وبنى بها مسجدا باقى للأن ثم تولى صدرا أعظم للمرة الرابعة ، = =وهو بذلك عاصر سلاطين هم (سليمان المشرع وسليم الثانى ومراد الثانى ومحمد خان ، فضلا عن سليم الأول . الشناوى : أوربا فى مطلع العصور الحديثة جـ ١ ، ص ٦٨٦ ، ٦٨٧ حاشية ١.

(١) **مغلة بك** : هو كاتم سر السلطان الغورى ويسمى أيضا (الداودار) الأمير مغلباى . عاشور : العصر المممإليكى ، ص ١٩١ ، ١٩٢ .

(٢) موير : تاريخ المماليك فى مصر ، ص ١٧٣.

(٣) طرخان : مصر فى عصر الجراكسة ، ص ١٧٩.

ولكن تدخل الخائن الثانى جان بردى الغزالى نائب حماه ، وأقنع السلطان بعدم الإصغاء لهذه التهم حتى لا يفت ذلك فى عضد سائر الأمراء ، وهكذا ترك الغورى خاير بك حرا طليقا ليتم دوره الشائن الذى بدأه.(٤)

وفى هذه الأثناء وصل الأمير مغلباى يصحبه كرتباى فى حالة من النحس(١) (بزنط وأقرع الرأس وعلى رأسه وبدنه كير عتيق دنس وهو يمتطى ظهر إكديش ضعيف هزيل) وأخبر السلطان بما حدث. (٢)

فنادى السلطان فى الجنود بالرحيل ، وقبل رحيله أرسل رسالة لطومان باى نائب الغيبة فى مصر يوصيه بالرعية. (٣) وغادر الجيش المملوكى حلب فى أغسطس سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م(٤) .

(٢) الأوضاع العثمانية سنة ٩٢١ هـ ١٥١٦ م :

مكث السلطان سليم فى إستانبول بعد عودته من جالديران حوالى عشرة أشهر وخمسة وعشرين يوما وفى يوم ٥ يونيو ، عام ٩٢١ هـ ١٥١٦ م عبر بجيشه إلى مدينة إسكدار

---

(٤) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ١٣ .

(١) إبن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ، ص ٤٣.

(٢) إبن إياس : المصدر السابق جـ ٣ ، ص ٤٤. الزنط : غطاء للرأس - كير عتيق : لباس بالى ـ دنس : قذر - أكديش هزيل : الحصان الضعيف الغير أصيل المستخدم فى حمل الأثقال. عاشور : العصر المماليكى ص ٤١٣.

(٣) زياده : نهاية السلاطين ، ص ٢١٧.

(٤) إبن إياس : بدائع الزهور جـ ٥ ، ص ٦٠ ، ٦٨.

القريبة من الحدود المملوكية ، وتعتبر هذه الحملة الهمايونية (الإمبراطورية) هى الأولى والأخيرة لحاكم عثمانى على دولة المماليك.(٥)

والحقيقة أن المماليك كانوا يتحاشون الحرب مع العثمانيين ويحاولون تفاديها قدر إمكانهم ، لكنهم كانو مصممين على الدفاع عن بلادهم بكل قوتهم وطاقاتهم. وقام السلطان سليم بتعيين الوزير (بيرى محمد باشا) (١) نائب السلطنة فى مدينة إستانبول ، كما أرسل الشهزاده سليمان محافظا إلى أدرنة ومشرفا على الروماللى.(٢)

وتحرك الجيش الهمايونى إلى ألبستان (التى تقع بين فارس وملاطية) فى يوم ٢٣ يوليو ١٥١٦ م يقوده السلطان سليم ومنها تحدد وجهة الجيش الهمايونى إما لإيران أو للشام ، وما لبث أن إجتاز الجيش العثمانى الحدود العثمانية ـ المصرية ووصل إلى ملاطية وهكذا إتضح هدف الحملة وفى يوم ٣٠ يوليو إجتمع المجلس العسكرى فى الضفة الجنوبية من نهر Tohma قريبا من ملاطية وقرر إحتلال بسنى الخاضعة للسيطرة المملوكية ، ترتيب على ذلك قيام والى عينتاب Gaziantep يونس باشا بتسليم مفاتيح المدينة إلى البادشاه ، وكان رمضان أوغلو فى جفور أوفا التابعة للمماليك قد سلم كذلك مفاتيحها له.(٣)

---

(٥) ماجد : طومان باى ، ص ١٢٥.

(١) بيرى محمد باشا : أحد الصدور العظام فى الدولة العثمانية ، درس القانون ، ووصل إلى منصب قاضى صوفيا ، ثم أشرف على مطاعم السلطان محمد الثانى (الفاتح) التى خصصها للفقراء فى إستانبول ، وأحبه السلطان سليم وعمل بمشورته الصائبة فى فتح فارس ، ثم عين وزيرا ثانى مكان مصطفى باشا ، ثم صدرا أعظم مكان يونس باشا فى مصر سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م . دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣ ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٤.

(٢) أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١.

(٣) ماجد : التاريخ السياسى لدولة المماليك الجراكسة ، ص ٣٤٣.

وبينما تجرى الأمور على هذا النحو ، راجع السلطان الغورى الشاه الصفوى وطلب منه التعاون ضد العثمانيين ، وحذره من أنهم سيتجهون لما بقى من فارس بعد فراغهم من الشام وبالطبع رفض الصفوى هذا الاتفاق ، حيث مضى على جالديران عامين.(٤)

(٣) الموقف المملوكى قبيل المعركة :

قسم الغورى عساكره مقابل عساكر سليم ، فوضع فى المقدمة سيباى نائب الشام وعلى الميمنة جان بردى الغزالى نائب حماه وعلى الميسرة خاير بك نائب حلب وأقام السلطان لنفسه سرادقا كبيرا بالوسط وأحاط نفسه بالخليفة والقضاه وأعلام الصوفية ، وقاسم بك بن أخو سليم وغيرهم.(١)

ومن حولهم أربعون مصحفا فى أكياس من حرير أصفر من بينها مصحف الصحابى الجليل عثمان بن عفان الذى كان يقرأ فيه.(٢)

وطلب الغورى من القراء قراءة المصحف كاملا وقرأه معهم ، كما أكثر من الصلاة ، ورتب صفوف جيشه بنفسه ، وبذلك أتم الإستعداد للمعركة ، ولم يأخذ على غرة ، وكان فى موكب عظيم ، يحفه الخليفة المتوكل والأشراف ، وجماعة الطرق الصوفية معهم أعلامهم الخاصة بهم ، وعلى بعد عشرين زراعا خلف الغورى يرفرف العلم السلطانى ، وهناك مقدم المماليك(٣) وكذلك القضاة الأربعة وأمير زردكاش ، والأمراء على أهبة الإستعداد.(٤)

---

(٤) يبدو أن الشاه الصفوى اتعظ جيدا من الدرس الذى تلقاه فى جالديران.

(١) ماجد : طومان باى ، ص ١٢٥ ، ١٢٦.

(٢) يوجد هذا المصحف فى متحف طوب قبو سراى التركى مع مخلفات أخرى كثيرة ذكر أنها منذ عهد الرسول عليه السلام ، وقد أخذها السلطان سليم معه إلى إستانبول بعد نصره على المماليك فى الشام ومصر . ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ، ص ٤٦.

(٣) مقدم المماليك : هو من أجل الطواشية وأقربهم إلى السلطان ، ويشغل رتبة أمير طبلخاناه ، ويعاونه نائب برتبة عشرة . وكان للأمراء أيضا مقدمون للقيام على شئون مماليكهم . وكان لمقدم المماليك الحق فى التحدث فى شأنهم ، ويحكم فيهم ، كما كان يحضر تفريق الجامكية عليهم.

ولكن ياترى مالذى دفع العثمانيين إلى قتال المماليك؟

كان هناك أسباب عديدة لهذا القتال ، تجمعت فى :

* رغبة العثمانيين فى إنتزاع زعامة المسلمين من أيدى المماليك.

* الفعلية الإسلامية التى تقبل آنذاك صاحب سيادة على المسلمين إلا من كان يسيطر على المقدسات الإسلامية وكان المماليك أصحاب تلك السيادة .(١)

* فتوى شيخ الإسلام العثمانى بضرورة الحرب مع مصر والشام وبأن مقتولهم شهيد.

(٤) معركة مرج دابق بالشام ٩١٢ هـ – ١٥١٦ م (٢)

دارت المعركة فى يوم الأحد الموافق ١٥ رجب عام ٩٢٢ هـ / ٢٤ من أغسطس ١٥١٦ م فى يوم شديد الحرارة ، وقد أحاطت بها الخيانة منذ بدايتها.(٣) وفى هذه المعركة أبدى المماليك وسلطانهم الغورى شجاعة نادرة ، أفاضت فى وصفها كتب التاريخ ، حتى ذكر أن السلطان سليم فكر فى الهرب أو طلب الأمان كى يتمكن من إعادة تنظيم صفوفه.(٤)
وفى تلك اللحظات الحاسمة ظهر خاير بك ليتم دوره الآثم الذى بدأه ، فأخذ يطلق الإشاعات الكاذبة بين صفوف المقاتلين فهاهو يشيع أن السلطان الغورى أمر مماليكه الجلبان أن لا يتقدموا ويأمر القرانصة بالتقدم لجعلهم الطعمة الأولى لنيران العثمانيين وبعدها قال القرانصة

---

(١) ماجد : طومان باى ، ص ١٢٥ ، ١٢٦. ، ماجد : التاريخ السياسى للمماليك ، ص ٣٤٤.
(٢) مرج دابق : مكان مشهور فى حلب السورية . إبن زنبل : آخرة المماليك، ص ٢٦ حاشية ٢.
(٣) يذكر إبن زنبل أن المعركة إندلعت يوم الأحد ٢٣ رجب ٩٢١ هـ / ٥ نوفمبر ١٩١٥ م إبن زنبل ص ١٤.
(٤) إبن إياس : بدائع الزهور جـ٥ ، ص٦٨ ؛ ، ٦٩، زيادة : نهاية المماليك ، ص ٢١٩ ؛ طرخان : مصر فى عصر الجراكسة ، ص ١٧٩ – ١٨٢.

: (نحن نقاتل بأنفسنا مع النار وأنت - الغورى - واقف تنظر إلينا بعين الشماته ، وما تأمر أحدا من مماليكك يخرج إلى الميدان !)(٥)

وهاهو يشيع أن الغورى سقط قتيلا فى الميدان ، وثبط عزائم الجنود قتل الأمير سودن الأتابكى ولحقه سيباى ، وتراجع خاير بك هو وجنوده مولين الأدبار ليحذوا حذوهم بقية الجيش المملوكى.(١)

هذا فى الوقت الذى يقف فيه الغورى ثابت الجأش فى مكانه بأرض المعركة تحت الصنجق السلطانى وحوله نفر قليل من مماليكه الخاصكية.(٢)

وأدرك الغورى حقيقة الخيانة بعد ما رأى معظم جيشه يفر ، ولكن بعد فوات الأوان ، وعبثا حاول الغورى أن يستحث جيشه على الثبات والصمود ، فصاح بأعلى صوته : (يا أغوات ! هذا وقت النجدة ، هذا وقت المروءة ، ياأغوات الشجاعة ، صبر ساعة !)

ولم يسمع له أحد وإنسحب من حوله ، وهو يقول للفقراء : (إدعوا الله بالنصر ، فهذا وقت دعائكم).(٣)

وخشى الأمير تمراز الشمسى (أمير زردكاش) على السلطان فطوى العلم السلطانى وشق الطريق إليه وقال له (يامولانا السلطان ! إن عساكر إبن عثمان قد أدركتنا فأنج بنفسك وادخل

---

(٥) وليم موير : تاريخ المماليك فى مصر ، ص ١٧٤ ، ١٧٥.

(١) عاشور : الأيوبيين والمماليك ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ ؛ كتابه : العصر المماليكى ، ص ١٩٢ ، ١٩٣.

(٢) <u>الصنجق السلطانى</u> : أو السنجق والسنجاق والمفرد سناجق وهى كلمة تركية الأصل ومعناها اللواء وتطلق على القسم من الولاية الكبيرة ولا يزال مرادفها فى اللغة العربية اللواء والصنجق أيضا هو الحاكم على جزء من الولاية ، وقد تكون الصنجقية مجرد رتبة دون أن يكون حاملها حاكم على الجزء من الولاية ، وكان على الصناجق مال ويدفع بصفة سنوية . إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٦١. كما يذكر القلقشندى أن السنجق وجمعه سناجق ، وهى رايات صفر صغار تربط بطرف الرماح ويحملها السنجقدار. صبح الأعشى جـ ٤ ، ص ٨ ، جـ ٥ ص ٤٥٦-٤٥٨.

(٣) طرخان : مصر فى عصر الجراكسة ، ص ١٨٢ ، ١٨٣ ؛ عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ١٩٣.

حلب) ، فإنطلقت فى قلبه جمرة نار لا تطفأ وكانت العبارة عليه كالصاعقة ولـم يتحمل هول الموقف وأصيب فى الحال بشلل (أبطل شقه الأيمن وأرخى حنكه - فمه -) وطلب شربة ماء فجاءت له فى كأس ذهبية ولوى عنق فرسه ليهرب ولكنه سقط عن فرسه بعد خطوات جثة هامدة من هول الهزيمة .(١)

هكذا كانت نهاية الفارس المغوار ، وترتب على تلك الوفاة أن سرى هذا النبأ بسرعة مذهلة فى الجيش العثمانى ، فأصدقوا القتال وقاموا بنهب المعسكر المملوكى وأقام سليم فى وطاق الغورى(٢) وكانت مغانم لا حصر لها.(٣) وذكر أن السلطان سليم قطع رأس الغورى وأرسلها إلى إستانبول فى حين دفنت جثته بالقرب من حلب.(٤)

ولكن الثابت أن رأس الغورى قد قطعت حتى لا يتعرف عليه أحد من العثمانيين ولم تظهر له جثة بين القتلى ، وكأن الأرض أبتلعتها فى الحال حيث كانت جثث كثيرة مطروحة على الأرض بلا رءوس.(٥)

وقد قتل الكثير من أمراء المماليك بلغوا الأربعين أميرا ، وإستولى السلطان سليم على خزائن الغورى وأمتعة الأمراء ، ووقع فى الأسر الخليفة والقضاة وعدد لا يحصى من الأمراء

---

(١) زيادة : نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢١٩ ، ٢٢٠ ، عاشور : الأيوبيين والماليك ص ٣٣٧.

(٢) **وطاق** : هو الخيمة الكبيرة التى تعد للعظماء . عاشور : المماليكى ، ص ٤٨٤.

(٣) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ١٩ ،٢٠.

(٤) يذكر أن الأمير علان رئيس القرانصة ومعه الأمير أقطاى الطويل إتفقا على قطع رأس الغورى وإلقاء جثته فى جب حتى لا يعثر عليه العثمانيين فيشهرون به وفعلا نفذا ما إتفقا عليه ، وأرسل علان أحد عبيده الذى قطع رأسه ودفنه فى الجب ، وهناك رواية توضح أن الذى قطع رأسه هو حامل الراية حتى لا يطوف بها سليم فى أنحاء البلاد، ولكن لم يستدل على قبر للغورى على الرغم من أنه قد بنى لنفسه مدرسة ليدفن فيها وصرف عليها ألف دينار ، ومات وله من العمر نحو ثمانية وسبعين عاما ودامت سلطنته أكثر من خمسة عشرة سنة. إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ١٨ ، إبن إياس : بدائع الزهور جـ٣ص٥٨ وهناك رواية تذكر أن قتل الغورى كان على يد تركى وأرد سليم قتله لكنه عاد وعفا عنه . موير : تاريخ دولة المماليك ، ص ١٧٤ ، حاشية ١.

(٥) أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، جـ ١ ، ص ٢٢١.

والجنود ، ولما طويت الراية السلطانية كان ذلك دلالة على نهاية المعركة وهزيمة المماليك.(٦)

والذى عجل بنصر العثمانيين تقهقر المماليك بقيادة خونتهم ونال سليم النصر فى أقل من ثمانى ساعات فقط من بدايتها وكان ذلك قرب العصر ، ولجأت فلول المماليك الهاربة من مرج دابق متجهة إلى حلب ، حيث إنتقم منهم أهلها جراء ما إرتكبوه فى حقهم سلفا ، وطردوهم منها شر طردة ، فعرجوا على دمشق ، وهم فى أسوأ حال .(١)

وفى دمشق تجمعت هذه الفلول ، ومنها خرجوا قاصدين مصر فوصلوها أرسالا متقطعة ، وتعرضوا خلال الطريق لأذى كثير من العربان ، ودخلوا الحدود المصرية فى شهر رمضان سنة ٩٢٢ هـ / أكتوبر سنة ١٥١٦م هذا وقد وصلت أنباء القتال إلى القاهرة قبل وصول الهاربين بشهر كامل وعندما تأكد أهلها من الأخبار بعد رؤيتهم فلول المماليك الهاربة ، سرت موجة من الرعب والصراخ والعويل ، وقام العزاء ، وضجت القاهرة وكثر فيها الإضطراب والقيل والقال.(٢)

رحم الله السلطان قنصوه الغورى فقد كان حاكما قديرا وعسكريا مجربا ناجحا ، خلف وراءه الكثير من المؤلفات العظيمة المكتوبة بالعربية والتركية والفارسية ، بالرغم من بلوغه السادسة والستين عاما من عمره.(٣)

---

(٦) يذكر فريد أن عمر الغورى وصل ثمانين عاما . الدولة العلية ، ص ٧٥.

(١) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص٣٠.

(٢) إبن زنبل : المصدر المذكور ، ص ٣١.

(٣) لم يستفد المماليك من قلة عدد العثمانيين ، حيث بلغ عددهم : ستمائة ألف جندى ، فى حين كان عدد المماليك ثمانمائة ألف جندى ولكن تفوق العثمانيون فى سلاح البارود فكان لديهم ثلثمائة مدفع ولم يكن لدى المماليك مدفع واحد ، حيث أنهم يرون أنه لا يستعمل إلا ضد الكافرين ولا يصح إستعماله ضد المسلمين مهما كانت الظروف كذلك يرى فريد أن جان بردى الغزالى وخاير بك أول من هربا من المعركة فلعلهما كانا متفقين على إكمال دور الخيانة إلى نهاية السطنة المملوكية فكان عملهما سببا فى هزيمة المماليك: فريد : الدولة العلية ص ٧٥ ، ٧٦.

ولقد دخل السلطان سليم حلب بعد أربعة أيام من المعركة ، وهى مدينة عظيمة ومركزا هاما للتجارة ، وعامل أهلها معاملة طيبة ، كأنهم من رعيته وكان دخول جيشه إليها كدخوله مدينة عثمانية ، والسبب فى ذلك ترحيب أهلها به بإعتبارهم منقذين لهم من ظلم المماليك وعسفهم.(١)

ثم تقدم السلطان وجيشه نحو قلعة حلب التى هرب منها قائدها وجنوده ، وهناك أراد أن يظهر إستهانته برجالها ، فأرسل أمامه جنديا أعرج ومعه عصا ، ففتحت له الأبواب فى الحال ، ووجد فيها نفائس كثيرة تخص المماليك.(٢)

ثم سار سليم وسط أفراح وإحتفالات الجماهير إلى المسجد الكبير هناك داخل حلب ودعى له إمام الجامع ثم تحرك منها إلى دمشق ، حيث إنتشرت حالات الذعر بين الناس الذين لم يحاولو عمل أى شيئ يذكر لمقاومة العثمانيين وحماية مدينتهم سوى إرسال الماء فى السهل الذى حولها لشل حركتهم ، أما الأمراء المماليك فقد فكر بعضهم فى تولية الغزالى وفكر آخرون فى محمد بن الغورى ولكن إقتراب العثمانيين أدى لتفرقهم فذهب بعضهم إليهم وفر الباقون إلى مصر ، ودخل سليم المدينة يوم ١٥ أكتوبر ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م .(٣)

نخلص إلى أنه : بإنتهاء معركة مرج دابق ودخول العثمانيين إلى مدن الشام الواحدة تلو الأخرى فقد تحدد مستقبل الشام بل ومصر كذلك لعدة قرون تالية.

ومما لاشك فيه أن إنتصار العثمانيين على المماليك ومن قبلهم الصفويين وكذلك الأوربيين سببه الأول هو تفوقهم الحربى وأساسه تطوير إستعمالهم لسلاح البارود وآلاته على وجه

يذكر موير أن : السلطان سليم العثمانى بعد نهاية المعركة قد أستولى على سيف السلطان قانصوه الغورى ، ويوجد الآن هذا السيف فى متحف طوب قبوسراى بتركيا ، منقوش عليه : عز لمولانا السلطان ـ الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى ، وهو تحت رقم ٨٩/١. موير : تاريخ المماليك ص ١٧٥ ، ١٧٦.

(١) طرخان : مصر فى عصر الجراكسة ، ص ١٨٤.

(٢) عاشور : العصر المماليكى ، ص ١٩٣.

الخصوص ، فى الوقت الذى أهمله المماليك ، مع أن هؤلاء كانوا أول من إستعمله ، كما يظهر من نصوص كثيرة.[١]

ومن المؤكد أن البارود كسلاح حربى كان أول إستعماله فى مصر بالذات ، حيث أن مادته الأساسية وهى النطرون (ملح البارود) توجد بوادى النطرون ، ومن خلاله ظهرت آلة موجودة للآن هى (المدفع أو المدفع - او المكحل والمكحلة) وكان للمماليك مسابك خاصة بهم.[٢]

إلا أن إنتقال هذه الإختراعات المصرية إلى غير المماليك جعلهم يهتمون بها أكثر منهم أنفسهم ، لاسيما وأن المماليك ظلوا متعصبين لنظامهم القديم القائم على الفروسية ويرون أنه لا يحمل البارود إلا المصريين والعبيد فقط ، ويحاربون به الكفار فقط وليس المسلمين ومن ثم أهملوه عمدا وإستعمله بقية العالم وهناك من يرى أنه تم إكتشافه بأوربا قبل الشرق.[٣]

---

(٣) موير : تاريخ المماليك فى مصر ، ص ١٧٥ ، ١٧٦.

(١) البارود كسلاح : كان أول إستعماله فى مصر حيث أن مادته الأساسية النطرون (ملح البارود) توجد فى مصر ، لا سيما فى وادى النطرون ، فكلمة بارود إنتقلت إلى اللغات الأوربية بإسمها العربى ، ولعله مشتق من البرادة (شظايا الحديد) وتكتب فى اللغة الإنجليزية Powder وتكتب فى الفرنسة Paudre ، ولا نظن أن الصينين هم أول من إخترعه كسلاح ، وإن عرفوه _ والمغول الذين فتحوا الصين لم يأخذوه عنهم أو حتى إستعملوه فى حروبهم ، وعلى العكس من ذلك فإن المماليك قد إستخدموه ضد المغول فى موقعة عين جالوت.

وقد ترتب على إستخدامه فى مصر ظهور إختراع آخر مكملا له ، فقد أبرز آلة جديدة للوجود لم نعرف أنها ظهرت فى أى مكان سوى فى مصر ولاتزال فى ميادين القتال حتى وقتنا الحاضر ، ألا وهى المدفع . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٢ ، ص ١٣٧، جـ ٣ ، ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ ؛. الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ ١ ، ص ١٢٨ ؛ ماجد : نظم سلاطين المماليك ورسومهم ، جـ ١ ، ص ١٧٢.

(٢) المكحل أو المكحلة : مشتق من الكحل المعروف فى الشرق وحل المدفع أو المكحلة محل المنجنيق الذى هو الآخر إختراع عربى للقذف ، حيث ينسب إختراعه لأحد ملوك الحيرة .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى، جـ ٢ ، ص ١٤٤ ؛ ماجد : نظم المماليك ورسومهم ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، طومان باى ، ص ١٢٩ حاشية ١.

ثالثا : العثمانيون وفتح مصر :(١)

دخلت بلاد الشام فى حوزة العثمانيين ثم تبعتها مصر ، تلك البلاد التى جاهدت الفاطميون والأيوبيون والمماليك فى سبيل وحدتها مع مصر ، لكن السلطان سليم أخذ الشام لقمة سائغة ، حيث سلمت معظم مدنها بالأمان.(٢)

والواقع أننا لا نعرف على وجه التحديد مقصد السلطان سليم بعد مرج دابق ، **فهل ياترى كان ينوى الإستمرار فى إتمام فتح الشام ثم يتجه لمصر ؟ أم أنه سيكتفى بهذا الإنتصار ويقف عند ذلك الحد ويعود لبلاده ؟**

بتفصيل راجع : عبد الرحمن زكى : العرب والكشف عن البارود ، المجمع المصرى للثقافة العلمية ، الكتاب ٤٣ ، ص ٩٢ ، ٩٣. ؛ الشيخ عبد الله الشرقاوى : نزهة الناظرين ، كتاب مطبوع على هامش كتاب الإسحاقى سالف الذكر ، ص ١٣٣.

(١) بخصوص ما إذا كان مجيئ العثمانيين إلى مصر غزوا أو فتحا ، فقد تعددت الآراء فى هذا الصدد : فيرى البعض أن ذلك لم يكن إحتلالا لأنه يمثل سيطرة دولة إسلامية على أخرى حيث أن فى هذا الوقت لم تظهر القوميات ، وحسب هذا الرأى لم تكن هذه السيطرة إعتداء من قوة إسلامية على دولة إسلامية بل ضغط من العالم الإسلامى على جزء منه ، على أساس أن هذا العصر كان عصر الوجدان الدينى ولم يكن عصر العاطفة الوطنية ويرى أصحاب هذا الرأى أيضا أن هذا الحادث كان فى صالح العالم الإسلامى ومصر كجزء منه وإن كان بمثابة تبدل سلطوى أملته رغبة البلدان العربية فى الإصلاح الإجتماعى ، بينما يرى البعض الآخر أن الأتراك رغم مجيئهم فى مسوح الدين وتحت قناعه إلا أن وجودهم فى هذه المنطقة يمثل نوعا خاصا من الإستعمار (الأستعمار الدينى) وأن القناع الدينى يعد مماثلا للغزو المغولى الوثنى الذى سبقه .

فى حين يرى إبن إياس "..... ان مصر صارت نيابة ... أنتهك إبن عثمان حرمتها وكرامتها ، وما خرج منها حتى غنم أموالها وقتل أطفالها وأسر رجالها وبدد أموالها وأظهر أهولها " . راجع إبن إياس : بدائع الزهور جـ ٥ ، ص٢٠٦. ـ أحمد كتخذا عزبان : الدرة المصانة لأخبار مصر الكنانة تحقيق دانيال كرسيليوس وعبد الوهاب بكر نشر دار الزهراء ،"القاهرة سنة ١٩٩٢ ، ص ٧ ـ راجع مقدمة كامل محمد فودة غزى : المؤسسات التعليمية فى مصر إبان العصر العثمانى ودورها فى الحياة السياسية والفكرية (١٥١٧ - ١٧٩٨م) رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب جامعة جنوب الوادى سنة ١٩٩٥م.

(٢) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص٦٨.

وقد أورد إبن زنبل أن سليما لا يريد الإستمرار فى حـرب الممـاليك حتـى النهايـة ، بـل ينـوى العودة لبلاده ، مثلما فعل تيمور لنك ، فهو لم يستمر فى حربه مع المماليك للنهاية وكان رأى

الصدر الأعظم سنان باشا أن يكتفى العثمانيون بأخذ الشام وترك مصر لشأنها[١] .

والثابت : أن السلطان سليم تـردد فى فتح مصر لخوفه من أن يضيع فى أرض العـرب الواسعة، ويتضح ذلك بجلاء من رسالته إلى حـاكم مصـر الذى تولـى شئون السلطنة (وهى مكتوبة بالتركية) فحواها : (أن الله قد أوحى إليه بأن يملكه البلاد شرقا وغربا ، كمـا ملكهـا للاسكندر ذى القرنين من قبل ، ويعتبر نفسه بعد إنتصاره على الغورى[٢] سلطانا على أملاكه ويدعوه أن يكون نائبه على غزة ومصر وتكون له الخطبة[٢] وسك العملة [٣]

---

(١) إبن إياس : بدائع الزهور جـ٣ ، ص٨٢.

(٢) إبن إياس : بدائع الزهور جـ٣ ، ص ٤٨.

(٢) الخطبة : هى الدعاء بإسم السلطان سليم للأئمة فى خطبة الجمعة. إبن زنبل : آخـرة الممـاليك ، ص٤٣

(٣) والسكة : هى سك العملة مطبوع علي وجهيها أسم سليم . المصدر السابق ، ص ٤٣.

(أ) الأشرف طومـان بـاى :(١)

فى سـنة ٩١٧ هـ / ١٥١٢ م عينـه الغـورى أمير ركـب الحجـاج ، فصحبـه عـدد كبـير من الأعيان والأمراء ، ثم جعله متحدثا على كل الدواوين فى سنة ٩١٨ هـ / ١٥١٣ م ولقد ترقى فى مناصب كثيرة كان آخرها كاشف الكشاف.(٢)

---

(١) **طومان باى** : هو آخر سلاطين البرجية جركسى الأصل ، جلبه الغورى وكـان بينهما صلة قرابة ثم قدمه للسلطان قايتباى ، فصار من جملة مماليكه الكتابية ، وإستمر كذلك لحين توليـة محمد بن قايتباى عرش مصر فأعتقه ، وخصص لـه خيلا قماشـا وغلمانـا ، وبقـى جمدارا ثـم خاصكيا (الجمدار من يعاون السلطان فى إرتداء ملابسه ، والخاصكى هو أحد خاصة السلطان من خـدم قصـره وحراسه). على مبارك باشا : الخطط التوفيقية ، بولاق ١٣٠٦ هـ ، جـ ١٢ ، ص ٣٧؛ وإستمر السلطان محمد فى الحكم ومعه طومان باى إلى أن تولى الغورى السلطنة فى شوال ٩٠٦ هـ ـ إبريل ١٥٠١ م فرقاه إلى أمير عشرة (أى يرأس عشرة فرسان) ثم أنعم عليه السلطان بمنصب أمير طبلخانة ، وجعله شادالسر بخناه (أمير طبلخانة يعنى يـرأس أربعون فارسا ، وشـاد السـر نجانـاه ـ الذى ينظر فى المشروبات السلطانية من فاكهة وحلوى)وإستمر فى هذه الوظيفة حتى شهر ذى الحجة ٩١١ هـ / ١٥٠٦ م فأنعم عليه السلطان بتقدمه ألف (مقدم ألف يعنى يتقدم ألف أمير ممـن دونـه فـى المرتبة) ثم أنعم عليه السلطان بمنصب داودار كبير ، كما خلع عليع خلعة الأنظار (الدودار هو الـذى يبلغ رسائل السلطان ويقدم إليـه المظـالم والأخبار ، وينظر فـى المقـابلات السلطانية ، ويقدم البريد ويطلب توقيع السلطان على المنشورات والرسائل السلطانية) وما إن حل يـوم الإثنين الحـادى عشر من شعبان ٩١٤ هـ / ١٥٠٩ م حتى أنعم عليه السلطان باستادارية العالية (الاستدار هـو الـذى ينظـر فى بيوت السلطان ويشرف على كل شيئ فيها) ، ومن ثم علا نجم طومان باى حتـى أصبـح كاشـف الكشاف . إبن إيـاس : بدائـع الزهـور مجلد ١ ، ص ٦٩٨ ، ٧٣١ ، ٧٤١ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٦٠ ، ٧٧٣ ، ٨٢٢ ، ٨٤٠، ٨٤٤.

(٢) **الكشاف** : جمع كاشف وهم الحكام ، فكان الحاكم بمثابة مأمور مركز ، وكلمـة كاشـف مـأخوذة من الفعل كشف وحكم بعد ذلك محافظة ، وجاء فى كتاب زبدة المسـالك لخليل بـن شـاهين الظـاهرى طبعة باريس سنة ١٨٩٤ م أن الكشاف يعين مرة فى كـل سنة من الأمـراء مقدمـى الألـوف ، وكـان الكشافة فى أول أمرهم ثلاثة (كشاف الوجه البحرى والقبلى والجيزة) إبن زنبـل : آخـرة الممـاليك ، ص ٤.

وبعد ذلك أصدر الغورى مرسوما يجعل فيه طومان باى نائب الغيبة.(١) فحرص على إنتشار الأمن داخل البلاد (فأمر أن يعلق على كل بيت قنديلا من المغرب ، ولا يخرج بعد العشاء مملوك أو غلام ومعه سلاح ، ولا يغطى مملوك وجهه إذا خرج إلى السوق ومن فعل ذلك يشنق دون مناقشة) فلهجت ألسنة الناس له بالدعاء.(٢)

(١) طومان باى نائب الغيبة :

ساس طومان باى الناس أثناء غيبة السلطان أحسن سياسة حتى أصبحوا عنه راضين فحفظ الأمن وقضى على فساد العربان وظلم المماليك وعبثهم بالقاهرة ، حتى قال عنه إبن إياس (ضبط الأمير الداودار أحوال الديار المصرية فى غيبة السلطان ضبطا جيدا .... فلم يقع أثناء غيبته إلا كل خير).(٣)

وأطلق سراح المسجونين ظلما وكذلك المسجونين من أجل الديون بعد مصالحة أرباب الديون من ماله الخاص ، وأطلق من يرجى صلاحه وحسن من حالة السجون فى مصر.(٤) ولم

---

(١) يكون للسلطنة نائبان : الأول هو الكافل أو نائب الحضرة وينوب عن السلطان أثناء وجوده بمصر والثانى نائب الغيبة وهو أقل درجة منه ينوب عن السلطان لسفره فقط. القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ، ص ٤٣٣ وكذلك جـ ٥ ، ص ٤٢٦ ؛ الشناوى : أوربا فى مطلع العصور الحديثة جـ ١ ، ص ٥٨١ ؛ محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى ، ص ٨٦.

(٢) إبن إياس : بدائع الزهور جـ٣ ، ص ٦٩.

(٣) إبن إياس : المصدر السابق جـ ٣ ، ص٦٣ ؛ الزركلى : الاعلام ، جـ ٣ ، ص ٢٣٣.

(٤) بخصوص السجون المملوكية فى مصر : كانت سجون مصر زمن المماليك تتبع سلطات متنوعة وذلك منشؤة تمييز القوانين الشرعية القائمة بين الحبس ـ الترسيم ـ وهو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه وبين السجن وهو الإعتقال فى مكان حرج ضيق مضافا إلى ما هناك من تفاوت بين أنواع الجريمة والتقوية ، وإختصاص السلطة الواحدة بنوع معين من الجرائم وقد أفرد (

تشغل حالة الحرب التى تمر بها البلاد طومان باى عن الإهتمام بعمارة الجسور لمقاومة الفيضان ، فكان يسافر بنفسه للإطمئنان على تلك الجسور من أهمها (جسر الفيض ، وأبى المنجا ، والفيوم).(١)

(٢) الموقف بعد واقعة مرج دابق :

كان خروج الغورى للشام ليرد عادية العثمانيين ، فكانت مرج دابق قبرا له ولحريات المصريين وذال ملكه فى لمح البصر ، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير. (٢)

وإنتهز هذه الفرصة كثير من العربان مثل عربان بنى عطية والنعائم ونهبوا ضياع الشرقية فخرج إليهم طومان باى فى خمسمائة مملوك وطاردهم وإسترد مانهبوه ، وعقب عودته إلى

المقريزى فى المواعظ والإعتبار ، جـ ١ ، ص ١٨٧ ، ١٨٨.) فصلا طويلا عدد فيه تلك السجون وشرح تاريخ كل منها مع بيان مواضعها وإختصاصها ، فقال : كان منها إثنان بالفسطاط وهما حبس المعونة أو دار المعونة ، أو حبس الصيار ، وقد إستعمله ولاة مصر لسجن الواقعين تحت= =عقوبتهم ، بعد تحويل حبس المعونة إلى مدرسة فى عهد السلطان صلاح الدين الإيوبى ؛ وخزانة البنود ، وكانت سجنا للأمراء والوزراء والأعيان ، وخزانة شمائل ، وكانت من أشنع الشجون وأقبحها منظرا ، يحبس فيها من وجب عليه القتل أو القطع من السراق وقطاع الطريق ومن يريد السلطان إهلاكه من المماليك وأصحاب الجرائم العظيمة وقد هدمت سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م؛ وهناك سجن المقشرة ، وهو الذى صار سجنا لأرباب الجرائم ، بعد هدم خزانة شمائل ، ويوجد الجب بقلعة الجبل وكان سجنا للأمراء خاصة . وقد ذكر المقريزى : نفس المرجع والجزء ص ١٨٧ فوق ما تقدم من أسماء السجون (حبس الديلم وحبس الرحبة) من غير أن يدلل عليها بشرح أو وصف كما يوجد أيضا (ص ٤٩١ ، حاشية ٥) مكان إسمه الحجرة والراجح أنه كان يستخدم لإعتقال المذنبات من المغانى. المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ ١ ، ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٦٣ ، جـ ٢ ، ص ٢٠٥.

(١) إبن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ، ص٣٢ ، ٣٣ ، ٣٧.

(٢) إبن إياس : المصدر السابق جـ ٣ ، ص٤٧.

القاهرة نادى بالأمان والإطئمنـان ، كمـا ألغى مـا إستحدث مـن ضرائب وخـراج علـى عهد الغورى.(٣)

(٣) سلطنة طومان باى :

إنشق الأمراء فى الشام علـى أنفسهم بشـأن مـن يتولـى السلطنة ، فـإقترح الأمير علان بـأن يذهبوا لعاصمة السلطنة لينظروا أمرهم ، فإستصوبوا رأيـه وإتجهـوا جميعـا لمصـر.(١) وفـى مصر وقع إختيارهم على طومان باى نائب الغيبة خلفا للغورى ، وبالطبع رفض هذا المنصب بشدة ، لكن الأمراء أصروا وضغطوا عليه ليقبله (٢) ، حيث لم يكن هناك أصلـح منـه ، وقـال الأمراء : (لا يوجد من نسلطنه إلا أنت ولا محيد لك عنها طوعا أو كرها).(٣)

والحق أقول : إن السلطان طومان باى كان على صواب حين رفض قبول هذا المنصب ، فـى تلك الفترة الحالكة السواد فـى تـاريخ مصـر المجيـد ، فكـان منصبـا مظلمـا لا يسـتحق الشـكر لضياع الشام وتفرق الجيوش وتشتت الأمراء ، فضلا عن تفشى الفتن وإضطراب العربان.

ولما أصر طومان باى على رفض المنصب ، إستعان الأمراء بالشيخ أبو السعود الجارحى فى إقناعه بقبول منصب السلطنة .(٤)

لكن طومان باى ذكر له أسباب إمتناعه ومن أهمها (خواء الخزائن ـ العجز عن دفع المرتبـات ـ فقدان الشام ـ قدوم سليم إلى مصر ـ رفض الأمراء الوقوف يدا واحدة لقتالـه ـ وبعـد توليتـه

---

(٣) الخراج : هو ضريبة الأطيان . إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص٨١ ، حاشية ٢.

(١) وليم موير : تاريخ دولة الممليك فى مصر ، ص ١٧٥.

(٢) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٣٥ ، ٣٦.

(٣) إبن إياس : بدائع الزهور جـ ٣، ص ٥٧.

(٤) الشيخ الجارحى : هو العارف بالله تعالى الشيخ أبو السعود الجارحى ، كان يقيم فى زاوية بكـوم الجارح وإعتقد المماليك ومعهم بعض أهل مصر فى صلاحه وقد بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم وإتباع سبيل العلم والفقه فى الدين حتى لقد أصبح من كبار علماء الفقه والنحو فى مصر ، وما لبث أن تفرغ فى أخريات حياته للعبادة ، ولقد توفى سنة ٩٢٩ هـ / ١٥٣٢ م. أنظر الترجمة الكاملة عنه فى كتـاب : الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة لمؤلفه : نجم الدين الغزى جـ ١ ، ص ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩.

المنصب يخرج الأمراء عليه ويخلعونه ويعتقلونه بعد مدة وجيزة) ومن ثم أحضر الشيخ جميع الأمراء وطلب منهم القسم على المصحف على أنهم لا يغدرون ولا يخونون ويقفوا بجانب طومان باى فى ظل هذه الظروف الراهنة.(١) وتقدم بخطوة جريئة فى مجلسه فقد ألغى طومان باى ما كان على الدكاكين من المشاهرة والمجامعة.(٢) وخرج الأمراء من عند الشيخ وهم تائبين إلى الله بعد أن ذكرهم بأن الله ماكسرهم وذلهم وسلط عليهم إبن عثمان إلا بدعاء الخلائق عليهم فى البر والبحر ، وإنتهى الإجتماع بسلطنة طومان باى، وفى حفل متواضع - لسوء الحالة - خلى من مظاهر الأبهة والعظمة المعهودة ، تمت مبايعته سلطانا على مصر فى رمضان ٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م ، وتحمل طومان باى المسئولية ولم يدركها سوى القليل من الأمراء وصنوه فى الكفاءة.(٣)

وكان طومان باى يعلم أن مقاومته للعثمانيين لن تجدى ويعزف تماما المصير الذى ينتظره هو ودولته ، ولكن رغم هذا كله كان يشعر فى أعماقه أنه قدر له حمل لواء المقاومة المملوكية حتى النهاية رافضا كل العروض التى قدمها له السلطان سليم.(٤)

من الواضح : أن الإشرف طومان باى قد ورث تركة مثقلة بالأعباء لأنه تولى السلطنة فى ظروف ل يحسد عليها حاكم ؛ ويفترض أن أقل ما ينتظره بعد أن ضحى وقبل منصب السلطنة فى تلك الظروف أن يجد تعاونا من أمراء المماليك لكن خاب ظنه لأن المماليك قد وصلوا آنذاك إلى درجة من الإنحطاط والإنحلال أعمتهم عن رؤية الخطر المحدق بهم من كل جانب.

---

(١) أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ، ص ١١٢.

(٢) **المشاهرة والمجامعة** : هى ضرائب تجمع من السوقة وتدفع إلى المحتسب كل شهر ليوردها إلى خزائن السلطانية ، ونتج عنها أن الباعة إضطروا إلى تعويض قيمتها برفع الأسعار فإشتد الغلاء. موير : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ص ٧٦ ، ٧٧.

(٣) إبن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ، ص٦٩ ، ٧٠.

(٤) عاشور : الأيوبين والمماليك ، ص ٣٣٨ ؛ وكتابه : العصر المماليكى ، ص ١٩٤ ، ١٩٥.

ولم تلبث أن جاءت الأخبار إلى القاهرة بأن العثمانيين قد أتموا الإستيلاء على بلاد الشام فقال الناس : (مابقى بعد الشام إلا مصـر ، وإشتد الهلع وفكر الكثيرون منهم فـى الهروب إلى الصعيد).(١)

وفى تلك الأزمة الخطيرة ، لم يقدر المماليك خطورة الموقف الذى تواجهه البلاد ، فإشترطوا على طومان باى الجامكية ومصاريف باهظة كى يخرجوا للقتال (٢) فأضطر طومان باى أن يستحث العوام (الذعر ، الصبيان ، الشطار) قائلا : (أخرجو وقاتلوا عن أنفسكم وأولادكم وأرزاقكم ، فإن بيت المال لم يبق فيه درهما ولا دينارا ، ,انا واحد منكم ، فإن خرجتم خرجت معكم وإن قعدتم قعدت معكم ، ما عندى نفقة أنفقها عليكم).(٣)

(٤) واقعة غـزة :

طلب نائب غزة من السلطان مدد فجمع له عشرة آلآف مقاتل من بينهم المماليك الذين كانوا فى الطباق (المدارس الحربية المملوكية) ولم يشتركوا فى قتال قط ومعهم الهاربون من معركة الشام ، وكانت سمة هؤلاء جميعا التباطؤ والتراخى والتقاعس ، لقلة النفقة حتى لقد إضطر طومان باى إلى الحروج بنفسه لقتال سليم. (٤)

ليستحثهم على القتال دفاعا عن أعراضهم وأولادهم وزوجاتهم وأموالهم ، كذلك أرسل مع الحملة بعض رماة البنادق والقنطارية من أهل مصـر وسـودانها ـ العبيد ـ فى ثلاثين عجلة

---

(١) أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ، ص ١١٢ ، ١١٣.

(٢) الجامكية : كلمة فارسية الأصل ومعناها الرواتب التى تصرف إلى المحاربين بقصد شراء الملابس ، ثم صارت بعد ذلك فى الإصطلاح المملوكى والعثمانى ومعناه مرتب الجنود بشكل عام . إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ١٧.

(٣) الذعر أو الزعارة : وهم العامة من الناس ، الحرافيش ـ الصبيان ـ الشطار ـ اللصوص. إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٤٧ حاشية ١.

(٤) إبن إياس : بدائع الزهور جـ٥ ، ص ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١.

تجرها الأبقار ، أما رماة المكاحل - المدافع - فقد أرسلهم على الجمال.(١) فتوجه هذا الجمع الغير متحمس للقتال يقوده جان بردى الغزالى الذى وصل مصر بعد هزيمة مرج دابق.(٢) وإلتقى الفريقان وهجم العثمانيون على غزة فى أعداد كبيرة كالجراد ، لا يحصى عددهم بقيادة الوزير سنان باشا - حيث أن سليم قد ذهب لزيارة بيت المقدس - وقد تسلحوا بالمدافع الكثيرة التى حملت على عجلات خشبية تسحبها الأبقار والجاموس أمام الجنود ، وكان ضمن أسلحتهم رماح بكلاليب يخطفون بها الفارس عن فرسه ، حتى أنهم أسقطوا الغزالى عن فرسه وكادوا يقتلونه لولا غلمانه الذين خلصوه من أيديهم.(٣)

وقد إنتقم العثمانيون من أهل غزة بسبب مساعدتهم للمماليك فقتلوا منهم أكثر من ألف إنسان

---

(١) القنطارية : هى آلة من آلات الحرب الكثيرة . إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٢٧ حاشية ٣.

(٢) حملة الغزالى : وصلت خان يونس التى تقع فى فلسطين وهى أول محطة لنزول الوافدين على حدود مصر من طريق الشام ، وكلمة خان ، متعددة المعانى وهى إختصار قاغان أو خاقان وإستعملت مرادفة لكلمة شاه أو ملك ومنها أماكن مثل خان الخليلى فى القاهرة .
إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٤٦ ، حاشية ٣.

(٣) إبن إياس : بدائع الزهور جـ٣ ، ص ٨١.

(رجالا ونساءا وأطفالا).(١)

وهرب من نجى من المعركة وعادوا لمصر فارين فى أسوأ حال.

يبدو مما سبق : أن هذه الهزيمة كان أساسها الخيانة التى تمثلت فى الغزالى شريك خاير بك ، حيث تظاهر بالحرب مع العثمانيين فلما رآهم إستولوا على غزة عرج عنها وإتجه إلى الشمال وكلها حروب تمثيلية ، وبالطبع إنهزم فيها وولى الأدبار منسحبا مع من بقى من المماليك.

وفى أوائل ذى القعدة ٩٢٢ هـ يناير ١٥١٧ م تسلم طومان باى رسالة من السلطان سليم يعرض عليه الصلح مقابل إعترافه بالتبعية له.(٢) وجاء فيها الآتى : (من مقامه السعيد إلى الأمير طومان باى - أما بعد ، فإن الله قد أوحى إلى أن أملك البلاد شرقا وغربا كما ملكها الإسكندر الأكبر ذو القرنين ، وأنت مملوك تباع وتشترى ولا تصلح لك ولاية على ملك ، وأنا ملك إبن ملك إلى عشرين جد ، وتوليت السلطنة بعهد من الخليفة والقضاة ... وإن أردت أن تنجو من سطوة بأسنا ، فاضرب السكة فى مصر بإسمنا وتكون نائبنا هناك ولك من غزة إلى مصر ولنا من الشام إلى الفرات ، وإن لم تدخل فى طاعتنا ، أدخل إلى مصر وأقتل جميع من بها من الجراكسة)(٣)

---

(١) فريد : الدولة العلية ص ٧٥ ؛ ماجد : التاريخ السياسى لدولة المماليك فى مصر ، ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ ؛ ماجد : طومان باى ، ص ١٤٥ ، ١٤٦.

(٢) يورد زيدان نص هذه الرسالة فيقول : (الحمد لله - أما بعد فقد تمت إرادتنا الشاهنية ،إنتهينا من إسماعيل شاه ، وأما الغورى الكافر الذى حملته وقاحته على مناوأة الحجاج فقد نال جزاءه ولم يبق لدينا إلا التخلص منك ، فأنت جار معاد ، والله سبحانه وتعالى يساعدنا على ذلك ، فإذا أردت إكتساب رحمتنا الملوكانية ، إخطب لنا وإضرب النقود بإسمنا وتعالى إلى أعتابنا وإقسم على طاعتنا والإخلاص لنا وإلا ......) • جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث جـ ١ ، ص ٣٨٠.

(٣) إبن إياس : بدائع الزهور جـ٣ ، ص٨٣ ؛ زيادة : نهاية السلاطين ص ٢٢٢ ؛ طرخان : مصر فى عصر الجراكسة ، ص ١٨٦ ؛ السيد محمد الدقن : الأشرف طومان باى ، ص ٦٤.

من الواضح أن هذه الرسالة تظهر حقيقتين هامتين : الأولى (عدم إعتراف السلطان سليم بسلطنة طومان باى إستنادا لوجود الخليفة العباسى والقضاة عنده ، وإن أكرهوا على البقاء هناك بعد أسرهم بالشام والثانية : لم يكن فى تخطيط السلطان سليم غزو مصر ، لأنه إذا إستجاب السلطان طومان باى لطلبه فما الداعى إذن لدخوله مصر ، وهو الذى أبدى تخوفه من ضياعه فى أرض العرب.

فلما قرأ طومان باى الرسالة غضب وأصر على القتال ، مع علمه بسوء الحالة ، فقد فضل الموت فى ساحة الوغى على التسليم ويكون نائبا لسليم.(١)

ولكن كيف كانت أوضاع مصر فى تلك الفترة ؟

كانت الأحوال فى غاية الكآبة والأوضاع مضطربة بسبب الإشاعات فضلا عن فتنة مماليك الطباق الذين حرقوا الأسواق التجارية التى فيها أجانب ، لا سيما خان الخليلى وكذلك ظهور بعض جواسيس العثمانين فى وسط القاهرة ، وهناك الحزن فى كل حارة بل فى كل بيت.

ولقد أسرع طومان باى إلى إحتجاز المشتبه فيهم من الأجانب للتحقيق معهم وأخفى كل خطواته حتى لا تصل إلى أعدائه ، وطلب من الأساتذه اليقظة والحذر(٢) ولولا همة طومان باى فى ذلك لكانت القاهرة قد خربت عن آخرها.(٣)

وإزدادت مشاكل القاهرة بهجرة أهالى الشرقية وبلبيس إليها (٤) خوفا من تحرك العثمانيين نحو مصر فإرتفعت الأسعار وقلت الأقوات ، وغير طومان باى المحتسب (الموظف المختص

---

(١) السيد الدقن : الأشرف طومان باى ص ٦٥ ؛ جرجى زيدان:تاريخ مصر الحديث، ص ٣٨٠.

(٢) إبن إياس : بدائع الزهور جـ٣ ، ص ٧٧ ؛ ماجد : طومان باى ، ص ١٤٧ ، ١٤٨.

(٣) إبن إياس : المصدر السابق، جـ٣ ، ص ٥٥.

(٤) بلبيس : مدينة من أعمال محافظة الشرقية بينها وبين الفسطاط فراسخ وتقع على طريق الشام وتبلغ مساحتها ١٨٥٠ فدان.
ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٢ ، ص ١٢٦٢؛ إبن دقماق : الجواهر الثمين جـ ٥ ، ص ٦٩.

بالسوق) لتحسين الأحوال ، وهناك مشاكل تمثلت فى الأمراء على رأسهم سودون(١) رئيس نوبة النوب (٢) والغزالى اللذان طمعا فى السلطنة والجلبان والعربان لاسيما قبيلتى غزالة وهوارة (٣) وفرسانهم الذين إجتمعو فى الرميلة بالقرب من الجيزة بعد مكاتبة سليم لمشايخهم مثل أحمد بن بقر شيخ غزالة (٤)

وعلى الرغم من قلة المال اللازم للصرف على الجنود وتسليمهم بسبب نقل الغورى وأمرائه معظم المال للشام ، فإن طومان باى قد أظهر همة فى صنع البارود وآلاته ، فسبك المكاحل وعمل البنادق.(٥)

وأمر بصنع مكاحل من النحاس بلغ عددها مائة محملة على عجل من خشب ، وجمع من البارود والرصاص والطوارق ما لا يحصى وجمع عدداً كبيراً من الرماة المصرين وسودانها

---

(١) سودون : يسمى أيضاً رئيس نوبة الأمراء ولمكانته بالبلاط السلطانى سمى بالأخ أو الجناب الكبير ويبدو أن نوبة مشتقة من النوبات وهى تعنى من يؤدون عملهم فى نوبات معينة . المقريزى : الخطط جـ ٣ ، ص ٣٤٢ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ، ص ١٤٥٥ ماجد : نظم سلاطين المماليك جـ ٢ص ٥٣ ، ٥٤.

(٢) إبن إياس : بدائع الزهور جـ٣ ، ص ٧٠ ، ٧١.

(٣) هوارة : تابعة للفيوم شمال بحر سيف ـ إبن زنبل ، ص ٦٣ حاشية ١.

(٤) الجيزة : كانت منفصلة إلى ثلاثة أقسام وجعل الفاطميون قسمى أوسيم ومنف قسما واحدا عرف بالجيزة وبقيت أطفيح قسما منفصلا وإستمر ذلك حتى عصر المماليك الجراكسة . رمزى : القاموس الجغرافى ق ٢ ، جـ ٣ ، ص ٦.

(٥) إبن إياس : بدائع الزهور جـ٣ ، ص ٤٥٥ يقول النص (عمل طوارق خشب وكفيات وبنادق وغيرها) من الطوارق فإن Dozy Suppl, 2 p. 40, 41 يرى أن هذه اللفظة يصعب تحديد معناها لأنها أجهدت المستشرقين قبله ويذكر ماجد : أنها أسلحة لأنه كان زمن الفاطميين فرق خاصة بها ومعسكر بالقاهرة ... بجانبه حارة الطوارق . ماجد : نظم الفاطمين جـ ١ ، ص٢٠٤ ح١.

- عبيدها - وحانوا دائمى التمرين حتى أن القاهرة كانت ترج من قذائفهم.(١) وكان من رأى طومان باى مهاجمة سليم فى الطريق ولايدعه يصل للقاهرة ، على أساس أن صحراء مصر الشرقية قد تنهك جيشه ، لا سيما أنه سيسلك طريق الصحراء وليس الساحل ولكن تحت ضغط وتكاسل أمراء المماليك طرح خطته جانبا وإضطر لإنتظار العثمانيين ومن ثم لم يجد العثمانيون مقاومة تذكر فى زحفهم على القاهرة ، سوى بعض العربان الذين هدفوا للسلب والنهب فقطعوا رؤوس بعض الجنود وأرسلوها للقاهرة لقبض الثمن.(٢)

وقام طومان باى بحرق شون الغلال الواقعة خارج القاهرة حتى لا يستفيد منها العثمانيون وفى ظل هذه الظروف العصيبة ، إستهتر المماليك بالموقف وردوا نفقة السلطان ، فملأه الأسى والحزن ، وطلب منهم أن يولوا سلطانا غيره ، بل بلغ السفه والحمق ببعضهم حين قال على مسمع منه شخصيا (إن كنت تعمل سلطانا فامشى على طريقة من تقدمك من سلاطين وإن ذهبت فلعنة الله عليك ، يجئ غيرك يعمل سلطانا علينا).(٣)

وبالطبع لم يفعل طومان باى شيئ يذكر سوى تأنيبهم على موقفهم المتخاذل وترضيتهم ، هذا فى الوقت الذى يزحف فيه جيش العثمانيين على مصر يتقدمه ستة آلاف من الخيالة ، ويرابط الأسطول الأمبراطورى فى شرقى البحر المتوسط ينتظر ما تسفر عنه الأحداث ويتدخل عندما يطلب منه.(٤)

---

(١) إبن إياس : بدائع الزهور جـ٣ ، ص ٦٩ ويقول إن المغاربة من سكان مصر إنضموا للرماة أيضا راجع نفس المصدر جـ ٣ ، ص ٩١.

(٢) ماجد : طومان باى ص ١٥٤ ؛ ماجد التاريخ السياسى لدولة المماليك ص ٣٥١.

(٣) طرخان : مصر فى عصر الجراكسة ، ص ١٨٨.

(ب) واقعة الريدانية ٩٢٢ هـ / ١٥١٤ م

بعد واقعة غزة بأيام قلائل وصل وفد من طرف سليم إلى طومان باى مكون من خمسة عشر رجلا بصحبتهم مصرى يدعى (عبد البر بن محاسن) (١) وثلاثة من الأعراب دلوهم على طريق الدرب السلطاني غير المطروق مقابل رشوة فوصلوا للقاهرة ، فأمر طومان باى بقتل الأعراب الثلاثة وسجن إبن محاسن ، وبجانب الرسالة التى يحملها الوفد لطومان باى كانت له مهام أخرى أهمها :

- الإتصال ببعض الأروام فى خان الخليلى للحصول من خلالهم على معلومات عن حالة مصر وإستعدادها وقد تم القبض على هؤلاء الجواسيس وسجنوا. (٢)
- تسليم أموال لبعض أمراء المماليك والمباشرين وأعيان الديار المصرية لإستمالتهم.
- توصيل رسائل من خاير بك لبعض الأمراء المتقدمين لإغرائهم بالدخول فى طاعة سليم.

وقد حضر بصحبة هذا الوفد حوالى أربعون عثمانيا أختفوا داخل القاهرة للتجسس .(٣) وقد رأى طومان باى الجنوح للسلم حقنا لدماء المسلمين بعد قراءة رسالة سليم (٤) ولكن قام الأمير علان الدودار الكبير بقتل الوفد العثمانى ، وأعلن عزمه على القتال مخاطبا طومان باى بقوله : (أرى أن نقاتل عن بلادنا وحريمنا وأرزاقنا أو أن نقتل جميعا عن آخرنا).(٥)

---

(١) كان إبن محاسن يشغل منصب كاتب الخزانة لدى الأتابكى سودون العجمى وأنضم لسليم بعد مقتل سيده مع يونس العادلى والسمرقندى وغيرهم وجاء لمصر بصحبة جيش سليم . الدقن : طومان باى ص ٦٤ ، ٦٥.

(٢) عدلى فريد : السلطان قانصوه الغورى وعصره ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢.

(٣) إبن إياس : بدائع الزهور جـ٣ ، ص ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤.

(٤) نص كتاب السلطان سليم إلى السلطان طومان باى موجود فى نهاية هذا البحث بالملاحق.

(٥) يرى إبن إياس أن طومان باى هو الذى أمر بإغراق هذا الوفد فى النيل بعد إصرار المماليك على

وبذلك إنتهى الأمر إلى ضرورة مقاومة العثمانين . (١)

(١) الإستعداد للقتــال :

كان طومان باى فى موقف لا يحسد عليه ، فالخزائن خاوية ، والجنود لم يعد لهم مأرب سوى السلب والنهب والأمراء فى عصيان والفوضى ضاربة أطنابها ، والناس فى قلق وذعر لا يعرفون المصير ، والخشية من العدو الزاحف مفزعة ، والعربان يناصبون الجراكسة العداء ، ويزيدون فى فزع الناس بالفتك والنهب .(٢)

وقد وجد طومان باى صعوبات لا حصر لها فى سبيل الإستعداد لقتال فرض عليه فرضا.

من الواضح أن طومان باى إستطاع بما فى وسعه من حيلة وجهد وبما أوتى من إيمان وشجاعة وصبر وجلد وبما بذله من جهود مضنية أن يعيد تنظيم جيشه ــ لا سيما بعد تمزقه فى غزة ــ وأن يزوده بالمدفعية والبنادق ويقيم الإستحكامات اللازمة ، ويضع الخطط الضرورية للدفاع عن مصر فبذل النفقة اللازمة للأمراء والجنود بالطرق المشروعة ، حيث رفض إقتراح بعض الأمراء بالإستيلاء على الأملاك والوقف والإقطاعات ليستعين بها على النفقة إقتداء بما فعله قايتباى والغورى ، فقال : (لن أحدث فى أيامى مظلمة أبدا)

ويعلق على ذلك إبن إياس بقوله : (لو فعل ذلك لجاز وقيل إنه معذور ، لدفع العدو عن

(١) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٤٦ حاشية ٤٣ عدلى فريد : السلطان قانصوه الغورى وعصره ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨.

(٢) إبن زنبل : المصدر السابق ، ص ٤٤. بتفصيل راجع : عدلى فريد : السلطان قانصوه الغورى

مصر ، ولكن وفقه الله إلى فعل الخير).[١]

هذا وقد إقتصر طومان باى على جمع أموال الطبقة الحاكمة وأتباعهم الذين أثروا عن طريق جمع الأموال ظلما من الشعب ،

وأخذ مبلغا كبيرا من محمد بن الغورى وباع التحف والذخائر والأسلحة القديمة والأقمشة والصوف الموجود بالخزائن من أجل توفير النفقة وراتب الجند .[٢]

وقد أقام معسكر بالريدانية يتجمع فيه الجنود ويستعرض الأسلحة هناك وفى صفحات متفرقة من تاريخ إبن إياس نجد وصفا دقيقا لتلك الأسلحة والإستعدادت التي بذلها طومان باى [٣] ويقول : (فى يوم الأثنين الثانى عشر من ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م خرج طومان باى بصحبة العسكر إلى الميدان - الريدانية - وإنسحبت أمامه العجلات الخشبية التى صنعها وبلغت مائة عجلة - يسميها العثمانيون-عربة - وكل عجلة يسحبها زوج من الأبقار - وفيها مكحلة من النحاس ترمى الرصاص ، فنزل السلطان بنفسه وصار يرتب العجلات فى مشيها بالميدان ، ثم سار بعد العجلات مائتا جمل محملة طوارق بلغت ألف وخمسمائة طارقة ، وأمام العجلات أربعة طبول وأربعة زمور وأمامها مائتى رامى وجماعة يرمون النفط...)[٤]

وخرج الأمراء والمقدمون إلى الريدانية شيئا بعد شيئ بجماعات حربية ومماليكهم مرتدية آلة الحرب وهم على ظهور الخيل وهذه التجريدة أكثر من تجريدة الغورى ، وكان لطومان باى

---

(١) إبن إياس : بدائع الزهور جـ٣ ، ص ٨٤.

(٢) إبن إياس : المصدر السابق جـ ٣ ، ص ٨٥.

(٣) عدلى فريد : السلطان قانصوه الغورى وعصره ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٧.

(٤) إبن إياس : المصدر السابق ، ص٩١، ٩٢. هذه السرايا تمثل الحرس الخاص للأمراء المماليك

همة عالية ومقصد جميل لعل الله ينصره على إبن عثمان ، الباغى على مصر المتعدى عليها بغير سبب .(١)

وأشيع أن طومان باى قد استعان بحاكم رودس الذى أمده بألف رامى بالبندق الرصاص ، وأرسل إليه عدة مراكب محملة بالبارود فوصلت ثغر دمياط ومنه إلى القاهرة لكن الثابت أن كل ما استعمله كان صناعة مصرية ، وهو دليل على تقدم الصناعة المصرية فى ذلك الوقت.(٢)

وبعد أن إستكمل طومان باى تنظيم جيشه وتسليحه والتفتيش عليه بالريدانية عزم على الخروج ليلا إلى الصالحية لملاقاة جيش سليم وهو منهك القوى منعه الأمراء وقالوا (ما يقع بيننا وبينه قتال إلا فى الريدانية).(٣)

وإضطر طومان باى إلى عمل الإستحكامات حول الريدانية ، فأمر بحفر خندق من سبيل علان إلى الجبل الأحمر حتى غيطان المطرية.(٤)

---

(١) إبن الحمصى : (أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصارى الشافعى) مصدر مخطوط : حوادث الزمان وأنباؤه ووفيات الأعيان وأبناؤه ـ مخطوطة بمكتبة رفاعه الطهطاوى بسوهاج تحت رقم ٢٣٩ تاريخ وتوجد نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية فيلم رقم ٤٨٠ ، جـ ٣ ، ورقة ١٢٠.

(٢) إبن إياس : بدائع الزهور جـ٣ ، ص ٩٢ ، ٩٣.

(٣) موير : تاريخ دولة المماليك ، ص ٣٥٠ ؛ عدلى فريد : الغورى وعصره ص ٢٤٥ ، ٢٤٦.

(٤) المطرية : كانت تعرف باسم عين شمس وهى تقع فى الشمال الشرقى لمدينة القاهرة ، وتمتاز بآثارها العجيبة ، وكانت زمن إزدهارها متصلة البناء بمصر القديمة (الفسطاط). إبن دقماق : الإنتصار لواسطة عقد الأمصار ، جـ ٥ ، ص ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥.

ونصب على ذلك الخندق الطوارق والمكاحل والسبقيات والمكفيات[١] وصف حولها العربات الخشبية التى صنعها بالقلعة ، كما عمل حائط يستر به المكاحل التى نصبها بالريدانية وإشترك بنفسه فى عمل الحائط فحرك الجنود وعملوا بهمة عالية.[٢]

ولم يقتصر جيش طومان باى على المماليك فقط ، بل ضم له العربان ، لاسيما عرب غزالة ومحارب والهوارة ، فضلا عن المغاربة المقيمن بالقاهرة ، وإرتفع عدد الجنود نحو الثلاثين ألف[٣] ، وذكر أن العدد بلغ الأربعين ألف.[٤]

(٢) الزحف العثمانى تجاه القاهـرة :

زحف السلطان سليم بجيشه من غزة وإستولى على العريش ، ثم واصل زحفه حتى وصل إلى قطيا (قطية)[٥] وأنهكه السفر وقلة المئونة ومن هناك أرسل السلطان سليم إلى مشايخ العربان يعدهم ويمنيهم ويطلب مدد جيشه بالطعام للجنـود والعليق للخيل وكـان أول مـن إستجاب لـه الشيخ أحمد بن بقر.[٦]

ثم واصل سليم زحفه عن طريق الصالحية فوصل الـى بلبيـس دون مقاومـة وفـى تلك الأثنـاء أرسل طومان باى بعض أفراد الإستطلاع فعادوا إليه برأسين لجنديين عثمـانيين وأسير مـن

---

(١) السبقيات والمكفيات : آلتان من آلات الحرب إستعملها الروم فى حربهم مع الممـاليك ، ومـا كـان للمماليك عهد بهما من قبل. إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٩٢،حاشية١.

(٢) جاء فى بدائع الزهور ما نصه : (... إن السلطان طومان باى أخذ يحمل الحجارة بنفسه ، فلما رأى العساكر ذلك تحركوا ، وصاروا يحملون التراب وينقلونه مع العمال الفعلـة فـى حفـر الخندق). إبن إياس جـ ٣،ص ٩٣. راجع : عدلى فريد : الغورى وعصره،ص ٢٤٥ ، ٢٤٦.

(٣) إبن الحمصى : مخطوط (حوادث الزمان) جـ ٣،ص ١٢٠.

(٤) القرمانى : أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ، ١٢٨٢ هـ طبعة بغداد ، ص ٣١٥.

(٥) قطيا : مدينة فى سيناء تتخذها الجيوش نقطة إرتكاز وتموين . إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٤٧،حاشية ٣.

(٦) إبن بقر : شيخ عربان الشرقية وتبع العثمانيين . إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٤٧ ، ٤٨.

إلى حلب ومعه رسائل من خاير بك إلى بعض امراء المماليك ، (١) هذا وقد أخبر الأسير بأن الجيش العثماني في حالة إرهاق شديد لأن معظمهم قد جاء ماشيا على قدمه من الشام ، كما أن لهم وخيولهم عاجزين عن الحركة بسبب نقص الإمدادات.(٢)

وعندئذ قرر طومان باى الهجوم المفاجئ على الجيش العثماني لأنها فرصة عظيمة ، فرفض أمراء المماليك ذلك ، ويتحسر ابن إياس المؤرخ على ضياع تلك الفرصة فيقول : (... ولو لاقاهم هناك لكان عين الصواب ، فإن خيولهم قد عجزت من الجوع والتعب، ومعهم الجنود، وربما كسرهم قبل أن يدخلوا الخانقاه (٣) حيث العليق والمأكل والمشرب والراحة)(٤)

---

(١) إبن دقماق : الجوهر الثمين ، جـ ٥ ، ص ٦٩.
(٢) إبن إياس : بدائع الزهور جـ٣ ، ص ٩١.
(٣) الخانقاه : هى كلمة فارسية وتعنى بيت العبادة ولقد أنشئت أول خانقاه فى مصر زمن السلطان صلاح الدين الأيوبى وكانت للفقراء والصوفية ، وتطورت بعد ذلك إلى تكايا. ورد فى نص بدائع الزهور أن طومان باى فرض على العثمانيين حرب عصابات فقال (فصارت فرسان الجراكسة تشن الغارات على معسكر سليم وكل من إستفرضوا به أخذوا رأسه وجاءوا بها إلى طومان باى فصار يجذل لهم العطايا) إبن إياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٩٤ ، ٩٥.
كما يذكر المقريزى تعريف آخر لها فيقول : الخانقاه والرباط والزاوية ، جمعها خوانق ورباطات وزوايا ، معاهد دينية إسلامية للرجال والنساء ، وهى كالأديرة فى المسيحية غير أن تلك المعاهد الإسلامية لم تكن يوما للرهبنة ، وإنما أنشئت لإيواء المنقطعين للعلم والزهاد والعباد وكان الغرض منها فعل الخير ، لفظ الخانقاه فارسى ومعناه البيت وهى حديثة فى الإسلام - وفى حدود الأربعمائة - وجعلت لتخلى الصوفية فيها للعبادة والتصوف وأول من أحدث الخوانق فى مصر السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وكانت الخانقاه التى أنشأها دارا تعرف بدار سعيد السعداء ، نسبة إلى الأستاذ قنبر سعيد السعداء ، عتيق الخليفة المستنصر الفاطمى ، وكانت هذه الدار مقابل دار الوزارة ، ثم جعلها صلاح الدين للفقهاء الصوفية ، الواردين من البلاد الشاسعة ، ووقفها عليهم فى سنة تسع وستين وخمسمائة وولى عليها شيخا ، ووقف عليها بستان الحبانية ، بجوار بركة الفيل خارج القاهرة .
وشرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين دينارا فما دونها ، كانت للفقراء ، ولا يتعرض لها الديوان السلطانى ، ومن أراد منهم السفر يعطى تسفيره ، ورتب للصوفية فى كل يوم طعاما ولحما وخبزا ، وبنى لهم حماما بجوارهم ، فكانت تلك أول خانقاه عملت بديار مصر ، عرفت بدويرة الصوفية ، ونعت شيخها بشيخ الشيوخ وإستمر الحال على ذلك ....) المقريزى : المواعظ والإعتبار جـ ٢ ، ص ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦.
(٤) إبن إياس : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٩٥.

لما رفض الأمراء فكرة طومـان بـاى قام بشن حرب العصابات عليهم ، كما قام عربان السوالمة وغيرهم بالإشتراك فى تلك الحرب وإستطاع بعض العربان أن يحتال على الخائن إبراهيم السمرقندى الذى حضر بصحبة السلطان سليم ، وأن يقتله ويحضر رأسه إلى السلطان طومان باى (الذى علقه بدوره مع باقى الخونة على باب زويلة). (١)

والواقع أن طومان باى كان يحـاول رد عادية العثمـانيين عن مصر بشتى الوسائل ، ولكن المكيدة والخيانة لعبت دورها ، فقد عمد سليم إلى أعمال الحيلة لتمزيق شمل الممـاليك وبث الفرقة والفتنة بينهم بعد أن ضايقته حرب العصابات وإجماع الممـاليك على مقاومته فأحضر كاتبا معروفـاً بالقدرة على تقليد جميع الخطوط ويتقن عدة لغات وأمـره أن يكتب عدة رسـائل على لسان أمراء المماليك ومحمد بن الغورى على أن يحاكى فيها خطوطهم يعربون فيها عـن ميلهم للسلطان سليم وتحريضهم له على المجيئ إلى مصر.(٢)

ثم أحضر رجلا من رجال خاير بك وأمره بالذهاب إلى معسكر المصريين وإلقاء هذه الرسائل بالقرب من خيمة طومان باى ، والإنتظار لرؤية ما يحدث ثم العودة بالخبر ووصلت الرسـائل ليد طومان باى وعرض الأمـر على الأمراء الذين أقسموا بالأيمـان المغلظـة على أن هـذه الرسائل لم تصدر منهم ، وحدثت فتنة وكادوا أن يفتكـوا ببعضهم ، لـولا حكمـة طومـان بـاى وفطنته ، فقضى على الفتنة قائلا (ربما تكون مكيدة من الأعـادى واللـه يجازى كل منا بما يستحق ، ولكن كونوا مستعدين للقاء عدوكم).(٣)

وإذا كانت المكيدة قد فشلت فإن الخيانة قد آتت ثمارها ، فبعد وصول سليم إلـى الخانقاه ، بدأ طومان باى فى تنظيم جيشه وتنسيق الأسلحة والمعدات وأخرج المدافع الكبيرة من مخابئها فى

---

(١) إبراهيم السمرقندى : كان من خلصاء السلطان الغورى ، ثم إنضم بعد مقتله للسلطان سليم وصحبه أثناء هجومه على مصر فلقى جزاءه . موير : تاريخ المماليك فى مصر ، ص ١٧٨.
(٢) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٤٨.
(٣) إبن زنبل : المصدر السابق، ص ٤٩.

الجبل ونصبها على حافة الخندق فى مواجهة ميدان المعركة المنتظـر (١) وهنـا تجلت خيانـة الغزالى فى تلك اللحظات الحاسمة فى تاريخ مصر ، فأشار على طومان باى بدفن المدافع فـى الرمال حتى لا يراها جواسيس العثمانيين ويخبرونهم بذلك وألح فى مشورته حتى أقنع الأمراء بها، ثم أرسل خطابا إلى خاير بك يخبره بأمرها وأسلحة المصريين وإستعدادهم ، بـل ويشير عليه بالإلتفاف من جانب الجبل حتى لا يكونوا فى مرمى أسلحتهم ، وبالطبع جنـى العثمـانيون فوائد تلك الخيانات.(٢)

(٣) إندلاع الريدانية ٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م :

فى يوم الأربعاء الثامن والعشرين من ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ / الحادى والعشرين مـن ينـاير سنة ١٥١٧ م إقـترب العثمـانيون فى زحفهم مـن العاصمـة ، فوصلـوا إلـى بركـة الحـاج.(٣) وأعلن نفير الحرب فى المعسكر المملوكى ، ويصف الإسحاقى همـة طومـان بـاى والإستعداد للمعركة بقوله : (فجند الجنود وعقد الألوية والبنود وبرزوا إلى الريدانية خـارج بـاب النصر ونصبوا المدافع الكبيرة وهينوها للإطلاق إذا أقبلت العساكر العثمانية).(٤)

وجمع طومان باى البر(٥) والتموين خلف الجيش ، لأنه كـان يظـن أن العثمـانيين سيقابلوه

(١) إبن إياس : بدائع الزهور جـ٣ ، ص ٩٤ ، ٩٥ ،٩٦.
(٢) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠.
(٣) بركة الحاج : أو بركة الحج أو الحجاج ، وهى من النواحى القديمـة كـانت تسمى جب عميرة ويقال لها الجب وتقع شمال شرق القاهرة فى جنوب الخانقاه وشرق المرج . محمد رمزى : القـاموس الجغرافى ق ٢ جـ ١ ، ص ٣١.
(٤) الإسحاقى : أخبار القاهرة ، طبعة مصر ١٢٩٦ هـ، ص ١٢٩.
(٥) البر : القمح ويقال الخبز لطعام الجنود . المعجم الوسيط ، ص ٥٠.

رجها لوجه فى ظاهر الريدانية (١) من الجبل الأحمر حتى غيطان المطرية وأن الحرب سوف تطول ، ولكن خاب ظنه إذ لم يكد الجيشان يتلاقيان فى يوم الخميس ٢٩ من ذى الحجة ٩٢٢ هـ/١٥١٧ م حتى إتضحت خطة الهجوم التى رسمها سليم مستفيدا من خيانة الغزالى ، فقام بتقسيم الجيش العثمانى إلى ثلاث فرق ، فرقة تواجه المماليك بالريدانية للمناورة.(٢) والأخرى تسير تحت الجبل الأحمر والمقطم وقد أحاطت بهم من اليمين إلى الخلف والثالثة تسير بإتجاه بولاق وأحاطت بهم من الشمال للخلف.(٣)

عندئذ أدرك طومان باى والأمير علان الدوادار والأمير كرتباى الوالى خيانة الغزالى وفكروا فى قتله ولكن عدلوا عن ذلك خشية إفتتان الجند وقت المعركة (٤)

والمتأمل فى المعركة يدرك جسامة الخيانة التى إرتكبها الغزالى وأثر ذلك حيث تحولت النتيجة لصالح العثمانيين حتى قبل القتال إذا علمنا أن مدفعا واحدا فقط من مدافع المصريين لم يدفن فى الرمال مع الآخرين لأن الجندى المكلف بالضرب عليه كان أخرسا ، وعند هجوم العثمانيين أطلق طلقة واحدة من المدفع فأحدث ثغرة فى عسكر سليم ، فإضطرب الجيش ولكن هرب الجندى بعدها مباشرة فإطمأن سليم.(٥) وبينما كانت المعركة دائرة والخنادق المصرية تعوق تقدم العثمانيين من جهة الريدانية إذا بالسلطان طومان باى يقذف بنفسه ومعه جماعة من المخلصين وسط صفوف العثمانيين قاصدين صنجق سليم فى عملية فدائية.(٦)

---

(١) ظاهر الريدانية : صحراء العباسية وعين شمس إلى بركة الحاج . إبن زنبل ، ص ٤٩.

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، جـ ١ ، ص ٢٢٨.

(٣) إبن الحمصى : حوادث الزمان ، جـ ٣ ، ص ١٢٠ ، موير : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ص ١٧٨.

(٤) الإسحاقى : أخبار القاهرة ، ص ١٢٩.

(٥) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٥٠ ، ٥١.

(٦) إبن طولون :مفاكهة الخلان.القسم الأول تحقيق محمد مصطفى،القاهرة١٩٦٤م ق١، ص ٧٣.

وصفها إبن زنبل بالبطولة الخارقة فيقول : (فمازالوا فى مشوارهم وهم يطعنون بالقنطاريات حتى غاصوا فى جميع عساكر العثمانيين بجملتها ــ فلله درهم من فرسان ... وليس الخبر كالعيان ، فمازالوا يضربون ويطعنون حتى وصلوا صنجق السلطان ...).(١)

وكانت مقتلة عظيمة ، قتل فيها طومان باى سنان باشا بعد أن بارزه ورفعه إلى أعلى رأسه ثم ألقاه على الأرض بعنف فحطم أضلاعه ، ثم قطع رأسه.(٢)

وكان يظن سليم نفسه ولكنه لم يكن موجودا آنذاك وقال طومان باى بحرقه ياسليم أنت غير سالم وكانت بالتركية (برمملكت آطابدل أوله ماز)(٣) وبعد علم سليم بمقتل وزيره الصدر الأعظم ، حزن حزنا شديدا ، وإعتبر فقدانه خسارة عظمى وقال : (إستولينا على مصر ولكن فقدنا سنان باشا ، خسارتنا فيه لا يمكن أن يعدلها مكسب دولة).(٤)

وصمم على الإنتقام ، فإنتهك جنوده حرمة المساجد بدخول الخيل فيها ، كما صعدوا المآذن بحثا عن المماليك الذين فروا من ميدان المعركة ، وقال إبن زنبل عن رش البندق (توفنك)(٥) (قاتل الله أول من صنعها وقاتل ورمى بها) وبلغت جملة قتلى المماليك فيها عشرة آلاف ، وبقى طومان باى مع قلة من الرماة والعبيد . (٦) دافعوا عنه ببنادقهم ، فلما تكاثرت عليه

---

(١) الإسحاقى : أخبار القاهرة ، ص ١٢٩ ؛ عاشور : العصر المماليكى ص ١٩٥ ، ١٩٦.

(٢) زيادة : نهاية السلاطين ص ٢٢٤ ؛ عاشور : الأيوبيين والمماليك ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠.

(٣) إبن إياس : بدائع الزهور جـ٣ ، ص٩٧.

(٤) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٣ ، ص ٣٣.

(٥) توفنك : الأسم التركى للبندقية.

(٦) إبن العماد الحنبلى : شدرات الذهب فى أخبار من ذهب ٨ أجزاء ، القاهرة سنة ١٣٥ هـ ج ٨ ص ١٤٥. ؛ إبن زنبل : آخرة المماليك ص ٣٤ ؛ فريد : الدولة العلية ص ٧٥ ، ٧٦ ؛ السيد الدقن : الأشرف طومان باى ص ٨٥.

الجنود العثمانية إنسحب إلى طره.[1]

وصفوة القول : كانت معركة الريدانية من أشرس المعارك التى دارت بين المماليك والعثمانيين ، حيث إشترك فيها السلطانان سليم وطومان باى الذى أظهر بطولة خارقة فى الدفاع عن مصر ، شهد بذلك المؤرخون والعثمانيون.

والواقع إن خسائر الجانبين كانت فادحة ، غير أن الهزيمة كانت من نصيب المماليك ، حيث إن الخيانة كانت ضاربة أطنابها فى الجيش كله ونتج عنها إحاطة العثمانيون بهم من كل جانب موجهين إليهم مدافعهم وبنادقهم من كل حدب وصوب.

(٤) دخول العثمانيين القاهرة :

دخل العثمانيون القاهرة يوم الجمعة ٣٠ من ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ / ٢٣ من يناير سنة ١٥١٧م فى موكب حاشد على رأسه الخليفة المتوكل وقضاة الشرع الثلاثة (الشافعى - الطويل والمالكى - الدميرى - والحنبلى - الفتوحى -) يرافقهم وزراء سليم من الخونة ، على رأسهم خاير بك ويونس العادلى وغيرهم.[2] وأقيمت الخطبة على منابر مصر باسم السلطان سليم ، وهناك من الخطباء من دعى بقوله : (أنصر اللهم السلطان بن السلطان ملك البرين والبحرين وكاسر الجيشين وسلطان العراقين وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه [3] اللهم

---

(١) طره أو طرا : مدينة تقع فى نواحى الفسطاط المجاورة وبالتحديد على خط سكة حديد حلوان جنوبى القاهرة ، وأصبح الآن لها شأن عظيم بسبب وجود مصنع الأسمنت بها وهو يمول من محاجر جبل المقطم الذى يشرف عليها من الشرق ويوجد بها مصنع كحول كبير . إبن زنبل : آخرة المماليك ص ٥٢، حاشية ٢.

(٢) إبن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب جـ ٨، ص ١٤٥.

(٣) الجيشين : الجيش الصفوى والمملوكى ، العراقين يقصد عراق العرب وعراق العجم.

الوزير (بيرى محمد باشا) (١) نائب للسلطنة فى مدينة إستانبول ، كما أرسل الشهرذاده سليمان محافظا إلى أدرنة ومشرفا على الروماللى.(٢)

وتحرك الجيش الهمايونى إلى ألبستان (التى تقع بين فارس وملاطية) فى يوم ٢٣ يوليو ١٥١٦ م يقوده السلطان سليم ومنها تحدد وجهة الجيش الهمايونى إما لإيران أو للشام ، وما لبث أن إجتاز الجيش العثمانى الحدود العثمانية - المصرية ووصل إلى ملاطية وهكذا إتضح هدف الحملة وفى يوم ٣٠ يوليو إجتمع المجلس العسكرى فى الضفة الجنوبية من نهر Tohma قريبا من ملاطية وقرر إحتلال بسنى الخاضعة للسيطرة المملوكية ، ترتب على ذلك قيام والى عينتاب Gaziantep يونس باشا بتسليم مفاتيح المدينة إلى البادشاه ، وكان رمضان أوغلو فى جنور أورفا التابعة للماليك قد سلم كذلك مفاتيحها له.(٣)

وبينما تجرى الأمور على هذا النحو ، راجع السلطان الغورى الشاه الصفوى وطلب منه التعاون ضد العثمانيين ، وحذره من أنهم سيتجهون لما بقى من فارس بعد فراغهم من الشام وبالطبع رفض الصفوى هذا الإتفاق ، حيث مضى على جالديران عامين .(٤)

(١) الموقف المملوكى قبيل المعركة :

قسم الغورى عساكره مقابل عساكر سليم ، فوضع فى المقدمة سيباى نائب الشام وعلى الميمنة جان بردى الغزالى نائب حماه وعلى الميسرة خاير بك نائب حلب وأقام السلطان لنفسه سرادقا

---

(١) بيرى محمد باشا : أحد الصدور العظام فى الدولة العثمانية ، درس القانون ، ووصل إلى منصب قاضى صوفيا ، ثم أشرف على مطاعم السلطان محمد الثانى (الفاتح) التى خصصها للفقراء فى إستانبول ، وأحبه السلطان سليم وعمل بمشورته الصائبة فى فتح فارس ، ثم عين وزيرا ثانى مكان مصطفى باشا ، ثم صدرا أعظم مكان يونس باشا فى مصر سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م . دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣ ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٤.

(٢) أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١.

(٣) ماجد : التاريخ السياسى لدولة المماليك الجراكسة ، ص ٣٤٣.

(٤) يبدو أن الشاه الصفوى إتعظ جيدا من الدرس الذى تلقاه فى جالديران.

كبيرا بالوسط وأحاط نفسه بالخليفة والقضاء وأعلام الصوفية ، وقاسم بك بن أخو سليم وغيرهم.(١)

ومن حولهم أربعون مصحفا فى أكياس من حرير أصفر من بينها مصحف الصحابى الجليل عثمان بن عفان الذى كان يقرأ فيه.(٢)

وطلب الغورى من القراء قراءة المصحف كاملا وقرأه معهم ، كما أكثر من الصلاة ، ورتب صنوف جيشه بنفسه ، وبذلك أتم الإستعداد للمعركة ، ولم يؤخذ على غرة ، وكان فى موكب عظيم ، يحفه الخليفة المتوكل والأشراف ، وجماعة الطرق الصوفية معهم أعلامهم الخاصة بهم ، وعلى بعد عشرين زراعا خلف الغورى يرفرف العلم السلطانى ، وهناك مقدم المماليك(٣) وكذلك القضاة الأربعة وأمير زردكاش ، والأمراء على أهبة الإستعداد.(٤)

ولكن ياترى مالذى دفع العثمانيين إلى قتال المماليك؟

كان هناك أسباب عديدة لهذا القتال ، تجمعت فى :

---

(١) ماجد : طومان باى ، ص ١٢٥ ، ١٢٦.

(٢) يوجد هذا المصحف فى متحف طوب قبو سراى التركى مع مخلفات أخرى كثيرة ذكر أنها منذ عهد الرسول عليه السلام ، وقد أخذها السلطان سليم معه إلى إستانبول بعد نصره على المماليك فى الشام ومصر . إبن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ، ص ٤٦.

(٣) مقدم المماليك : هو من أجل الطواشية وأقربهم إلى السلطان ، ويشغل رتبة أمير طبلخاناه ، ويعاونه نائب برتبة عشرة . وكان للأمراء أيضا مقدمون للقيام على شئون مماليكهم . وكان لمقدم المماليك الحق فى التحدث فى شأنهم ، ويحكم فيهم ، كما كان يحضر تفريق الجامكية عليهم.
المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٨٠ حاشية ٣.
إبن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ، ص١٥٥ ؛ جـ ٤ ص ٢٩١.

(٤) أمير زردكاش : هو رئيس صناع الأسلحة . بتفصيل راجع إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص٩ ؛ كما زاد القلقشندى فقال : الزردكاش هو الصانع الذى يعمل فى السلاح خاناه ، وفى صنع السلاح وإصلاحه وتجديده . صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٢.

* رغبة العثمانيين فى إنتزاع زعامة المسلمين من أيدى المماليك.

* العقلية الإسلامية التى تقبل آنذاك صاحب سيادة على المسلمين إلا من كان يسيطر على المقدسات الإسلامية وكان المماليك أصحاب تلك السيادة .(١)

* فتوى شيخ الإسلام العثمانى بضرورة الحرب مع مصر والشام وبأن مقتولهم شهيد.

(٤) معركة مرج دابق بالشام ٩٢٢ هـ – ١٥١٦ م (٢)

دارت المعركة فى يوم الأحد الموافق ١٥ رجب عام ٩٢٢ هـ / ٢٤ من أغسطس ١٥١٦ م فى يوم شديد الحرارة ، وقد أحاطت بها الخيانة منذ بدايتها.(٣) وفى هذه المعركة أبدى المماليك وسلطانهم الغورى شجاعة نادرة ، أفاضت فى وصفها كتب التاريخ ، حتى ذكر أن السلطان سليم فكر فى الهرب أو طلب الأمان كى يتمكن من إعادة تنظيم صفوفه.(٤)

وفى تلك اللحظات الحاسمة ظهر خاير بك ليتم دوره الآثم الذى بدأه ، فأخذ يطلق الإشاعات الكاذبة بين صفوف المقاتلين فهاهو يشيع أن السلطان الغورى أمر مماليكه الجلبان أن لا يتقدموا ويأمر القرانصة بالتقدم لجعلهم الطعمة الأولى لنيران العثمانيين وبعدها قال القرانصة : (نحن نقاتل بأنفسنا مع النار وأنت ـ الغورى ـ واقف تنظر إلينا بعين الشماته ، وما تأمر أحدا من مماليكك يخرج إلى الميدان !)(٥)

---

(١) ماجد : طومان باى ، ص ١٢٥ ، ١٢٦. ، ماجد : التاريخ السياسى للمماليك ، ص ٣٤٤.

(٢) مرج دابق : مكان مشهور فى حلب السورية . إبن زنبل : آخرة المماليك، ص ٢٦حاشية ٢.

(٣) يذكر إبن زنبل أن المعركة إندلعت يوم الأحد ٢٣ رجب ٩٢١ هـ / ٥ نوفمبر ١٩١٥ م إبن زنبل ص ١٤.

(٤) إبن إياس : بدائع الزهور جـ٥ ، ص٦٨ ، ٦٩، زيادة : نهاية المماليك ، ص ٢١٩ ؛ طرخان : مصر فى عصر الجراكسة ، ص ١٧٩ – ١٨٢.

(٥) وليم موير : تاريخ المماليك فى مصر ، ص ١٧٤ ، ١٧٥.

وهاهو يشيع أن الغورى سقط قتيلا فى الميدان ، وثبط عزائم الجنود قتل الأمير سودن الأتابكى ولحقه سيباى ، وتراجع خاير بك هو وجنوده مولين الأدبار ليحذوا حذوهم بقية الجيش المملوكى.(١)

هذا فى الوقت الذى يقف فيه الغورى ثابت الجأش فى مكانه بأرض المعركة تحت الصنجق السلطانى وحوله نفر قليل من مماليكه الخاصكية.(٢)

وأدرك الغورى حقيقة الخيانة بعد ما رأى معظم جيشه يفر ، ولكن بعد فوات الأوان ، وعبثا حاول الغورى أن يستحث جيشه على الثبات والصمود ، فصاح بأعلى صوته : (يا أغوات ! هذا وقت النجدة ، هذا وقت المروءة ، ياأغوات الشجاعة ، صبر ساعة !)

ولم يسمع له أحد وإنسحب مَن حوله ، وهو يقول للفقراء : (إدعوا الله بالنصر ، فهذا وقت دعائكم).(٣)

وخشى الأمير تمراز الشمسى (أمير زردكاش) على السلطان فطوى العلم السلطانى وشق الطريق إليه وقال له (ياMولانا السلطان ! إن عساكر إبن عثمان قد أدركتنا فانج بنفسك وادخل حلب) ، فإنطلقت فى قلبه جمرة نار لا تطفأ وكانت العبارة عليه كالصاعقة ولم يتحمل هول الموقف وأصيب فى الحال بشلل (أبطل شقه الأيمن وأرخى حنكه -فمه-) وطلب شربة

---

(١) عاشور : الأيوبيين والمماليك ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ ؛ كتابه : العصر المماليكى ، ص ١٩٢ ، ١٩٣.

(٢) الصنجق السلطانى : أو السنجق والسنجاق (والجمع) سناجق وهى كلمة تركية الأصل ومعناها اللواء وتطلق على القسم من الولاية الكبيرة ولا يزال مرادفها فى اللغة العربية اللواء والصنجق أيضا هو الحاكم على جزء من الولاية ، وقد تكون الصنجقية مجرد رتبة دون أن يكون حاملها حاكم على الجزء من الولاية ، وكان على الصناجق مال ويدفع بصفة سنوية . إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٦١. كما يذكر القلقشندى أن السنجق ، وجمعه سناجق ، وهى رايات صفر صغار تربط بطرف الرماح ويحملها السنجقدار. صبح الأعشى جـ ٤ ، ص ٨ ، جـ ٥ ص ٤٥٦-٤٥٨.

(٣) طرخان : مصر فى عصر الجراكسة ، ص ١٨٢ ، ١٨٣ ؛ عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ١٩٣.

كما إشترك النساء المصريات فى هذه الملحمة الشعبية الرائعة (فصارت نساء مصر ترميهم بالأحجار والحدايد والمثقلات من الشبابيك إنتقاما من العثمانين الذين إنتهكوا حرماتهن).[١]

وهم مزودون بالبنادق والمدافع ، فتراجع المماليك بعد أن كانوا غالبين مستبشرين بالنصر .... وقالوا من يقاتل هذه النار المهلكة ، وبقى طومان باي فى نفر قليل من العبيد الرماة والأمراء المخلصين على رأسهم شادى بك الأعور وآخرين ، يواجه جموع العثمانيين الكثيفة بأسلحتهم الحديثة ، ولكن كيف تنفع الشجاعة أمام الكثرة العددية. [٢]

واضطر طومان باى إلى الإنسحاب تجاه بركة الحاج ثم عبر النيل من ساحل طره إلى الضفة الغربية بالجيزة لينظم فلول جيشه المنسحب ويعيد المقاومة من جديد .[٣] ويصف إبن زنبل صمود طومان باى وشجاعته بعد إنسحاب قواته بقوله : (لم يهرب وحطم عليهم حطمة الأسد الغضبان وقتل منهم تقتيلا ولكن ماذا يفعل الواحد فى مائتى ألف وأكثر).[٤]

ولقد إستمر القتال أربعة أيام كاملة (من ليلة الأربعاء الخامس من المحرم إلى صباح السبت الثامن من المحرم ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م) أنزلت المقاومة المصرية بالعثمانيين خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد ، وخطب أئمة المساجد بالقاهرة بإسم السلطان طومان باى خلافا للجمعة السابقة ، فكان الدعاء فيها للسلطان سليم ، ولكن أعاد العثانيون توازنهم بسرعة وسيطروا

---

[١] إبراهيم بك حليم : التحفة الحليمة فى تاريخ الدولة العليـة ، طبعة أولى ، القاهرة سنة ١٩٠٥ م ص ٨٢.

[٢] إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٥٥ ، ٥٦.

[٣] موير : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ص ١٧٨ ، ١٧٩.

[٤] إبن زنبل : المصدر السابق ، ص٥٦.

على العاصمة مرة أخرى وإندلعت المجازر البشرية التى يصفها إبن إياس بأنها (المصيبة العظمى التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان).(١)

أما المماليك فقد أعملوا السيف فى العثمانيين وقتلوا منهم حوالىَ عشرة آلاف أو أكثر فى ليلةٍ واحدة ، وفى صباح الأربعاء عندما شعر أمراء المماليك الذين إختفوا من قبل - بظهور طومان باى وعودته للكفاح خرجوا وانضموا إليه وعلى رأسهم الأمير علان بقواته الناصرية واشترك فى القتال ، كما هاجم العربان مخيمات العثمانيين بالريدانية ونجحت المقاومة فى تمزيق العثمانيين. (٢)

وكان بين الفريقين واقعة تشيب منها النواصى وإستمرت الحرب دائرة حتى طلوع الفجر ثم عادت من الصباح وإستمرت حتى المغرب .... ثم إن الجراكسة صاروا يكبسون البيوت والحارات على العثمانيين .... وكل من ظفروا به قطعوا رأسه . (٣)

ونادى طومان باى يوم الخميس (٦ محرم ٩٢٣ هـ / ٢٩ يناير ١٥١٧ م) فى عامة الشعب بأن كل من قبض على عثمانى يأخذ سلبه ، فارتفعت الروح المعنوية لدى المصريين وذبحوا العثمانيين وحمى وطيس القتال بين الفريقين من بولاق إلى الناصرية غير أن العثمانيين استطاعوا تجميع شملهم ، وإنقلب ميزان القوى لصالحهم) وتحصن طومان باى فى حى الصليبة ، وإتخذ من جامع شيخو (٤) مركزا لقيادة المقاومة وشرع فى حفر الخنادق وإقامة

---

(١) إبن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ ؛ عمر الأسكندرى : تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى ، ص ١٢.

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٥٦ ؛ إبن زنبل : المصدر السابق جـ ٣ ، ص ١٠٢.

(٣) إبن إياس : المصدر السابق جـ ٣ ، ص ١٠٢.

(٤) جامع شيخو (شيخون) : كان موجوداً بسويقة منعم فيما بين الصليبة والرميلة ، تحت قلعة الجبل ، وقد أنشأه الأمير سيف الدين شيخو الناصرى ، رأس نوبة الأمراء سنة ست وخمسين وسبعمائة ويعتبره المقريزى من أجمل مساجد مصر.
المقريزى : الخطط ، جـ ٤ ، ص ١١٣.

التحصينات حول المنطقة ، وحفر خندقاً عند راس الصليبة وقناطر السباع ورأس الرميلة وجامع إبن طولون ووزع قواته للدفاع عن تلك الجهات.(١)

ولكن لم تجد هذه الجهود شيئا ، فقد حاصر العثمانيون حى الصليبة من كل جانب.

وجدير بالذكر : أن واقعة الصليبة كانت من أروع معارك المقاومة المصرية الغير رسمية ، فقد أتيح فيها للمصريين أن يقاتلوا العثمانيين دون وجود عامل الخيانة ، فضربوا أروع الأمثلة فى الجهاد والكفاح والصبر والجلد، بل وحققوا أعظم الإنتصارات وأنزلوا بالعثمانيين الخسائر الكثيرة فى الأرواح والعتاد.

(٢) واقعة أطفيح :(٢)

بعد هزيمة الصليبة أخذ طومان باى يعد العدة لجولة جديدة ، فاجتمع حوله نحو ألفين من فرسان المماليك وسبعة آلاف من العربان بالقرب من أطفيح ولكن ظهر عامل الخيانة من جديد ، فقد إنحاز أحد الأمراء ويدعى (جانم السيفى) للعثمانيين ، وأخبر سليم بخطة طومان باى ، بل وعرض عليه القيام بمهمة القضاء عليه ، فأمده سليم بخمسة عشر ألفا من الجنود المشاة وخمسة آلاف من رماة البنادق وخمسين مدفع تسمى بالتركية (ضربزانيات) وسارت الحملة على ظهر المراكب فى النيل . (٣)

ثم نزلت إلى البر والتحم الجيشان فى معركة رهيبة ، فلما حل الليل توقف القتال وفى الصباح انتقلت المعركة إلى الشاطئ الغربى للنيل ، وقام طومان باى بتعديل قواته إلى قسمين أحدهما

---

(١) الشناوى : أوربا فى مطلع العصور الحديثة،جـ ١ ، ص ٤٨٦ ، ٤٨٧.

(٢) أطفيح : تابعة لمركز الصف بمحافظة الجيزة ولها تاريخ عظيم . بتفصيل راجع : رمزى : القاموس الجغرافى،جـ ٣ ، ق ٢ ، ص ٢٥ ، ٢٦ ؛ إبن زنبل:آخرة المماليك،ص٦٣، حاشية ٢.

(٣) السيد الدقن : الأشرف طومان باى، ص ٧٢.

قيادته لمواجهة العدو والآخر بقيادة الأمير شـادى بك الأعور ، الذى أمره أن ينتظر بعيدا حتى تحتدم المعركة ، ثم يقوم بالهجوم على القوات العثمانية فتقع بين شقى الرحى.(١)

وفى جنوبى الجيزة تلاقى الجيشان فى معركة حامية ، إستطاع خلالها الأمير شادى بك أن يطوق العثمانيين من الخلف ويحصرهم مع طومان باى وأبادهم عن آخرهم ، وقد إستولى على كل المراكب التى جاءوا عليها عدا مركبين فقط فر عليها جانم السيفى وقائد الإنكشارية (إياس أغا) وأبو حمزة ونقلوا أخبار هزيمتهم المنكرة لسليم.(٢)

نتائج واقعة أطفيح :

أفقدت هذه الهزيمة سليما صوابه ، فأدرك شدة المقاومة وصعوبة الأمر ، فصب جام غضبه على خاير بك الذى زين له الزحف على مصر ، بل وهدده بالقتل قائلا : (قد غررت بنا وأدخلتنا فى بلاد هؤلاء ، ولا أحد يسهل عليه ترك بلاده ... كنت أحسبهم زمرة قليلة وشرذمة ذليلة ... أنت أغررتنى وأطمعتنى فى مصر ، فإنظر كيف تصنع ودبر نفسك ، وإلا فيا برأسك). (٣)

مساعى الصلح بين الطرفين :

زاد نصر أطفيح السلطان طومان باى ثقة بنفسه وأبعده عن اليأس ، فإتجه إلى البهنسا (بالصعيد.) وإتخذها مركزا لتجميع قواته إستعدادا للدخول فى معركة فاصلة مع العثمانيين وبدأها بالفعل حيث فرض الحصار الإقتصادى على العاصمة (فمنع المراكب من الدخول

(١) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩. بتفصيل راجع : عبد العظيم حامد خليل : قانصوه الغورى ونهاية الدولة المملوكية فى مصر والشام ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب جامعة عين شمس سنة ١٩٧٣ م ، ص ٥٤١ ومابعدها.
(٢) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٦٩.
(٣) إبن زنبل : المصدر السابق ، ص ٦٩ ، ٧٠.

العاصمة بالغلال فوقعت المجاعة بمصر)(١) ونتج عن ذلك تعرض الجيش العثمانى لخطر المجاعة ، (وقويت شوكة طومان باى والتف حوله جماعات كثيرة من العربان والأمراء والعساكر .....).

ولكن هل كانت مساعى الصلح من جانب طومان باى أم من جانب سليم ؟

المتأمل للموقف يدرك أن الصلح بشكل عام فى مصلحة السلطان طومان باى وكذلك هناك روايتان تفيد كل منهما أنه هو البادئ ، فهذه رواية ابن إياس تقول : أرسل طومان باى كتابا إلى سليم يعرض عليه الصلح بنفس الشروط السابقة التى عرضها سليم قبل زحفه إلى مصر وهاهو النص (إن كنت ترى أن أجعل الخطبة والسكة باسمك وأكون نائبا عنك بمصر وأحمل إليك خراجها حسبما يقع الإتفاق بيننا ... فارحل عن مصر أنت وعسكرك إلى الصالحية وصن دماء المسلمين ، وإن كنت لا ترضى بذلك منى فاخرج ولا قينى فى بر الجيزة ، ويعطى الله النصر لمن يشاء ... ولا تحسب أنى أرسلت أسألك فى أمر الصلح عن عجز ، فإن معى ثلاثين مابين مقدمى ألوف وأربعينات وعشروات ومعى من المماليك السلطانية والعربان نحو عشرين ألف ، وما أنا بعاجز عن قتالك ، ولكن الصلح أصوب لحفظ دماء المسلمين).(٢)

أما ابن زنبل الرمال يقول إن هزيمة أطفيح جعلت سليما يفكر جيدا فى مهادنة طومان باى والإنسحاب من مصر مقابل إعترافه بالسيادة العثمانية وقد أفصح سليم عن هذه الرغبة عندما جمع وزراءه ومستشاريه للبحث فى الأمر وقال لهم (... وأنا أريد أن أرسل له كتابا بالأمان

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ، ص ١٠٨ .

(٢) ابن إياس : المصدر السابق جـ ٣ ، ص ١٠٩.

مع قاصد عاقل يرد الجواب ، لعل الله يهديه ونبقيه على بلاده وأخبره بأنى رضيت بالإسم فقط ... وأن يجعل الخطبة والسكة بإسمى وأعطى له مصر إلى أن يموت).(١)

والناظر فى هاتين الروايتين لا يهتدى إلى الصواب فى إحداهما

ولكن يبدو أن رواية إبن زنبل الرمال ترجح أن السلطان سليم هو الذى طلب الصلح وذلك لسببين :

الأول : إبن زنبل الرمال مؤرخ عثمانى الأصل ومصاحب للسلطان سليم فكلامه فى هذا المضمار أقرب إلى الصواب من إبن إياس المصرى الأصل.

والثانى : إذا أعمل المتأمل نظره فى ص ٦٩ ، ٧٠ من كتاب آخرة المماليك لإبن زنبل يجد تحسر السلطان سليم على شدة المقاومة فيقول (كنت أحسبهم زمرة قليلة وكذلك يلقى باللوم على خاير بك ويقول قد غررت بى ... هذا يعنى تحسره وشدة لومه له بسبب هزيمته فى أطفيح مما دفعه إلى الصلح وطلبه من السلطان طومان باى.

وانتهى المجلس الذى عقده السلطان سليم بالإتفاق على وثيقة صلح ترسل إلى طومان باى وطلب السلطان من الخليفة المتوكل توصيلها إليه فاعتذر وعين نائبه ليقوم بالمهمة (٢) وبعد وصول الوفد بالوثيقة الموقع عليها سليم بخط يده إلى طومان باى فرح بها ورغب فى قبولها

---

(١) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٧٢.

(٢) نائب الخليفة هو الأمير برديك . طرخان : مصر فى عصر الجراكسة ، ص ١٩٣ . ويذكر أن الدكتور طرخان من خلال كتابه مصر فى عصر الجراكسة ، ص ١٩١ ، ١٩٢ يوافق المؤرخ إبن إياس فى كلامه بشأن الصلح وبأن الذى طلبه هو طومان باى ومن ثم يختلفان مع المؤرخ إبن زنبل الذى يرى أن الظروف التى أحاطت بالسلطان سليم هى التى دفعته إلى طلب الصلح.

ولكن أمراءه بزعامة شادى بك الأعور رفضوا الصلح وغلبوه على رأيه ، بل ذبحوا أعضاء الوفد العثمانى وأحد القضاة الأربعة.(١)

وتوقفت المفاوضات وفر باقى الوفد بعد سلب أمتعتهم ، عندئذ أيقن طومان باى أن الحرب قائمة لا محالة ، فزحف بقواته لمقاومة العثمانيين فوصل إلى منطقة (ترسة) على مشارف الجيزة (٢) وبلغت أنباء هذه المذبحة السلطان سليم فاستشاط غضبا وصمم على الإنتقام من المماليك ، ونقل عساكره إلى بركة الفيل (٣)

وليل بركة الحبش (٤) إستعدادا للقاء طومان باى ، ثم أمر بإحضار أمراء المماليك المحتجزين بالقلعة وعددهم حوالى أربعة وخمسون أميرا وضرب أعناقهم جميعا. (٥)

---

(١) بشأن قتل أحد القضاة الأربعة : الذى قتل هو قاضى القضاة الحنفى ويدعى (محمود بن الشحنة) ويرجع سبب قتله أن أخاه (أبو بكر) المصاحب للوفد ، كان قد أرشد العثمانيين فى داخل القاهرة عن أحد المماليك المستخفين منهم فترتب على ذلك قتله ، فلما رآه أخو المملوك الذى قتل قام بقتله فحبس له أخوه القاضى محمود وقتل القاتل ، فقتله المماليك . إبن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ١١٢.

(٢) إبن زنبل : آخرة المماليك ص ٧٣ ، موير : تاريخ دولة المماليك فى مصر ص ١٨٩ ، ١٩٠.

(٣) بركة الفيل : مكان بالسيدة زينب من جامع إبن طولون حتى شارع الخليج (بور سعيد) وكانت هذه الأرض كلها بساتين خالية من البناء ويرى الواقف فيها باب زويلة وباب مصر ومدينة مصر وقلعة الروضة وجزيرتها ومجرى النيل وكانت هذه المنطقة من أجمل منتزهات مصر .

إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٣٧ حاشية ٦.

(٤) بركة الحبش : وردت فى تحفة الارشاد أنها من أعمال الأطفيحية ، كما وردت فى قوانين الدواوين أنها من أعمال القاهرة وذكر المقريزى فى خططه جـ ٢ ص ١٥٢ أنها تعرف ببركة المعافر لكنها إشتهرت ببركة الحبش . وهى تطلق على الحوض من الأرض الزراعية وليس بركة مياه . وكانت هذه الأرض تغمرها مياه النيل عند الفيضان ومساحتها ٢١٣ فدان وتحدها شمالا جبانة مصر وجبل إصطبل عنتر وغربا جسر النيل وجنوبا وشرقا حى البساتين.

رمزى : القاموس الجغرافى جـ ١ البلاد المندرسة ، ق ١ ، ص ١٥٠ ، ١٥١.

(٥) إبن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ، ص ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢.

تتبع السلطان طومان باى الفرص تباعا لعقد الصلح وحقن دماء المسلمين وكان ذلك أصوب وإرتكب أمراءه حماقات ووقفت حائلا بين طومان باى وأمل الصلح والسلام وتسبب ذلك فى خسائر جمة على رأسها قتل ٥٤ أميرا وهى المرة الثانية لرفض الصلح والسلام.

(أ) فشل محاولة السلطان سليم فى عبــور النيـل :

علم السلطان سليم بوصول قوات طومان باى إلى الجيـزة، فـأراد عبـور النيـل لكنـه وجـد صعوبة كبرى فى ذلك ، فإضطر إلى بناء قنطرة من المراكب فى عرض النيل عند طره ومصر القديمة ، وفعلا بدأ العثمانيون فى العبور فإستغل طومـان بـاى الفرصـة وهجـم عليهم أثناء عبورهم وقضى على المجموعة الأولى التى عبرت ، فارتج عسكر سليم وتشـتت أمرهـم نحصل للسلطان كرب عظيم. (١)

وعدل من خطة العبور وأمر بإطلاق المدافع على المصريين المحتشدين على الشاطئ الغربـى وفى هذه الأثناء إنضم عرب غزالة إلى السلطان سليم ضد طومان باى الذى أخمد فتنتهم أكثر من مرة منذ كان دودارا على عهد الغورى. (٢)

ومن ثم تراجع طومان باى بقواته داخل الجيزة لجمع المزيـد مـن الأتبـاع وإستعدادا للمعركـة الفاصلة بينهما ، فذهب إلى دهشور (٣) ونادى بالكفاح لتخليص البلاد من الغزاة فإستجاب لـه عدد كبير من الفلاحين والعربان لا سيما عربان بنى حزام وأطفيح.(٤)

رأى السلطان سليم أن الأمور تنتقل من سيئ لأسوأ لإنضمام العربان إلى طومان بـاى وطـول غيبته عن بلاده ، وتزاحمت عليه الهواجـس وسـئم النزاع وندم على دخولـه مصـر وهـم أن

---

(١) إبن زنبل :آخرة المماليك ، ص ٧٤ ، ٧٥ ؛ موير تاريخ دولة المماليك فى مصر، ص ١٨٠.

(٢) إبن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ، ص ١١٠ ، ١١١.

الدودار : الأمير الذى يمسك الدواة ، والوظيفة إسمها الدوادارية وصاحبها يحمل دواة السلطان أو الأمير ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم الطلبات والشكاوى إليه . عاشور : المماليكى ص ٤٣٨.

(٣) دهشور : من القرى القديمة ، كانت تسمى أقنطوس ، تقع فى جنوب منف ، كان يوجد بها معبد أوزيرس وغابة من شجر السنط ، وردت بإسمها الحالى فى نزهة المشتاق للإدريسى عند كلامه عن الأهرام وكذلك وردت فى قوانين إبن مماتى بتحفة الإرشاد بنفس الإسم.

رمزى : القاموس الجغرافى ، جـ ٣ ، ق ٢ ، ص ٤٤.

(٤) إبن زنبل : المصدر السابق ، ص ٧٥.

طلش بخاير بك المتسبب فى ذلك ، وعقد مجلسا حربيا ضم وزراءه ومستشاريه وخاطبهم قائلا : (ماذاتقولون فى هذا ؟ قد حصل لنا غاية الضرر) وإستقر الرأى على إرسال قاصد للسلطان طومان باى يطلب الصلح.(١)

وأجمعت آراء الحضور على أن يكون الرسول هو الأمير (خشقدم) (٢) فسار على رأس وفد إلى طومان باى لمفاوضته فى شروط الصلح ، وعند دهشور تقابل الوفد مع الأمير شادى بك الأعور وهو مع عساكره ، ودار نقاش حاد بين الطرفين ، وبدلا من الإتفاق والتفاهم نشبت معركة بينهما جرح أثناءها الأمير خشقدم جرحا بالغا فى رأسه وفر هاربا ومعه باقى الوفد ، بعد أن طاردهم شادى بك وقتل منهم الكثير. (٣)

والمرة الثالثة تقف رعونة أمراء المماليك حائلا دون إتمام الصلح بين الطرفين وهو أمر ليس بجديد فقد حدث ما يشبه ذلك فى المرات السابقة وضيعوا الفرصة الأخيرة لإحلال السلام محل الحرب.

---

(١) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١.

(٢) **الأمير خشقدم** : كان الأمير خشقدم من مماليك الغورى وترقى فى المناصب حتى وصل لمنصب **نائبة الشون** : وكان خشقدم متزوجا من إبنة الأمير جانى بك ناظر ديوان المفرد ، وبعد أن قبض الغورى على جانى بك لسوء تصرفه أمر خشقدم أن يطلق إبنته وكان له منها أولاد ، كما ألزمه بدفع الأموال المتأخرة على صهره جانى بك ، فلم يجد خشقدم مفرا من الهرب وقد تمكن فى ربيع الأول سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م من الهروب على ظهر مركب إلى السلطان سليم وأقام عنده وأصبح من خاصانه.

وقد أطلع خشقدم السلطان سليم على أحوال مصر الإقتصادية والسياسية والعسكرية ومافيها من مظالم بل وزين له الزحف على مصر ، فلما قدم سليم لمصر كان بصحبته.

إبن إياس : بدائع الزهور ، ص ٩٦٥ ــ ٩٧٨ مجلد واحد . وكذلك جـ ٣ ، ص ٩٨.

(٣) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١.

(٤) عبور النيل وموقعة الجيزة :(١)

بعد فشل مفاوضات الصلح غضب السلطان سليم وأمر بذبح كل من يرونه من المماليك ، وبدأ يستعد لمواصلة القتال وحشد حوالى أربعين ألفا من الفرسان والمشاة وأمر ببناء جسر من المراكب فى النيل ، وعبر على رأس قواته إلى الشاطئ الغربى بالجيزة وحمل معه أسلحته المختلفة والسبقيات والمكفيات. (٢)

كما أرسل الغزالى الذى كان يطارد عربان أطفيح بأمره بالعبور للجيزة ليكون معه،وفى الجيزة إلتقى الجيش العثمانى الجرار بأسلحته ومدافعه بقوات الأمير شادى بك التى لا تتجاوز الألفين من خيرة فرسان المماليك والعربان وكانت معركة رهيبة غير متكافئة لا عدد ولا عدة ولكن الجيش المصرى أظهر بطولة خارقة ولم يبال بطلقات المدافع ولا البنادق وحمسهم شادى بك بقوله : (... واعلموا أنكم ما تقاتلون إلا عن حريتكم وأولادكم وأموالكم وبلادكم ...).(٣)

فاشتعلت النفوس حماسة وتقمصتها روح الفداء ، ووصف إبن زنبل المعركة بقوله :

(والتحموا بالروم (٤) حتى صار بينهم حملات،محاربات ومصادمات ومضايقات ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، وصار لهم وقع السيف والدبابيس على الأبدان كوقع مطارق الداد

---

(١) المعادى : تم العبور بالمعادى التى إستخدمت لتعدية الناس عبر النيل بالإضافة لما كان مع السلطان سليم . وكان لهذه المعادى مواضع معينة ، من أشهر تلك المناطق معدية إبابة ومعدية المقياس ومعدية الجسر بالجيزة ومعادى جزيرة الدهب.
للتفصيل راجع : المقريزى : المواعظ والإعتبار جـ ١ ، ص ١٠٤ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ ، ص ٥١٨ حاشية ١.

(٢) السبقيات والمكفيات : آلتان من آلات الحرب إستخدمها العثمانيون ولم يكن لهما عهدا بهما . إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٩٥.

(٣) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤.

(٤) الروم :لفظ أطلقه مؤرخو تلك الفترة على العثمانيين وعلى بلادهم بإعتبار أن الدولة العثمانية قامت على أنقاض الدولة الرومية الشرقية،التى كان يطلق عليها الروم كما سماها القرآن الكريم فى=

على السندال ، وكان هذا اليوم مشهودا لم ير مثله فى قديم الزمان ، فلم يمضى سوى قليل حتى إنطفئت جمرة الروم وخمدت وكلت حركاتهم وجمدت ، ورد جموعهم الأمير شادى بك نهرا وزجرا بحد السيف).(١)

وتراجعت حشود العثمانيين منهزمة أمام صمود المقاومة المصرية ، بالرغم من الفارق الشاسع بين القوتين المتحاربتين وإستخدام المدفعية والأسلحة الحديثة وكثرة القتلى المصريين ، حتى لم يبق مع شادى بك سوى خمسمائة فارس من مجموع الألفين . الأمر الذى جعل السلطان سليم (يتأوه ويتحسر ... ويقول ماكنت أظن أن أقاسى من أحد مثل ما قاسيت فى يومى هذا).(٢)

(أ) تدخل عرب غزالة إلى جانب العثمانيين :

وفى هذه الأثناء تكاثرت عرب غزالة فى آلاف يقودهم (سلام بن خيبر وأخيه حماد) إلى ميدان المعركة لنصرة السلطان سليم ، فتحايل عليهم الأمير شادى بك حتى أبعدهم عن ميدان المعركة لينفرد بهم من جهة ويعرضهم لمدفعية العثمانيين فى حالة إشتراكهم فى القتال من جهة أخرى ، وفعلا كان له ما أراد. (٣)

قوله " غلبت الروم فى أدنى الأرض " ... الآية . وكذلك أطلق عليها الدولة البزنطية وهو ماشاع بين جمهرة الباحثين.

إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٩٣.

(١) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٩٤ ، ٩٥.

(٢) إبن زنبل : المصدر السابق ، ص ٩٦، ٩٧ ، ٩٨.

موجود فى المتحف الحربى القومى بالقلعة ، فى جناح الأسلحة المستخدمة فى العهد العثمانى سيف منقوش عليه (بسم الله ما شاء الله) مسجل تحت هذا السيف أنه خاص بالسلطان سليم خان العثمانى وبدون رقم.

(٣) إبن زنبل : المصدر السابق ، ص ٩٨ ، ٩٩.

تظاهر شادى بك بالهزيمة وإنسحب فتبعه عرب غزالة فإشتبك معهم وهزمهم وعند إنسحابهم تعرضوا لمدفعية العثمانيين فقتلت منهم الكثير ، وبذلك وقف عرب غزالة بعيد يرقبون الأحداث ، عندئذ رأى شادى بك أن يناوش العثمانيين ، فرصد قوة من فرسانه لمراقبة عرب غزالة ، والحيلولة دون إشتراكهم فى القتال ، ثم هجم ببقية قواته على العثمانيين وإستمر القتال حتى الليل وتوقف بعد ذلك وجاء رسول من قبل السلطان طومان باى الذى يعسكر عند بشور ، يأمر شادى بك بالتوجه بقواته إلى ضيعة وردان ليستعد للمعركة الفاصلة .(١)

٥) واقعة وردان :

سار الأمير شادى بك بمن بقى من القوات ليلا حتى وصل بلده وراق الحضر مع طلوع النهار وإنضم لطومان باى وعقدوا مجلسا حربيا لدراسة الموقف.(٢)

تمخض الإجتماع عن الإستعداد الكامل ومقاومة خطر عرب غزالة ، وحاول طومان باى ضمهم إليه أوعلى الأقل تحييدهم ، ولكنه فشل فى كلا الأمرين ، وعلى إثر ذلك زحف بقواته لموقع جديد ليستعد لملاقاة العثمانيين . (٣)

---

(١) وردان : هى قرية على حدود محافظة الجيزة ، يذكرها على مبارك فى خططه ، أنها خربة وردان وكانت قرية زاهرة بالجيزة وتخربت زمن الفتح ، ويذكر أن محلها هو المحل المعروف بمسينات وردان ، وبها قبور جماعة كبيرة من الصحابة . إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص١١٢ حاشية ١؛ كما يذكر رمزى أن وردان من القرى القديمة وهى تنسب إلى وردان الرومى مولى عمرو بن العاص كما ورد ذكرها فى معجم البلدان تحت إسم وادى وردان وهى تقع على شاطئ النيل. رمزى : القاموس الجغرافى ، جـ ٣ ، ق ٢ ، ص ٦٦.

(٢) وراق الحضر : هى قرية من قرى مركز إمبابة التابع لمحافظة الجيزة وتقع على الشاطئ الغربى للنيل فى المكان المقابل بشبرا الخيمة ، وتوجد بجوارها قرية أخرى تسمى وراق العرب تقع غربى وراق الحضر وهى أحدث منها. إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ١٠٤ ، حاشية ١.

(٣) إبن زنبل : المصدر السابق ، ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦.

وعسكر عند قرية أم دينار[١]، فاستقبلهم أهلها بالترحاب وقدموا المؤن والعليق اللازم لهم ولخيولهم . وإندلعت معركة حامية الوطيس بين جيشين غير متكافئين ، وساء الموقف بإنضمام عرب غزالة للعثمانين وهجومهم عليهم من الخلف ، وأستبسل المماليك وقتل خيرة أمرائهم فضلا عن الكثير من الجنود ، وقد أظهر شادى بك وطومان باى بطولة خارقة فى هذه المعركة ، وكاد الغزالى أن يقتل لولا ركوعه وتقبيلة لرجل طومان باى الذى عفا عنه.(٢)

وجاء السلطان سليم بمدد كبير ، وتعدل وضع الجيش فإنقسم إلى أربع فرق الأولى يقودها سليم بنفسه والثانية الغزالى والثالثة يونس باشا والرابعة اياس باشا قائد الإنكشارية، يعاونهم عرب غزالة ، وكانت الخطة الإطباق على طومان باى ولما رأى الجيش المملوكى الحصار تشتت ولم يثبت مع السلطان سوى فئة قليلة ومع ذلك لم يستسلم ، ويذكر إبن إياس وصف الموقف بقول: (إنظر ما فعل هؤلاء الفرسان القليلة فى هذة الألوف المؤلفة ، فأتحدوا الركاب فى الركاب لايفارق بعضهم بعضا وما قتل أحد من الجراكسة بالسيف إنما القتل كان بالبنادق ...) . (٣)

وقتل فى هذة المعركة الكثيرون من الجراكسة ،وتم النهار ونادى منادى الحرب بالانفصال ورجعوا لايعرفوا بعضهم من شدة ماحدث . وعندئذ رأى طومان باى أنة لاسبيل للمقاومة

---

(١) أم دينار: هى قرية قديمة من قرى محافظة الجيزة ، ويذكر أن السيدة هاجر أم سيدنا إسماعيل رضى الله عنها من أهل هذة القرية ، وهناك من يخلط بينه وبين أم دنين .
رمزى : القاموس الجغرافى ق ٢ ، جـ ٣ ، ص ٥٧ .
(٢) إبن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ، ص ١١٢ ، ١١٣.
(٣) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ١٠٨ ـ ١٢٠.

وقرر اللجوء بمن معة إلى الشيخ حسن بن مرعى وإبن عمه شكر مشايخ عرب محارب بالجيزة لانهم أصدقاء لطومان باى وله عليهم اياد بيضاء ، حتى يدبروا أمرهم .(١)

خامسا : القبض على طومان باى وإخفاق المقاومة :

سار طومان باى ليلا إلىحسن بن مرعى وإبن عمه شكر اللذين إستقبلاه مع مماليكة أحسن إستقبال ، فاستحلفهما السلطان على كتاب الله على أنهما لن يخوناه ويغدرا به ولا يدلسان عليه بشيء من الأشياء ، ولابسبُ من أسباب المسك ، فحلفا له على المصحف سبعة أيمان بهذا المعنى وطاب قلب السلطان عند ذلك . (٢)

ولكن أطلت الخيانة بقرنيها من جديد ، فعندما سار طومان باى ليلا يقصدا بن مرعى تبعه الغزالى حتى علم مكانه ، ورجع وأخبر السلطان سليم بذلك وطلب منة قوة كبيرة لمطاردة طومان باى والرجوع به أسيرا أو قتيلا ، وفعلا إتجة بقواته للبحيرة قاصدا عرب محارب فاستقبله حسن مرعى الذى خانته شهامتة وأراد أن يكون لة حظوة عند السلطان العثمانى.(٣) وبالرغم من معارضة أمة وتذكيرها لة بأفضال طومان باىوأيمانة المغلظة وقالت له : (أنسيت ما فعلة معك طومان باى ؟ فقد أطلقك من الحبس وأمنك بعد الخوف وحلفت له الأيمان ، فكان جزاؤه أن تسلمه لعدوه وتظن أنك تلقى خيرا بعده ؟ والله لئن فعلت لأغضبن عليك غضبة تكون سببا فى هلاكك) . (٤)

وجفت ينابيع الخير والوفاء من قلب إبن مرعى ، أمام رغبات نفسة الجامحة ، فلما رأى عساكر سليم دلهم فورا على مخبئه فقبضوا عليه وهو متنكر فى ذى الأعراب وقيدوه بالحديد

---

(١) كان للسلطان طومان باى أفضال كثيرة على الشيخ حسن بن مرعى فقد أطلق سراحه من السجن الذى كان أودعه فيه السلطان الغورى،وجعله أميرا على عرب محارب وكذلك سدد عنه دينه وأخذ عليه العهود والمواثيق على أن يكون نصيرا له وقت الشدة.إبن زنبل:آخرة المماليك ص ١٢١.

(٢) إبن إياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ .

(٣) إبن إياس : المصدر السابق ،جـ ٣ ، ص ١١٤ .

(٤) عدل فريد : السلطان الغورى وعصره، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

، وتشتت من كان مع طومان باى وعلى رأسهم عرب قطارة الذين كانوا قد جمعوا حوالى ألفى فارس لنصرته . (١)

أما الأمير شادى بك فقد لجأ لصديقه أحمد بن بقر شيخ عربان الشرقية وكان له أفضال كثيرة عليه ، لكن إنتهى مصيره كما إنتهى مصير سلطانه طومان باى حيث سلمه إبن بقر للسلطان سليم فلقى مصيره المحتوم.(٢)

والواقع إن جنود السلطان سليم عند القبض على طومان باى وضعوا فى يده اليمنى مع اليسرى قيدُ وأركبوه بغله وقيدوه من تحت بطنها ، ولم يدافع عن نفسه ولم يقاوم.

يذكر إبن زنبل أن السلطان طومان باى قد جمع من حوله من المماليك وقال لهم : (لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ..!! إعلموا يا أغوات أن دولتنا قد زالت وآجالنا قد مالت ومابقى لنا فى هذه الديار نصيب !!) (٣)

وهناك رواية تذكر أن السلطان طومان باى رأى فى منامه الرسول عليه السلام يقول له : (يا طومان باى : إن دولتكم قد زالت وعمركم قد إنتهى وأنت ضيفنا عما قريب). وبالطبع قام وأخبر أصحابه بما رأى وأوصاهم بأن يتفرقوا فى الأرض ، وخلع سلاحه ورمى سيفه وسلم نفسه لعساكر سليم. (٤)

لنا أن نصدق هذه الرواية أو نكذبها ، وإن صحت فلها مدلولها التاريخى الذى يشير لسمعة السلطان طومان باى الحسنة وسيرته العطرة وإستقامته وصلاحه وتقواه.

---

(١) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩.

(٢) إبن إياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص١١٤ .

(٣) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ١٠١.

(٤) الشرقاوى : نزهة الناظرين ، ص ١٣١. ، إبراهيم بك حليم : التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ص ٨٣.

وحينما وصلت السلطان سليم البشرى بالقبض على طومان باى ، أبدى إرتياحه العظيم ، وقال الأن ملكنا مصر ، وأمر بتعليق الزينات.(١)

ودخل السلطان طومان باى على السلطان سليم وهو فى زى عرب الهوارة وعلى رأسه زنط وعليه شاش وعلى بدنه ملوطة (٢) - قباء - بأكمام طويلة ــ فقام له سليم وأخذ يتأمله معجبا بشجاعته وفروسيته ، ثم عاتبه وإتهمه بقتل رسله الذين أرسلهم لمفاوضته فى الصلح ، فنفى طومان باى تلك التهمة عن نفسه وظل محتفظا بشجاعته وهيبته ووقاره وأفاض فى أن موافقته كانت غاية فى العدل "أنه لابد أن يدافع لأن شرفه العسكرى وشرف إستقلال بلاده يتضيان ذلك مهما كلفه الأمر. (٣)

وأوضح أنه لولا مشيئة الله بأن : دولتنا قد زالت وأدبرت ودولتكم جاءت وأقبلت ... ماقدرت أنت ولا غيرك على أخذ بلادنا وأنه لو كان بالقوة والشجاعة ما أنتم أقوى منا وأشجع وها أنتم رأيتم كيف فعلنا مع عسكركم.

وإمتلأ السلطان سليم إعجابا بحديثه وشجاعته حتى قال له : (والله ما كان قصدى أذيتك ، ونويت الرجوع من حلب لو أطعتنى وجعلت السكة والخطبة بإسمى ماجئت لك ولا وطئت أرضك)(٤)

وأجاب طومان باى بقوله : (النفوس التى تربت فى العز لا تقبل الذل ، هل لو أرسلت لك أن تكون تحت أمرى كنت ترضى ؟ وهل سمعت الأسد يخضع للذنب ؟ لا أنتم أفرس منا ولا أشجع ، وليس فى عسكرك من يضاهينى فى حومة الميدان.... ولكن أنا أعرف أنه ما أضر

---

(١) إبن زنبل:آخرة المماليك ص١٠٢؛عاشور:العصر المماليكى فى مصر والشام ص١٩٧،١٩٨.

(٢) الملوطة : جمعها ملاليط وهى القباء الواسع الكم الطويل وتلبس فوق الفرجيه ، وكانت تصنع أحيانا من الحرير الخالص أو الكتان الرقيق ، وكانت لباسا قوميا فى عصر المماليك.

عاشور : العصر المماليكى ، ص ٤٧٦.

(٣) إبن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ، ص ١١٤ ، ١١٥.

(٤) طرخان : مصر فى عصر المماليك الجراكسة ، ص ١٩٦.

علينا من هذين الشيطانين الخائنين - وأشار إلى خاير بك والغزالى - فإنهما لو نصحا خير لكانا لنا. (١)

وأشيع أن السلطان سليم لن يقتل طومان باى وسوف يأخذه إلى إستانبول أو ينفيه إلى مكة المكرمة طوال حياته. (٢)

غير أن الخائنين إضطرب أمرهما ، فأخذا يدبران الأمر لتحريض السلطان سليم على قتله بحجة أنه لا بقاء لملكه مادام طومان باى على قيد الحياة ، وقاما بكتابة ورقة إلى السلطان سليم بدون علم وزرائه جاء فيها : (فليعلم مولانا السلطان أن أهل مصر الذين تشتتوا من الجراكسة لم يصدقوا أن سلطانهم قد عجز وقبض عليه وأنت متى أبقيت عليه فقد ضيعت تعبك وسفرك وأموالك وهلاك عسكرك فبعد سفرك يخرج من تحت الأرض ويفسد عسكرك بالعطاء ، فإذا أردت أن تحتوى على جميع البلاد من غير مانع فعجل بهلاكه ، وإصلبه على باب زويلة ليراه الخاص والعام وييأس الناس من بقاءه).(٣)

إذا أعمل الإنسان تفكيره فى تلك الأحداث التى أمامه يجد نفسه أمام أسئلة كثيرة :

لماذا يقابل مشايخ العربان (إبن مرعى وإبن عمه شكر وإبن بقر) الإحسان بالإساءة ؟

ولماذا يحرض الغزالى السلطان سليم على قتل طومان باى وهو الذى عفى عنه فى معركة ردان ؟

(١) طرخان : المصدر السابق ، ص ١٩٧.

(٢) إبن إياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص١١٥.

(٣) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ١٠٩ ، ١١٠.

(١) شنق طومان باى على باب زويلة :(١)

وأخيرا إقتنع السلطان سليم بقتل طومان باى ، لكنه أبقاه أيام كى يسأله عن شئون وكيفية إدارتها وسياستها وريها وجباية خراجها وبقية أمورها ، الأمر الذى طمأن طومان باى وظن من إقباله عليه أنه سينوب عنه فى مصر لكن الواقع كان إستدراجا من سليم لمعرفة أحوال مصر كاملة. (٢)

ولما حان شنق طومان باى ، جاءت العساكر ببغلة وأركبوه عليها ، وعبروا به النيل إلى بولاق وهو بزى الأعراب ، ثم طافوا به القاهرةوهو راكب على فرسه وأمامه أربعمائة عثمانى حتى وصلوا إلى باب زويلة ، وهناك وجد حبل المشنقة معدا له فأسرعوا به وأنزلوه بقصد الشنق من غير مهلة. (٣)

تقدم طومان باى نحو الحبال بقلب جسور وحوله الجنود مسلولة السيوف ، فطلب من الناس قراءة الفاتحة له ثلاث مرات وقال للمشاعلى (٤) - الجلاد - إعمل شغلك ، فقطع الحبل مرتين وفى كل مرة يعلقوه من جديد ثم شنقوه وتركوه معلقا ثلاثة أيام ، وأنزلوه بعد مافاحت رائحة

---

(١) باب زويلة : سبق الحديث عنه.

(٢) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ١١١؛ عاشور : العصر المماليكى ، ص ١٩٨ ، ١٩٩.

(٣) يذكر الدكتور : عاشور أن السلطان طومان باى كان يعلم قرار إعدامه مسبقا فقد جاء فى كتابه العصر المماليكى فى مصر والشام (كان يسير فى ثبات ، وأخذ يسلم على الناس طوال الطريق ، حتى وصل باب زويلة ، فأرخى المشاعلى حبل المشنقة وطلب من الناس قراءة الفاتحة له وقرأ معهم الفاتحة بصوت مسموع وعالى ، ثم قال للمشاعلى إعمل شغلك ، وماهى إلا لحظات حتى سقط آخر سلاطين المماليك ميتا على الأرض) عاشور:العصر المماليكى ، ص ١٩٨.

(٤) المشاعلى أو المشاعلية : الجنود المكلفة بتنفيذ أحكام الوالى وكان عملهم الأصلى هو السير أمام الوالى بالمشاعل . إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٩٥، حاشية ١.

جسده (١) ، ووضعوه فى تابوت وغسله القاضى وكفنه فى ثياب أرسلها السلطان سليم ومعها ثلاثة أكياس من الفضة تصدقوا بها عليه. (٢)

وكان شنق طومان باى يوم الأحد الحادى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ / الخامس عشر من سبتمبر سنة ١٥١٧ م ، ودفن فى فسقية المدرسة التى بناها الغورى ، وصرخ الناس عليه صرخة مدوية وإشتد عليه الأسي والحزن ، حيث كان تقيا نقيا حسن الخلق جميل الصورة ، بطلا شجاعا ، أبى أن يستسلم ويقبل الصلح على أن يكون تابع لسليم وقاتل بإمكانياته المحدودة وقتل منهم مالا يحصى وكسرهم ثلاث مرات ووقع منه ،لا يقع إلا من الأبطال. (٣)

وهكذا حكم التاريخ على بطل من أبطاله هو آخر سلاطين المماليك فى مصر والشام ومات وله من العمر حوالى أربعة وأربعين عاما وذكرت فيه أشعارا كثيرة. (٤)

ولم يترك طومان باى سوى زوجة واحدة ، لم ينجب منها أولاد ذكور وترك إبنة واحدة عمرها حوالى عشرة سنوات ، توفيت فى عام موته ، ولم تنج أرملته من الإهانة ومصادرة الأموال والأمتعة الفاخرة ونفائس خاصه بها.(٥)

---

(١) عدلى فريد : السلطان قانصوه الغورى وعصره ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤.

(٢) إبن إياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص١١٥.

(٣) طرخان:مصر فى عهد المماليك الجراكسة، ص ١٩٨؛عاشور:الأيوبين والمماليك ، ص٣٤٢.

(٤) ذكرت أشعار كثيرة تخص السلطان طومان باى من أهمها :

لهفى على سلطان مصر ، كيف ولى وزال وكأنه لم يذكر

شنقوه ظلما فوق باب زويلة وأذاقوه الوبال الأكبر

يارب فأعف عن عظائم جرمه وإجعل جنات الخلد له قرى. إبن زنبل:آخرة المماليك،ص١١٣.

(٥) إبن إياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ١١٥ ، ١١٦.

يذكر الدكتور ماجد فى كتابه : طومان باى، ص ١٧٩ ، س ١٦ ، أن طومان باى لم يترك بعد وفاته أى شيئ سوى سيفه. وهذا بخلاف لما ذكر إبن إياس فى كتابه : بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ١١٦ من أن سليم قد صادر الأموال الكثيرة وأن زوجته كانت تقتنى نفائس لها . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فكلام المؤرخ إبن زنبل يؤكد أن لها أموال تقدر بخمسين ألف دينار . وهكذا يرى المتأمل أنها كانت معها أموال بخلاف ما قاله الدكتور ماجد.

وهذا نص إبن زنبل يقول : (فنقلوا كل ماكان لها من الأموال والأمتعة وهى تقدر بنحو خمسين ألف دينار .... وغرمها مع والدتها عشرين الف دينار .... فحصل لهما الضرر الكبير ، بل وهددها بالقتل) (١)

ولم يحكم السلطان طومان باى سوى ثلاثة أشهر ونصف قضاها فى مقاومة العثمانيين والإستعداد لهم ، وشهدت ملاحم عسكرية عظيمة ، فلله دره من سلطان زهد فى الملك ثم قبله مكرها ، وشهر سيفه للدفاع عن مصر وظل مشرعا حتى أغمدته يد الغدر والخديعة .(٢)

وعبر المؤرخ الكبير إبن إياس عن هذا المشهد الأخير من قصة الأمبراطورية المملوكية سيرة الأشرف طومان باى ، بما يملأ النفوس من أسى وحزن ، وأنه أكثر ما أثر فيه هو سلب مصر قيادتها وأصبحت ولاية تابعة بعد أن كانت سلطنة حاكمة وقال : (هذا ما جرت به المقادير). (٣)

وصفوة القــول :

لقد بذل السلطان طومان باى غاية الجهد فى سبيل الإستمرار فى النضال ، إلا أنه قد طلب المستحيل حينما جعل من الشجاعة وحدها تقف أمام سلاح البارود ، ومع ذلك فقد ظل موضع التقدير بين معاصريه وغير معاصريه فهو بحق صورة مشرفة للبطل الفارس الذى تصدى

---

(١) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ١٤٧ ، ١٤٨؛ موير :تاريخ دولة المماليك فى مصر ص ١٨١.

(٢) لا يزال سيف السلطان طومان باى فى المتحف الإسلامى بالقاهرة وقد نقش عليه بكتابة جميلة ، لانجدها لأى سلطان مملوكى آخر تدل على تواضعه الجم - ورد فيها : (السلطان ، الملك ، العادل ، أبو النصر طومان باى سلطان المسلمين ، أبو الفقراء والمساكين ، قاتل الكفرة والمشركين ، محى العدل فى أرض العالمين ، خلد الله ملكه وعز نصره . يوجد تحت رقم ٥٢١٧.

راجع بتفصيل : عبد الرحمن زكى : النقوش الزخرفية القاهرة سنة ١٩٦٣ م ، ص ١٣٥ ، ١٣٦.

(٣) بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧.

للصعاب ، وفرض بطولته مع قلة حيلته . وبموته إنتقلت الدولة المملوكية من مسرح التاريخ إلى مكتبته.

وقد تغيرت أحوال مصر تماما بعد شنق السلطان طومان باى ، فأصبحت مجرد ـ ولاية ـ فى إمبراطورية العثمانيين الكبيرة ، ودخلت فى التبعية بعد أن كانت متبوعة ، وإضمحلت مصر حضاريا بعد أن ودعت حياة زاخرة إزدهرت كأروع ما يكون فى عهد سلاطين المماليك ، وإستمرت تلك الفترة بقسوتها حوالى ثلاثمائة عام ، أى مع بداية التاريخ الحديث.

وبدخول العثمانيين مصر أصبحت محتلة بعد أن كانت مستقلة ونيابة بعد أن كانت سلطنة ، وتابعة لدولة الخلافة بعد أن كانت دارا لهـا . (١)

وحرمت مصر من أسباب النهوض وعانت من التأخر والانحلال والفقر والجهل والمرض وإبتعدت مع الشام عن التيارات الدولية ، وفى وقت كانت أوربا تأخذ فيه بأسباب التقدم فى كافة الميادين.

(٢) مصر ولاية عثمانية :

ترتب على إعدام السلطان طومان باى إنتهاء المقاومة الرسمية وغير رسمية للعثمانيين وأصبحت مصر ولاية من ولايات الدولة العثمانية المترامية الأطراف وقد مكث السلطان سليم بمصر بعد دخوله إليها حوالى ثمانية أشهر. (٢)

وخلال إقامته زار معالمها الشهيرة ، وأهمها الأهرام ، وأعجب بمقياس فيض النيل الذى بناه

---

(١) يذكر الدكتور عبد العزيز الشناوى : أن مصر أخذت الوضع الذى عرف فى القانون الدولى العام بإسم (الدولة التابعة L'e Tar Vassal) وتربطها بالدولة المتبوعة Ictat Suzerain وهى الدولة العثمانية رابطة الولاء والخضوع ويتصف النائب المملوكى Le Sultan Iribwatre أى الذى يمارس سلطاته فى نطاق دولة أخرى. أوربا فى مطلع العصور الحديثة جـ ١، ص ٥٨٨.

(٢) ثمانية أشهر إلا أيام قلائل . إبن اياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ١٣٣ ، ١٣٤.

الناطميون ، ومر على إمبابة (١) ودخل الحمامات الساخنة التى ميزت مصر . (٢)

وقد قام السلطان سليم أثناء وجوده بمصر بعملية نهب حضاري لها ، فأمر بفك رخام القلعة وأعمدتها الموجودة بالقاعات الكبرى ، كما إستولى على رخام المدارس وبيوت الأمراء والأعيان وكبار التجار ، ونقله إلى إستانبول . كما إستولى على التحف والأوانى المعدنية والمجوهرات ولم يسلم أحد من تلك العملية ، ويذكر إبن إياس أن ما إستولى عليه نحو (ألف جمل محملة ما بين ذهب وفضة وتحف وسلاح وصينى وخيول وبغال وغير ذلك).(٣)

إختصار ترك مصر خالية من كل ماهو مفيد ونافع.

كما كافأ السلطان قبل رحيله عن مصر خاير بك فأعطاه نيابة مصر والغزالى نيابة الشام ، وسمح لهما بالإستعانة ببنى جنسهم ليساعدوهم فى الحكم ، وتم تقسيم البلاد إلى أربعة وعشرين مديرية على رأس كل واحدة منها أمير مملوكى (٤) وفى الوقت نفسه قسم مصر كلها من الناحية السياسية إلى ثلاثة أقسام كبيرة ، وجعل على كل قسم رئيسا من المماليك لمعاونة خاير بك فى حكم البلاد ومن ثم أطلق عليه ملك الأمراء ، كما كان هؤلاء الثلاثة يتبعون الديوان (الوزارة) بإستانبول مباشرة. (٥)

وقد غادر الباد شاه سليم القاهرة قاصدا الشام ومنها لإستانبول فى العاشر من شهر سبتمبر عام ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م وعاد من حملة مصر وهى أطول حملة فى التاريخ العثمانى حيث

---

(١) إمبابه : من القرى القديمة ، إسمها الأصلى نيابة وسميت بيابة وأنبابة وغيرها وهى كانت جزيرة بين شطى النيل ، رمزى : القاموس الجغرافى ق ١، جـ ٣ ، ص ٥٦.

(٢) بدائع الزهور : جـ ، ٣ ص ١١٨ ؛ محمد فريد : الدولة العلية ص ٧٥ ، ٧٦.

(٣) إبن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ، ص ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨.

(٤) الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ ٣ ص ٣١٥.

(٥) إبن إياس : المصدر السابق جـ ٣ ، ص ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢.

مكث خلالها سنتين وشهرين ، وإصطحب معه محمد بن الغورى والخليفة. (١)

وترك بمصر حامية عثمانية مكونة من خمسة آلاف فارس وخمسمائة رامى بندق وجعلهما تحت قيادة (خير الدين أغا) قائد الإنكشارية وذلك لحفظ الأمن فى داخل البلاد.(٢)

على كل حال عاد السلطان وهو فاتح للأقطار التى يعيش فيها اليوم ملايين المسلمين عاد وهو حائز على الخلافة الإسلامية ، بعد أن نظم أحوال مصر بالصورة الملائمة للنظام العثمانى ، وأصبح الوزير الأعظم يونس باشا أول والى - بكلر بك - (رتبة الآن فريق أول) على مصر ، وبعد إعدامه ولى خاير بك المملوكى الذى يعتبر ثانى والى عثمانى على مصر. (٣)

وقد قرر السلطان أن تحتل مصر المرتبة الأولى ، وإستمرت فى هذه المكانة حتى تاريخ الإنفصال النهائى لمصر عن الإمبراطورية العثمانية سنة ١٩١٤ م.

(٣) عوامل عجلت بنهاية المماليك الجراكسة :

المتأمل فى تاريخ المماليك يدرك لأول وهلة أن الدولة المملوكية الثانية لم تشتغل بغير الفتن والمؤامرات-التى إستغرقت معظم تاريخها ، وكان شغلها الشاغل هو تدبير المؤامرات وقمع الثورات ، وتولية سلطان وعزل آخر ، ثم توز يع نفقة على فريق وشح فيها على آخر ،

---

(١) فريد : الدولة العلية ، ص ٧٦ ، ٧٧.

(٢) إبن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦. لم يذكر إبن إياس فى تاريخه أن الخليفة المتوكل قد عاد إلى مصر إلا بعد عام ١٥٢٢ م وهو العام الذى ينتهى فيه تاريخ إبن إياس بل يذكر أنه جلس بإستانبول ورأى بعينه كثير من المصريين يعودون للقاهرة.

وليم موير : تاريخ لدولة المماليك فى مصر ، ص ٢٠٠ حاشية ١.

(٣) إبن إياس : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩.

وإرضاء جماعة وإغضاب أخرى ، وهكذا ، وعلى الرغم من هذا كله فإن المماليك أسهموا بأوفر نصيب في شتى الميادين. (١)

ويمكن إجمال أهم العوامل التي عجلت بنهاية سلطنة المماليك في الآتي :

- التفوق الحربي لدى العثمانيين ، ممثلا في المدفعية الكبيرة والصغيرة والمتحركة ، فكان تقدمهم عن المماليك يعدل نصف قرن من الزمان.
- وقوف السلطان سليم على معظم أحوال مصر وإمكانياتها (لا سيما العسكرية والإقتصادية) والتخطيط الجيد لفتحها سرا.
- السرية التامة التي إنتهجتها الدولة العثمانية بشأن الإتجاه نحو الشام ومصر وضم المقدسات الإسلامية لها .
- إعتماد العثمانيين على جيش قوي وقادة عظام ، على أعلى درجة من الكفاءة العسكرية ورسم الخطط الحربية ، وكان سبب ذلك حروبهم المستمرة منذ قرن من الزمان فكانوا يحاربون عشر دول وأحيانا عشرين ، فكان لابد من جيش قوي وأسلحة متطورة وقيادة حكيمة بعكس المماليك كانوا في إسترخاء تام لفترة طويلة من الزمان ، أي منذ الخطر التيموري.
- النظام الإجتماعي الثابت والمتوازن داخل الدولة العثمانية ، ساعد على رفع مستواها ماديا وأدبيا وإقتصاديا ، بل أصبح القدوم من أنحاء العالم الإسلامي رغبة في الحصول على وظيفة لدى الدولة من الأمور المشرفة. (٢)
- كانت الدولة المملوكية تعيش دور الإنحطاط ، والدولة العثمانية تعيش دور الفتوحات فأدى ذلك لإرتفاع معنويات العثمانيين ، هذا بجانب التفوق النوعي للحكام العثمانيين الذين يصلون

---

(١) طرخان : مصر في عهد المماليك الجراكسة ص ٥٠.

(٢) أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، جـ ١ ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢.

الحكم بالوراثة ، بخلاف الحكام المماليك الذين يصلون للحكم بإتفاق الأمراء ، وذلك يؤثر الحاكم وإنطلاقاته وصلاحياته. (١)

شعور المماليك بالتعالى والأمتياز ، حال دون إلتحامهم بالشعب المصرى والشامى بل بية الشعوب، فضلا عن عدم تكلم السلاطين للعربية وإصرارهم على التركية.

بجانب حماية المماليك للمقدسات الإسلامية ورعاية الخليفة المقيم بالقاهرة وكذلك الأمانات الأزهر الشريف ، إعتذوا بفكرة أن فرسان المماليك أشجع الفرسان ولا يمكن قهرهم ، تمسكوا بالعادات والتدريبات القديمة المتمثلة فى الإعتماد على الفروسية والكر والفر.

كان للعثمانيين كيان سياسى واحد والمماليك فئات إقطاعية لها إمتيازاتها التى استمرت لال العهد العثمانى إلى أن قضى عليها محمد على فى مذبحة القلعة.

تدهور وإنحطاط الإقتصاد المملوكى ، الذى يعانى الشيخوخة أصلا بسبب تحول التجارة إلى رأس الرجاء الصالح ، بحيث لا يمكن مقارنة مع موارد الدولة العثمانية.

- تاريخ العثمانيين الحافل بالأمجاد العسكرية ، حيث أزالوا أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ لوسيط ألا وهى الامبراطورية البيزنطية ، وبالتالى أكسبتها مكانة معنوية رفيعة فى أنحاء لعالم الإسلامى ، ساعدها فى فتح العالم العربى دون عناء يذكر. (٢)

---

(١) عدلى فريد : السلطان قانصوه الغورى وعصره يذكر مايفيد نفس المعنى ص ٢٤٧ ، ٢٤٨.

(٢) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، طبعة ثانية دار العلم للملايين ، بيروت ، سنة ١٩٦٠ م ، ص ١٣ - ٢٨ .

- إستخدم العثمانيون فى حربهم مع المماليك أسلوبى التجسس والحرب النفسية على أرقى مستوى. (١)

- أقام العثمانيون علاقات مع أهالى الشام والحجاز ومصر قبل زحفهم إليهم ليكون ذلك أدعى لقبولهم بدلا من المماليك ، فمهد السبيل أمامهم فكانوا يدخلون تلك المناطق وكأنهم يدخلون ولايات عثمانية ، وإن قاد طومان باى المقاومة ضدهم فى مصر . (٢)

- كثرة الفتن والثورات ، والتمرد ، وقلة النفقة ، وقطع المرتبات عن الجنود وما صحب ذلك من عمليات السلب والنهب الواسعة النطاق ، كلها مجتمعة ساهمت فى نهاية الدولة المملوكية.

- لم يعد السلطان الغورى العدة اللازمة أثناء سفره إلى الشام فسمى ما صحبه من الجنود تجريدة عسكرية - حملة صغيرة - لمواجهة الدولة العثمانية التى كانت على أهبة الإستعداد لمواجهته.

- إنقسام جيش المماليك إلى شيع وأحزاب فكان الجيش الخارج لملاقاة السلطان سليم مفكك الأوصال والفتنة تظهر بين جنوده ، بل حدثت فعلا أثناء المعركة تزعمها كل من القرانصة والجلبان. (٣)

- الخيانة : كانت كالسوس ينخر فى عظام المقاومة المملوكية ، فإستطاع السلطان سليم أن يضم إليه بعض قواد الغورى - نوابه بالشام - مثل خاير بك نائب حلب ، وجان بردى الغزالى

---

(١) زين الدين النحريرى الحنفى : الدر المنضد فى مدح الوزير محمد ، مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ١٧٩٨ تاريخ تيمور، ورقة ١٣٧ ، إبن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، جـ ٨ ، ص ١٤٤.

(٢) سيديو : تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ، طبعة ثانية ، الناشر عيسى البابى الحلبى ، القاهرة سنة ١٩٦٩ م ، ص ٤٣٠ .

(٣) إبن إياس : بدائع الزهور ، جـ ٣، ص ٤٦. هناك بعض النقاط إجتهادا دون الرجوع لنص من المراجع أو المصادر.

نائب حماة ، وتخلى القائدان عن الغورى أثناء سير المعركة فكانت الهزيمة من نصيب الجيش المملوكى وقتل السلطان الغورى.(١)

ولم تكن الخيانة وقفا على أمراء المماليك فحسب بل تعديتهم إلى العربان ومشايخهم ، لا سيما حسن بن مرعى شيخ عربان البحيرة ، وأحمد بن بقر شيخ عربان الشرقية وقد لقى حسن ابن مرعى جزاء خيانته على يد المماليك سنة ٩٢٥ هـ / ١٥١٩ م بل وشربوا من دمه فكان الجزاء من جنس العمل ، فضلا عن عرب غزالة الذين إنضموا للعثمانيين أثناء واقعة وردان، التى قضت على كل آمال المقاومة المملوكية. (٢)

- إعتقاد المماليك بأن الفروسية والشجاعة والبطولة الفردية كفيلة بتحقيق النصر فى المعارك فتجمد تفكيرهم العسكرى ولم يطوروا (٣) أنفسهم بما يساير التطور العالمى فنتج عن ذلك إخفاق المقاومة ولم تنفعهم فروسيتهم ولا بطولتهم. (٤)

- الامارات الحدودية بين الدولتين ساهمت بشكل مباشر فى إستحكام العداء بين الدولتين ، بالإضافة لإيواء كل سلطان منهما للأمراء الفارين من جانب الطرف الثانى ، فضلا عن إستيلاء السلطان قايتباى على هدية ملك الهند المرسلة للعثمانيين.

- كانت الدولة المملوكية تحتاج لتنظيم جديد فى الإدارات والوزارات وحسن قيادة من القاعدة إلى القمة. (٥)

---

(١) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ١٥.
(٢) إبن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، جـ ٨ ، ص ١٥٠ ، ١٥١ ؛ إبن زنبل : آخرة المماليك ص ١٥٤ - ١٦٤.
(٣) حاول السلطان طومان باى اللحاق بركب التقدم عندما إهتم بالأسلحة والمدافع ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان ، حتى إن المدافع لم تستعمل فى معركة الريدانية.
(٤) إبن زنبل : آخرة المماليك ، ص ١١٩.
(٥) عبد العظيم خطاب:قانصوه الغورى ونهاية الدولة المملوكية فى مصر والشام،مايفهم من،ص ٥٧٨.

تلك هى الخطوط الرئيسية للهزيمة المملوكية ونهاية دولة المماليك فى مصر والشام وترتب عليها تغير خريطة العالم السياسية من أساسها وهذا التغير ظل مستقرا لعدة قرون.

وبقدر ما أحدث تأثيرا كبيرا فى العالم الإسلامى ، فقد أحدث أيضا تأثيرا أكبر فى أوربا ، حيث أن ذلك يعتبر الخطوة الأخيرة نحو الدولة العثمانية العالمية الكبرى؟

لقد تمكن العثمانيون من السيطرة على شمال إفريقيا وشرقها بشكل واسع وإتجهت نحو المحيط الهندى ، فحقق السلطان سليم آمالا كبيرة فى الشرق.

وعلى كل حال مهما يكن من أمر : فيمكن القول أن الفتح العثمانى للشرق قد تمخض عن ثلاث نتائج هامة هى :

أولا : أوجد هذا الفتح للشرق الأوسط وحدة سياسية متكاملة بعد تفككه وإضمحلاله ، لا سيما بعد سقوط الدولة العباسية ، وإن كانت وحدة راكدة منعزلة ، فلم يعد له محور فى النشاط العالمى فى السياسة أو الإقتصاد ، ولم يعد يتصل بالأحداث العالمية من قريب أو بعيد ، بل دخل عزلة (سياسية وفكرية وإقتصادية) إستمرت حتى مطلع القرن التاسع عشر (العصور الدائمة) وكانت حياته تسير وفق أحداث داخلية خاصة به .

وبالرغم من هذا كله فقد أكسبت تلك الوحدة الشرق نوعا من الإستقرار النسبى.

ثانيا : إن الفتح العثمانى للشرق قد انقذ العالم السنى فى كل من آسيا الصغرى والشام ومصر

والعراق إلى حد كبير من السيطرة الشيعية وحصرها داخل إيران. (١)

ثالثا : وإن لم يتمكن العثمانيون من طرد البرتغاليين من مياه المحيط الهندى فقد إستطاعوا وقف توغلهم فى البحار العربية ومن ثم إنقاذ الشرق من الخطر الأوربى.

وختاما : فقد سقطت دولة المماليك الجراكسة تلك الدولة التى دافعت بسيوفها ودمائها عن عزة الإسلام ورفعة المسلمين ، وردت عن الشرق الإسلامى أخطارا محققة كادت أن تودى بها.

وهكذا كانت نهاية سلطنة المماليك مجيدة كما كانت حياتها سواء بسواء ، وترجع شهرتهم فى التاريخ بسبب السيادة العليا فى الشرق الأوسط والعالم العربى والإسلامى خاصة والريادة فى العالم الإسلامى عامة ، فضلا عن النهضة الفنية التى خلدتهم ولم تزل شواهدها باقية خالدة حتى الآن ، ومن ناحية أخرى فقد بلغ الإتساع الإمبراطوري أقصاه على عهد تلك الدولة ، بحيث أصبحت مصر فى زمنهم قلب العالم الإسلامى النابض وينبوع حياة العرب ، فلله درها قد أسدت خدمات جليلة للإسلام والمسلمين.

(١) أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ، ص ١٠٤.

الخاتمة وأهم النتـــائج

****

إن موضوع العلاقات السياسية بين المماليك والعثمانيين من الموضوعات الجديرة بالبحث والدراسة والإهتمام.

وقد أمكن من خلال هذا البحث : الوقوف على ماهية تلك العلاقة وكيفية تطورها ، بعد دراستها على أسس منهجية متعمقة ، نتج عنها إظهار صفات الموضوع وإتجاهاته ، فى موضوعات محددة ، إرتبط كلٌ منها بالآخر فى إطار عرض متكامل ، مع حسن التوجيه وتيسير الفهم.

وقمت بالتعريف بالدولة المملوكية والعثمانية ، وخُتم ببعض الملاحظات المهمة عليهما.

وتعرضت : لمسار العلاقات بين الدولتين ، وكيفية الإتصال بينهما ، ثم ركزت على : إتجاه العثمانيين نحو الشرق بعد تشبع فتوحاتهم فى الغرب ، حيث بلغت ذروتها فى عهد السلطان الفاتح وبايزيد الثانى ، و الهدوء الذى ساد فى الغرب فى عهد السلطان سليم الأول وإتجاهه نحو الشرق حيث إصطدم بالفرس فى معركة جالديران وإنتصر عليهم سنة ٩٢٠ هـ/١٥١٤م وبعد ذلك تتبعت ماهية الخلاف المملوكى العثمانى ، وتوتر العلاقة بين الدولتين حيث تمخض عنه الصدام المسلح فى معركة مرج دابق بالشام سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م ترتب عليها هزيمة السلطان الغورى وقتله وإنتصار السلطان سليم ودخوله الشام.

ثم خلافة السلطان طومان باى للغورى ومقاومته للعثمانيين فى الريدانية وهزيمته فيها سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م، وعدم يأسه ومقاومته لهم فى معارك كثيرة أنتهت بالقبض عليه وشنقه على باب زويلة ، وبذلك أصبحت مصر ولاية عثمانية ثم ذكرت أهم العوامل التى عجلت بنهاية دولة المماليك الجراكسة.

ويتضح من خلال هذا البحث : أن العلاقة بين الدولتين كانت طيبة فى القرن السادس الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، تمثلت فى إرسال الهدايا من كل منهما للآخر والتهانى والتبريكات كلما حدث نصر لأحد الفريقين على الأعداء ، ثم تطورت إلى تقديم العثمانيين المساعدة للماليك لدرء الخطر البرتغالى عن البحر الأحمر.

إلا أن سياسة العثمانيين المتقلبة تجاه المماليك سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٩٠م أدت إلى سوء العلاقات بينهما حيث خططوا لضم الشام ومصر والتخلص من سلطنة المماليك.

وبسيطرة العثمانيين على الشرق إنتقلت لأقطاره الأساليب العثمانية فى الحكم حيث أصبحت اللغة التركية لغة رسمية وإن حاول السلطان سليم جعل العربية لغة رسمية للعثمانيين. ومع ذلك فهل ياترى كان العثمانيون فى أول الأمر يقصدون من فتحهم للشرق وحدة إسلامية بزعامتهم ، وهل وجدت قبولا من كل شعوبه؟

يبدو ذلك حيث لم تظهر أى مقاومة تذكر للعثمانيين ، حتى إن رجالا من المماليك مثل الغزالى وخاير بك اللذان وصفا بأنهما خائنين كانا من أشد المتحمسين للعثمانيين ، ربما على أساس أن الدولة العثمانية أصبحت الزعيمة التى قادت الجهاد بأوربا فأعادت للمسلمين بفتحها للبلقان ، ما يقابل الأندلس التى ضاعت .

على أن العثمانيين الذين إستولوا على مصر ، عملوا على القضاء على جميع مقوماتها الحضارية المتفوقة ، ونهبوا أموالها وتراثها العلمى ، بل ونقلوا إلى إستانبول الخليفة والقضاة والأطباء والمهندسين والبارزين فى إدارة الأعمال ، وكل ذى علم متفوق فى مجاله ، فإنتقل بذلك قلب الإسلام النابض من القاهرة إلى إستانبول ومعه العلم والصدارة.

حقا لقد مرت مصر عبر تاريخها الطويل بفترات تدهور ، إلا أن التدهور الذى وقع لها على أيدى العثمانيين لم يكن له مثيل ، حيث أنه مس كل كيانها وتأثرت به كثيرا.

ولا أبالغ إذا قلت إن التدهور الذى حل بمصر ، تبعه تدهور مماثل فى الأقطار العربية ، حيث إستقر الحكم العثمانى فى المنطقة زهاء أربعة قرون.

على كل حال : كان لوجود المماليك فى مصر أثر كبير فى ظهورهم على مسرح التاريخ ، وصارت بهم صاحبة الصدارة والقيادة الحضارية ، ولكن سقطت صاحبة العظمة والأمجاد الحربية فى أيدى الدولة العثمانية الفتية.

ومن ثم أصبحت مصر محتلة بعد أن كانت مستقلة ونيابة بعد أن كانت سلطنة وتابعة للخلافة بعد أن كانت دارا لها ، وحرمت من أسباب النهوض والتقدم وإبتعدت عن التيارات الدولية ، وعانت من التأخر والإنحلال ، مع أنها كانت أعظم بلاد الدنيا قاطبة ، كما عبر عن ذلك المؤرخ إبن خلدون بقوله :

(ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر فهى أم العالم وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم والصنايع ....).

ويمكن إجمال أهم النتائج التى تم التوصل إليها فى الآتى :

- معظم سلاطين الدولة المملوكية الثانية ، من أصل جركسى ، وحكوماتهم إستشارية قاصرة على المماليك فقط ، وتميزوا بالذكاء وحبهم للدين ، والعلماء.

- على الرغم من كثرة نزاعات هؤلاء السلاطين الداخلية ، فقد قصروا خلافاتهم فى الإطار الداخلى ، ولم يمكنوا أى قوى خارجية من التدخل فى شئون البلاد ، وبالتالى حافظوا على سلامة وأمن البلاد من الأخطار المحدقة بها.

- عانى الشعب المصرى من كثرة منازعات المماليك الداخلية وحروبهم الخارجية وفرضهم للضرائب والإسراف ومظاهر الأبهة والعظمة.

- أسرف سلاطين المماليك فى الحفاوة برسل آل عثمان ، قلما قابلوا رسل غيرهم بها ، وهو مظهر لفزعهم من قوة العثمانيين المتعاظمة وضعف دولتهم المتهالكة ، ومداراة الضعف بالملق الظاهر .

- كانت الخيانة كالسوس ينخر فى عظام الدولة وإستشرى فى جميع أجزائها ، وقد ضرب أهالى مصر أروع الأمثلة فى الكفاح والصبر والجلد ، عندما أتيح لهم فرصة قتال العثمانيين دون وجود عامل الخيانة ، وواقعة أطفيح خير شاهد.(١)

- ظل السلطان طومان باى موضع التقدير بين معاصريه وغير معاصريه فهو بحق صورة مشرفة للبطل الذى تصدى للصعاب ، وفرض بطولته مع قلة حيلته ، وبموته إنتقلت مصر من مسرح التاريخ إلى كتبه وتغيرت خريطة العالم السياسية من أساسها ، وإستمر هذا التغير مستترا لعدة قرون.

- لم يمتزج المماليك مع المصريين ، فلم يزوجوهم ويتزوجوا منهم ، إتباعا لسياسة الإستعلاء والعزلة ، وقد إتبع العثمانيون نفس السياسة ، فلم يخلطوا أنفسهم بالشعوب الأوربية ، فلم يتمكنوا من عثمنة تلك الشعوب ، ومن ثم نشر الإسلام هناك.

- التاريخ العثمانى ذات أهمية خاصة ، يجب الإهتمام به ، عبر عن ذلك المؤرخ يلماز أوزتونا حين قال (يصعب فهم الجمهورية التركية الحالية والعالم العربى وتكوينه ، بل والعالم كله ، دون معرفة التاريخ العثمانى).

- أصبح للعثمانيين مكانة مرموقة فى أرجاء العالم الإسلامى ، بعد فتح القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطية التى شغلت المسلمين طوال تاريخهم الوسيط.

- كان من دواعى إتجاه العثمانيين للشرق العربى عوامل أهمها:

• قوة الصفويين المتعاظمة وخوفهم من خطرهم الشيعى.

---

(١) عدلى فريد : السلطان قانصوه الغورى وعصره ، ص ٢٤٦ ، ومابعدها .

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم - سنن الترمذى .

سنن أبو داود - سنن إبن ماجه

أولا: المخطوطات:

إبن الحمصى أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصارى الشافعى .

(حوادث الزمان وأنباؤة ووفيات الأعيان وأبناؤه) (مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم ٤٨٠) .

الزناتى - محمد بن عبدالله بن على .

(الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب) .

مخطوط بدار الكتب المصرية، ١٦٠٤ تاريخ

السيوطى - جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن الأسيوطى الشافعى ت (٩١١ هـ/١٥٠٥ م) .

(تاريخ الأشر ف قايتباى) - مخطوطبدار الكتب ، برقم ٦١ تاريخ .

العمرى - شهاب الدين بن فضل الله العمرى (٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م) .

(مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار) - مخطوط بدار الكتب برقم ٢٥٦٨ ت .

العينى: بدر الدين محمود بن أحمد ت (٨٥٥ هـ/ ١٤٥١ م) .

(عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان - عصر سلاطين المماليك) .

مخطوط بدار الكتب برقم ٨٢٠٣ معارف .

المقدسى : مرعى بن يوسف الحنبلى ت (١٠٣٣ هـ) .

(نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الملوك والسلاطين) .

مخطوط مصور، بمعهد المخطوطات العربية ، برقم ٤٣١.

النحريرى: زين الدين النحريرى الحنفى .

(الدر المنضد فى مدح الوزير محمد) ، مخطوط بدار الكتب ، برقم ١٧٩٨ ت.

النويرى: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت (٧٣٢ هـ/ ١٣٣٢ م) .

(نهاية الأرب فى فنون الأدب) ، مخطوط بدار الكتب ، برقم ٩٤٥ معارف .

إبن الوكيل :يوسف أفندى بن محمد الملوى ،

(تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب)

مخطوط بمعهد المخطوطات العربية ،برقم ٤٧٧ معارف عامة .

إبن خليل : عبد الباسط يوسف بن خليل .

(نزهة الأساطين) ، مخطوط مصور بمعهد المخطوطات،برقم ٥٤٣ تاريخ .

قانون نامة مصر: أصدرة السلطان المشرع لحكم مصر .

مخطوط بدار الكتب الصرية ، برقم ٤٦ ت ترجمه للعربية : أحمد فؤاد متولى سنة ١٩٧٧ م .

ثانيا المصادر:

أحمد فريدون : ت(٩٠١ هـ/١٤٩٥ م)

منشأت الملوك والسلاطين ، إستانبول،سنة ١٣٩٨ هـ .

إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ،القاهرة،سنة١٣٤١ هـ/١٩٢٣ م.

أبوالحسن : على بن يوسف بن الحكم (الدوحة الشبكية وضوابط دار السكة المصرية،حققة

حسين مؤنس) طبعة مدريد،سنة١٣٧٩ هـ/١٩٦٠ م.

الحميرى : محمدبن عبد المنعم الحميرى

الروض المعطار فى خبر الأقطار،تحقيق : إحسان عباس

نشر مؤسسة ـ ناصر للثقافة ط ١،سنة ١٩٩٧٥ م

الحنبلى : إبن العماد عبد الحى بن العماد ت(١٠٨٩ هـ/١٦٧٨ م) ،

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب .

ثمانية أجزاء،نشر مكتبة القدس ، سنة١٣٥١ هـ/١٩٢٢ م .

الخطيب:على بن داود الصيرفى ت(٩٠٠ هـ/١٤٩٥ م) .

أ - إنباء الهصر بإنباء العصر- تحقيق حسن حبشى،القاهرة، سنة ١٩٧٠ م .

ب - نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ أهل الزمان .

تحقيق حسن حبشى، ثلاثة أجزاء ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤ م .

الزركلى:خير الدين الزركلى.

(الأعلام) ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء العرب والمستعمرين والمستشرقين ،

نشردار العلم للملاين،بيروت،سنة١٩٩٠ م.

الإسحاقى : محمد بن عبدالمعطى بن أبى الفتح بن أحمد بن عبد الغنى .

ت(١٠٦٠ هـ/١٦٥٠م) .

(لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول) ، نشر المطبعة العثمانية

بالقاهرة سنة ١٣١٥ هـ

السخاوى : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت(٩٠٢ هـ/١٤٩٦ م).

أ - (التبر المسبوك فى ذيل الملوك) ، القاهرة ، بولاق،سنة،١٣١٥ هـ .

ب - (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) ، دار الجيل ، بيروت ، سنة ١٩٩٢ م .

السيوطى :جلال الدين عبد الرحمن الكمال ت(٩١١ هـ/١٥٠٥ م).

(حسن الحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة) ، القاهرة ، سنة ، ١٣٨٧ هـ /١٩٦٨ م .

الشرقاوى : الشيخ عبدالله بن حجازى بن إبراهيم الشرقاوى ت(١٢٢٧ هـ) ،

(تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاةوالسلاطين) ،

كتاب مطبوع على هامش كتاب الأسحاقى سالف الذكر.

الشهر ستانى : أبوالفتح بن أبى القاسم بن عبد الكريم.(الملل والنحل) ،القاهرة،سنة٩٠٩ م ،

الطبرى : أبوجعفرمحمد بن جرير ،

(تاريخ الأمم والملوك) ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة سنة ١٩٦٢م ،

العمرى : شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله ت(٧٤٩ هـ/١٣٤٨ م) ،

(التعريف بالمصطلح الشريف) ، القاهرة ، سنة ١٣١٢ هـ ،

الغزى:الشيخ نجم الدين بن بدر الدين بن أحمد (الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة) ،

ثلاثة أجزاء،تحقيق جبرائيل سليمان جبور ، المطبعة الأمريكية ،بيروت سنة ١٩٤٥ م .

القرمانى :أبو العباسى أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقى ت (١٠١٩هـ/١٦١٠ م) .

(أخبار الدول وآثار الأول) ، مطبعة الميرزا عباس ، بغداد ، سنة ، ١٢٨٢ هـ ،

القلقشندى : أبو العباسى بن أحمد ت (٨٢١ هـ/١٤١٨ م) .

(صبح الأعشى فى صناعة الانشا) ، دار الفكر بالقاهرة سنة ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧ م ،

المقريزى : تقى الدين أبو العباسى أحمد بن على ت (٨٤٥ هـ /١٤٢٢ م) ،

أ- (السلوك لمعرفة دول الملوك) ، تحقيق محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة سنة ١٩٥٨ م ،

ب -(المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار)، دار التحرير ،بولاق القاهرة سنة١٢٧٠ هـ

ج - (إغاثة الأمة بكشف الغمة)، منشورات دار الوليد ،حمص، سورية سنة ١٩٥٦ م ،

إبن إياس : محمد بن أحمد إياس المصرى ت(٩٣٠ هـ/١٥٢٣ م) ،

(بدائع الزهور فى وقائع الدهور) ، ثلاثة أجزاء ،بولاق القاهرة سنة ١٣١١ هـ/١٣١٢ هـ ،
،تحقيق محمد مصطفى ،وصدرت له طبعة من خمس أجزاء سنة ١٩٦٣ م .

إبن بعره : منصور بن بعره الذهبى .

(كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية) ، تحقيق عبد الرحمن فهمى ،
سنة ١٣٨٥هـ /١٩٦٦ م .

إبن تغرى بردى: جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأ تابكى ت(٨٧٤ هـ/١٤٧٠ م) .

أ- (المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى) ، جزءان ، تحقيق محمد أمين ،الهيئة العامة للكتاب ،سنة١٩٨٤ م .

ب - (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) . طبعة دار الكتب بالإشتراك مع طبعة كاليفورنيا ،نشر وليم ببر،سنة ١٩٣١ م .

إبن حجر : شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى ت(٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨ م) .

(الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة) خمس أجزاء،تحقيق محمد سيد جاد ،سنة ١٩٦٦ م .

١ - ابن خليل : غرس الدين بن خليل بن شاهين الظاهرى .

(زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك) ، طبعة باريس ، سنة ١٨٩١ م .

٢ - خواندمير: غياث الدين بن محمد (حبيب السير فى أخبار البشر) ،
طبعة بمباى ، الهند ،سنة ١٨٥٧ م .

دحلان : السيد أحمد بن زينى دحلان (مفتى مكة المكرمة) .

(الفتوحات الاسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية) نشر مؤسسة الحلبى ،
مطبعة المدني بالقاهرة، سنة ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٨ م .

إبن دقماق : إبراهيم بن محمد المصرى ت(٧٠٩ هـ/ ١٤٠٦ م) .

أ - (الانتصار لواسطة عقد الأمصار) ، القاهرة ،سنة ١٣٠٩ هـ/ ١٨٩٣م .

ب - (الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين) ،

تحقيق محمد كمال عز الدين بيروت ،سنة ١٩٨٥ م ،

إبن زنبل الرمال : أحمد بن أبى الحسن على نور الدين المحلى الشافعى ،

ت (٩٦٠ هـ/ ١٥٥٣م).

(آخرة المماليك) : (أو واقعة سليم خان فى فتوح مصر مع السلطان قانصوة الغورى

وطومان باى) ، مطبعة حجر بالأستانة ، سنة ١٢٨٧ هـ ،

أبو شامة : شهاب الدين أبو محمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل ت (٦٦٥ / ١٢٦٦ م) ،

ا - (الذيل على الروضتين) (تراجم رجال ق ٦ ، ٧ هـ) ،

دار الجبل ، بيروت ، سنة ١٩٧٤ م ،

ب - (الروضتين فى أخبار الدولتين) ، جزاءن ، القاهرة ، سنة ١٢٨٧ هـ ،

إبن طولون : شمس الدين محمد بن على بن طولون .

(إعلام الورى بمن ولى نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى) ،

تحقيق عبد العظيم خطاب ، مطبعة جامعة عين شمس ، سنة ١٩٧٢ م ،

على مبارك باشا .

(الخطط التوفقية الجديدة لمصر والقاهرة) ثلاثون جزاء فى أربع مجلدات ، مطبعة بولاق

بالقاهرة ، سنة ١٣٠٦ هـ ،

إبن واصل : جمال الدين محمد بن سالم الحموى ت (٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) ،

(مفرج الكروب فى أخبار بن أيوب) جـ ٤ ، ٥ تحقيق حسنين ربيع مطبعة دار الكتب ،

بالقاهرة ، سنة ١٩٧٢ م ،

ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى ت (٦٢٦ هـ/ ١٩٠٦ م) ،

(معجم البلدان) ، إثنا عشر جزءاً ، القاهرة ، سنة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٦ م .

ثالثا: المراجع العربية والمترجمة .

إبراهيم حسن وزميليه : الدعوة للاسلام، ط ٢،سنة ١٩٥٧ ، القاهرة .

إبراهيم بك حليم : (التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية)، ط القاهرة ، سنة ١٩٠٥ م .

إبراهيم على طرخان : (مصر فى عصر الدولة المماليك الجراكسة) ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سلسة الألف كتاب، رقم ٢٧٩ ،سنة ١٩٦٠ م .

أحمد السيد دراج : ١ - (المماليك والفرنجة فى ق ٩هـ ١٥ م) ، القاهرة ، سنة ١٩٦١ م .

٢ - (جم سلطان والدبلوماسية الدولية) ، مستخلص من المجلة التاريخية المصرية المجلد الثامن ،القاهرة ، سنة ١٩٥٩ م .

أحمد جودت : (تاريخ جودت) ، مطبعة جريدة بيروت ، سنة ١٩٨٠ م .

أحمد رفيق : (صحائف مظفريات عثمانية)، إستانبول ، سنة ١٣٣١ هـ .

أحمد عبد الرازق : (دراسات فى المصادر المملوكية المبكرة) ، القاهرة ، سنة ١٩٧٤ م .

أحمد عزت عبد الكريم : (دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة)، مطبوعات الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية ،سنة ١٩٧٦ .

أحمد فريد رفاعى : (عصر المأمون)، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ط١ ، سنة ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧م .

أحمد فؤاد متولى : (الفتح الثمانى للشام ومصر ومقدماته) ، مكتبة الأنجلو بالقاهرة سنة ١٣٤١ هـ / ١٩٢٣ م .

إسماعيل مظهر : (مصر فى قيصرية الاسكندر المقدونى) ، سنة ١٩٣٧ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة .

السيد محمد الدقن : (الأشراف طومان باى والمقاومة المصرية للغزو العثمانى) ، مطبعة الحسين الجديدة ، ط١ ، القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

الميجر سفدج ، (صفوة تاريخ مصر والدول العربية) .

ط ١٠ ، سنة ١٣٤٦ / ٢٩٢٨ مطبعة دار المعارف بالقاهرة ،

بارتولد : (تاريخ الترك فى آسيا الوسطى) ،

ترجمة أ حمد السعيد سليمان ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة سنة ١٩٥٨ م .

بديع الخولى : (تاريخ الصفويين) ، الجزء الأول ، القاهرة سنة ١٩٧٦ م .

بول كازانوفا : (تاريخ وصف قلعة القاهرة)،

ترجمة : أحمد السيد دراج ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة١٩٧٤ ،

توفيق إسكندار : (تاريخ مصر فى محفوظات البندقية) .

(وثائق غير منشورة) السلسة الأولى (المعاهدات) سفارة بيرو بيدو ، ومعاهدة تنازل مصر عن قبرص سنة ١٤٩٠ م، مكتبة المصرى ، القاهرة ، سنة ١٩٥٦ .

جوستاف لوبون : (حضارة العرب) ،

ترجمة عادل ذعيتر ، ط ٣ ، القاهرة سنة ١٩٥٦ م

حسن أحمد محمود : (البعثات الدبلوماسية لدولة سلاطين المماليك) ،

محاضرة فى الجمعية التاريخية حول ابن إياس (دراسات وبحوث) بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم فى الفترة من ١٦ إلى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٧٣ ، إشراف أحمد عزت عبد الكريم .

حسن الباشا : (الألقاب الاسلامية) جـ١،٢ ، مكتبة دار النهضة المصرية سنة ١٩٥٧ م.

حسن عبد الوهاب : (العمارة الاسلامية بعصر المماليك البحرية)،

مجلة العمارة ،العدد١٩٢٠م ،

حكيم أمين عبد السيد: (قيام دولة المماليك الثانية) ،

دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة سنة ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٧ م ،

روزنثال : (علم التاريخ عند المسلمين) ، ترجمة صالح العلى ، بغداد سنة ١٩٦٣ م ،

زبيدة عطا : (بلاد الترك فى العصور الوسطى ، بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون) ،

طبع ونشر دار الفكر العربى بالقاهرة ، لاتوجد سنة للطبع .

زتر شتين : (تاريخ سلاطين المماليك) ، نشرة ك.ف. زترشتين ، لندن سنة١٩١٩ م ،

ساطع الحصرى : (البلاد العربية والدولة العثمانية) ،

ط١ ، ودار العلم للملايين ، بيروت سنة ١٩٦٠ م ط٢ ١٩٦٥ م ،

سعيد الأحدبه : (تفصيل الياقوت والمرجان فى إجمال تاريخ بن عثمان) ،

مطبعة بيروت الأدبية القاهرة سنة ١٣٠٤ هـ ،

سعيد عبد الفتاح عاشور :أ.(العصر المماليكى فى مصر والشام) ،

ط١ ، دار النهضة العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٥ م/ ط٢ ١٩٧٦ م ،

ب ـ (الأيوبيين والمماليك فى مصر والشام) ، دار النهضة بالقاهرة بدون تاريخ ،

جـ (الحركة الصليبية) جـ ١ ، دارالنهضة العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٣ م.

د ـ (قبرص والحروب الصليبية) ، دار النهضة العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٧ م.

و ـ (أوربا العصور الوسطى) ، التاريخ السياسى ط٢ مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٥ م

شارل ديل : ا(لبندقية جمهورية ارستقراطية) ،

ترجمة أحمد عزت عبد الكريم ، وتوفيق إسكندر نشر دار المعارف بالقاهرة ، بدون .

عبد الرحمن زكى: (العرب والكشف عن البارود) ،

نشر المجمع المصرى للثقافة العلمية لكتاب ٤٣ ـ النقوش الزخرفية ، القاهرة سنة ١٩٦٣ م

عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : (محاضرات فى معالم التاريخ الأوربى الحديث) ،

مطبعة الجبلاوى بالقاهرة طبعة أولى سنة ١٩٧٦ م .

عبد العزيز سالم : (المآذن المصرية) (نظرة عامة عن أصلها وتطورها من الفتح العربى

حتى الفتح العثمانى) القاهرة سنة ١٩٥٩ م ،

عبد العزيز محمد الشناوى :

أ - (أوربا فى مطلع العصور الحديثة) ، ط١ ، دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٦٩ م

ب- (الدولـة العثمانيـة دولـة إسلامية مفترى عليها) ، أربعة أجزاء ، ط١ ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة سنة ١٩٨٤ م .

عبد المنعم ماجد :

أ- (طومان باى آخر سلاطين المماليك فى مصر) (دراسة للأسباب التى أنهت حكم المماليك فى مصر) مكتبة الأنجلو ، القاهرة سنة ١٩٧٨ م .

ب - (التاريخ السياسى لدولة المماليك) (دراسة تحليليـة للإزدهار والأنهيار) مكتبة الأنجلو ، القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

جـ - (العلاقات بين الشرق والغرب) ، مكتبة الجامعة العربية ، بيروت ، سنة ١٩٦٦ م

د - (نظم العلاقات دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر) .

(دراسة شاملة للنظم السياسية) مكتبة الأنجلو ، ط٢ ، القاهرة سنة ١٩٧٩ م.

عمر الأسكندرى والميجر ا. ج سفدج :

(تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى) (مع نبذ من أخبار الأمم التى أرتبطت بمصر إلى ذلك العهد) ط٧ ، مطبعة دار المعارف بالقاهرة ، سنة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٥ م .

كارل بركلمان :

أ - (الأتراك العثمانيون وحضارتهم) ، ترجمة نبية أمين فارس ومنير البعلبكى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط١ ، سنة ١٩٥٢ م.

ب - (تاريخ الشعوب الإسلامية) ،

ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط١، سنة ١٩٤٩ م.

محمد أنيس : (الدولة العثمانية والمشرق العربى سنة ١٥١٤ - ١٩١٤ م) .

مكتبة الأنجلو بالقاهرة بدون.

محمد جميل بيهم :

أ ـ (فلسفة التاريخ العثمانى) (أسباب إنحطاط الإمبراطورية العثمانية وزوالها) ،

المطبعة الوطنية ، بيروت سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م.

ب ـ (العرب والترك والصراع بين الشرق والغرب) ،

المطبعة الوطنية ، بيروت سنة ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م.

محمد حرب : (العثمانيين فى التاريخ والحضارة) سلسلة دراسات عثمانية

نشر المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى ،القاهرة ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤م.

محمد رفعت بك : (تاريخ مصر السياسى) ،

المطبعة الأميرية ، بولاق ، القاهر ط ٤ سنة ١٩٣٨ م.

محمد عبد الله عنان : (مؤرخو مصر الإسلامية) ،

نشر مؤسسة مختار للتوزيع ، القاهرة سنة ١٩٩١م.

محمد فريد : (الدولة العلية العثمانية) مطبعة التقدم ، القاهرة سنة ١٣٣٠ هـ / ١٩١٢ م.

محمد محمد أمين : (الأوقاف والحياة الإجتماعية فى مصر) ،

٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م دراسة تاريخية وثائقية ، القاهرة ١٩٨٠ م.

محمد مصطفى زيادة : (نهاية سلاطين المماليك فى مصر) مستخلص من مجلة الجمعية

التاريخية المجلد الرابع ، العدد الأول ، شهر مايو ، سنة ١٣٧١ هـ ١٩٥١ م.

محمد وصفى : (باب زويلة) ،

مجلة كلية الآثار ، العدد الأول ، القاهرة ، سنة ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م.

محمود ثابت الشاذلى : (المسألة الشرقية) ،

دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية ، مكتبة وهبه القاهرة ، بدون.

محمود رزق سليم : (عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى)

نشر مكتبة الآداب بالجماميز ، مطبعة التوكل ، القاهرة ، سمة ١٣٦٦ هـ /١٩٤٧م.

هذا سكندر عمون : (تاريخ مصر)

مكتبة المعارف ،القاهرة ، ط٣ ، سنة ١٣٤١ هـ / ١٩٢٣ م.

هربرت فيشر :

أ ـ (تاريخ أوربا فى العصر الحديث١٧٨٩ ـ ١٩٥٠ م) ،

ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع ، نشر دار المعارف بالقاهرة ، ط٥ ، بدون.

ب ـ (تاريخ أوربا فى العصور الوسطى) ،

ترجمة محمد مصطفى زيادة وزميليه ، طبع دار المعارف بالقاهرة ، بدون.

وليم موير : (تاريخ دولة المماليك فى مصر ١٢٦٠- ١٥١٧م) ،

ترجمة محمود عابدين وسليم جسن مطبعة دار المعارف بالقاهرة ، بدون.

يلماز أوزتونا : (تاريخ الدولة العثمانية) ،

نشر مؤسسة فيصل للتمويل ، إستانبول ، سنة ١٩٨٨م.

يوسف آصاف : (تاريخ سلاطين آل عثمان) مكتبة النهضة ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٠٩ م.

المراجع الأجنبية :

Gavid , Bagsun Gem Sultan Istanbul ; 1946.

Khulil Edhhem : Meskukat Osmanli . I. Gataloyuc des mamnaie: Islamiques de Musee in p. vi.

Lume- Poole's ; Ahistory of Egypt in the Middle Ages. London, 1901.

Laoust ; Les Scheismes daus :'Islam. Introduction Muslmane; Pari: 1965.

Toynbee, A. J; Aneuo Pprtunity for Historians, London, 1956.

Weit. L'Egypt Musulaman de La Conquerc Arabe et La Conquet Otla,mmame.

Tome Tome. Iv. Le Caire; 1938.

فهرس الموضوعات

الموضوعات	رقم الصفحة
تحليل المصادر	١
الفصل الأول........... التعريف بدولتي المماليك والعثمانية	١٠
أصل المماليك فى الدولة الإسلامية.	١١
التعريف بالمماليك والجراكسة	١٤
ظهور المماليك على مسرح الأحداث .	١٧
الدولة العثمانية ونشأتها .	٢٤
فى البدء كانوا عشيرة .	٢٥
أصل بنى عثمان .	٢٧
أسماء الدولة عبر تاريخها .	٢٨
اعتناق العثمانين للإسلام .	٢٩
العثمانيون يطورون أسلوب حياتهم .	٣١
أستقلال الأمير عثمان وإتساع رقعة بلادة	٣١
مظهر العثمانين الدينى .	٣٣
عالمية الدولة العثمانية .	٣٤
أهم سلاطين العثمانين فى سطور .	٣٥
موقف السلطان حقمـق من معركة فارنا .	٤٠
السلطان محمد الثانى (الفاتح) .	٤٠
الفاتح والقسطنطينية .	٤١
الفصل الثانى........... تطور العلاقات المملوكية العثمانية	٤٤
الاتصال العثمانى المملوكى .	٤٥
نظرة المماليك للعثمانين والعكس .	٤٧
السلطان بايزيد الأول وبرقوق .	٥١
السلطان مراد الثانى وبرسباى .	٥٦
السلطان مراد وجقمق .	٥٧
مصر والفتح الأكبر سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م .	٥٨
بوادر الاحتكاك العثمانى المملوكى .	٦٠
الصراع الأسرى العثمانى .	٦١
العلاقة بين السلطان محمد الفاتح وإينال .	٦٣
العلاقة بين السلطان محمد الفاتح وخشقدم .	٦٥

الموضوعـــــــات	رقم الصفحة
العلاقة بين السلطان محمد الفاتح وقايتباى .	٧٠
لجوء السلطان جم إلى مصر .	٧١
العلاقة بين السلطان بايزيد الثانى وقايتباى .	٧٥
الصراع العثمانى المملوكى	٧٧
الفصل الثالث : الخلاف العثمانى المملوكى	٨٣
العلاقات فى عهد قايتباى .	٨٦
السلطان قانصوة الغورى .	٨٨
العثمانيون وفتح الشام .	٩٢
الأوضاع العثمانية ٩٢١هـ / ١٥١٦ م .	١٠١
الموقف المملوكى قبيل المعركة .	١٠٢
معركة مراج دابق ٩٢١ هـ/ ١٥١٦ م .	١٠٤
العثمانيون وفتح مصر .	١١٠
الأشرف طومان باى .	١١٢
طومان باى نائب الغيبة .	١١٢
واقعة غزة .	١١٧
واقعة الريدانية ٩٢٢ هـ/١٥١٧ .	١٢٤
دخول العثمانين القاهرة .	١٢٤
طومان باى والمقاومة المصرية .	١٢٥
واقعة أطفيح ونتائجها .	١٤١
مساعى الصلح بين الطرفين .	١٤٢
فشل محاولة السلطان سليم فى عبور النيل .	١٤٦
عبور النيل وموقعة الجيزة .	١٤٨
تدخل عرب غزالة إلى جانب العثمانين .	١٤٩
واقعة وردان .	١٥٠
القبض على طومان باى وإخفاق المقاومة .	١٥٢
شنق طومان باى على باب زويلة .	١٥٦
مصر ولاية عثمانية .	١٥٩
عوامل عجلت بنهاية المماليك الجراكسة .	١٦١
الخاتمة	١٦٨
قائمة المصادر والمراجع :	١٧٢